جبّور الدويهي

طُبعَ في بيروت

رواية



طُبعَ في بيروت

صدر للكاتب

- **الموت بين الأهل نعاس**، قصص قصيرة، دار المطبوعات الشرقية، بيروت ١٩٩٠.
- **اعتدال الخريف**، رواية، دار النهار، بيروت ١٩٩٥. حازت جائزة أفضل عمل مترجم من جامعة أركنساس في الولايات المتحدة. ترجمت إلى الفرنسية والإنكليزية.
- **ريّا النهر**، رواية، الطبعة الأولى، دار النهار ١٩٩٨، الطبعة الثانية، دار الساقي ٢٠١٤.
- **روح الغابة**، قصة للصغار بالفرنسية، دار حاتم ٢٠٠١. حازت جائزة سان اكزوبيري الفرنسية لأدب الشباب.
- **عين وردة**، رواية، دار النهار ٢٠٠٢. ترجمت إلى الفرنسية.
- **مطر حزيران**، رواية، الطبعة الأولى، دار النهار ٢٠٠٦، الطبعة الرابعة، دار الساقي ٢٠١٢. اختيرت ضمن القائمة القصيرة للجائزة العالمية للرواية العربية عام ٢٠٠٨. ترجمت إلى الفرنسية والإيطالية والألمانية والإنكليزية والأسبانية والتركية.
- **شريد المنازل**، رواية، الطبعة الأولى، دار النهار ٢٠١٠، الطبعة الثانية، دار الساقي ٢٠١٢. اختيرت ضمن القائمة القصيرة للجائزة العالمية للرواية العربية عام ٢٠١٢. حازت جائزة "حنّا واكيم للرواية اللبنانية" ٢٠١١، وجائزة "الأدب العربي" (مؤسسة لاغاردير ومؤسسة العالم العربي ٢٠١٣). تُرجمت إلى الإيطالية والفرنسية.
- **حيّ الأميركان**، رواية، دار الساقي ٢٠١٤. حازت جائزة سعيد عقل ٢٠١٥. تُرجمت إلى الفرنسية.

تصميم الغلاف: سومر كوكبي

جبّور الدّويهي

طُبِعَ في بيروت



الطبعة الأولى 2016

ISBN 978-6-14425-940-5

دار الساقي
بناية النور، شارع العويني، فردان، ص.ب: 113/5342، بيروت، لبنان
الرمز البريدي: 2033—6114
هاتف: 442 866-1-961+، فاكس: 443 866-1-961+
email: info@daralsaqi.com

يمكنكم شراء كتبنا عبر موقعنا الإلكتروني
www.daralsaqi.com

تابعونا على

@DarAlSaqi

دار الساقي
Dar Al Saqi

إلى فارس ساسين

١

في عزّ صيف لاهب استبدّ بمدينة بيروت في العقد الثاني من القرن الواحد والعشرين، نزل شاب مرفوع الحاجبَين المقوَّسين كأنّه يومئ دائماً بقول لا، من باص للنقل المشترك لُصق على جانبيه إعلان "لا تنسوا المخطوفين والمغيّبين قسراً ومعوّقي الحرب"، وهو يحمل إلى جهة القلب من صدره دفتراً سميكاً غلافه أحمر، كمن يعلّق بعنقه يداً مصابة بكسر أو بطلق ناري. يندفع ضارباً الرصيف بكعب حذائه الجديد فبدت أشجار الأرصفة الذابلة والمارّة البطيئو المسير كأنهم عوائق تقف في وجه مقاصده الملحّة. يدخل عمارة تزيّن واجهتها منحوتة من البازلت الداكن أصابتها يوماً قذيفة مدفعية ضاعفت من طابعها التجريدي، يرتّب ربطة عنقه الحمراء الفاقعة أمام مرآة المصعد قبل أن يدخل على رجل يصعب التكهّن بعمره زيّن جدار مكتبه بملصق باللغة الألمانية لمسرحية "أوبّرا القروش الأربعة". كان صاحب النظارة السميكة الجالس خلف مكتبه يتحايل على ضجره منذ الصباح ويمتحن ذاكرته الخرافية المشهود لها بين أصدقائه بطباعة معلقة زهير بن أبي سلمى عن ظهر قلب وبإصبع

واحدة. يحرّكها كاملة، يختار لكلّ بيت حرفاً مطبعيًا مختلفاً حتى يستنفد قائمة "ويندوز" المتوفرة. كان وسط البيت الشهير يصفّه بالحرف "الأندلسيّ المعدّل":

وَمَا الحَرْبُ إلاَّ مَا عَلِمْتُمْ وَذُقْتُمُ
وَمَا هُوَ عَنْهَا بِالحَدِيثِ المُرَجَّمِ

عندما انتصب أمامه الشاب الطويل القامة فبقيت سبّابته اليمنى مرفوعة في الهواء وهو ينظر إليه يعرّف بنفسه:

- نهارك سعيد، أنا فريد أبو شَعر!

- هل هذا اسم مستعار؟

لم يستسغ الشاب مزاح الناشر الذي تناول منه الدفتر متأمّلاً ملامحه. فتح الصفحة الأولى فصفّر عجباً ورفع حاجبيه أكثر قبل أن يقرأ منادياً:

- **الكتاب الآتي.**

ويزيد بلهجة محبطة:

- العنوان لموريس بلانشو!

يعيد إليه دفتره. ما عادوا يستقبلون مخطوطات مكتوبة باليد منذ عشر سنوات على الأقل وتوقفوا عن نشر دواوين الشعر، فالمستودع مليء بها وهم يعطونها بالمجّان لمن يرغب. اعترض الشاب بأنّ كتابه ليس شعراً فعاجله الجالس خلف المكتب بالقرار الحاسم:

- توقفنا عن نشر النثر أيضاً!

شدّ فريد أبو شَعر قبضته اليمنى وانصرف. الجواب الجارح

الذي لم يصفع به البدين الجلف الذي أكمل طباعة معلقة زهير على حاسوبه، تمتمه في المقعد الخلفي لسيّارة الأجرة التي أقلّته إلى البيت في ضاحية فرن الشبّاك القريبة. فور وصوله، اشتكت أمّه من أوجاعها، من الفاريس، الدوالي التي بدأت تخطط رجلَيها منذ ولادته هو، صغير صبيانها الثلاثة.

- وُلدتَ كبيراً، خمسة كيلوغرامات.

أطعمته الفوارغ، تنظفها بحامض الليمون وتُكثر في حشوتها البصل والصنوبر كما يشتهي. تمدّد بعدها في قيلولة هانئة على الكنبة أمام التلفاز.

فيّ اليوم التالي، كان موعده بالقرب من منارة مرفأ بيروت التي رُمّمت ولم يُستأنف العمل بها، طلاؤها الأسود والأبيض الجديد يلمع في نور شمس الصباح. استقبلته سيدة تدخّن سيكاراً طويلاً ورفيعاً، طلبت له القهوة من دون أن تسأله. فرَدَت بإبهامها صفحات دفتره عن آخرها ورازَتْه. أمامها على المكتب صورة لوالدها، شعره الكثيف مرفوع إلى الخلف، يسند كتفه إلى حجر باب جامعة السوربون برفقة مكسيم رودنسون. ترك دار النشر لابنته التي تأخذ سحبة خفيفة من سيجارها وتجمع أرقاماً على مفكّرةٍ أوراقُها صفراء، ترفع عنها رأسها لتجد المنتظر صامتاً يراقبها. واثقة من نفسها، سمراء، مثيرة. لم تسايره:

- أربعة آلاف دولار أميركي وتأخذ مئتَي نسخة مجّاناً.

حرّك قسماته استنكاراً فأضافت:

- طباعة وصفّ وتصحيح...

حاول الاعتراض لكنّها وقفت، أسكتته وأمسكته من يده، مشت به إلى الباب الخارجي مواسية:

- لا أحد يقرأ. إمّا نُقفل دكاكيننا وإمّا نتصرّف كبنات الهوى...

تابع سعيه، مجروحاً، مطمئناً نفسه بأنّ من سيتمعّن في كتابه سيكون له كلام آخر.

صعد على الدرج إلى الطابق الخامس وعرق راحة يده يطبع بقعة داكنة على غلاف دفتره الأحمر. قال له أفيديس، صاحب "دار الروائع"، معتذراً بلكنته الأرمنية العربية، إنّه متخصّص فقط في نشر الكتب "القديمة"، **الروض العاطر في نزهة الخاطر**، **تحفة العروس** وما يدّعي أنها **ألف ليلة وليلة** بطبعتها الإيروتيكية الأصلية، كتب تشتريها النساء خصوصاً، كما قال. غادر فريد أبو شَعر من دون أن يبتسم لغمزة أفيديس الأخيرة.

التقى في المقهى ناشراً مكتبُه سيّارته، دخل مستعجلاً، نظارته سوداء، فتح حاسوبه المحمول أمامه على الطاولة، قال إنه يُعنى بالمنشورات الإلكترونية فاعتذر منه فريد لأنّه يريد كتاباً من ورق، فخرج الناشر من دون أن يترك وراءه أثراً. مجرّد رائحة عطر رجّاليّ دبق في طور التحلل مع عرق الأجساد وبنكهة الصنوبر البريّ.

صبحي الجعبري أخذ منه الدفتر في مكتبه المكيّف، وضعه أمامه، شبك أصابع يديه فوقه وسرد عليه ملخّصاً يتمرّن على صياغته كمقدّمة لسيرته الذاتية التي نضجت لديه فكرة كتابتها. حُكم بالإعدام في حلب بعد أن تظاهر ضد الانفصال عن مصر وهرب من المخابرات إلى بيروت في زيّ امرأة.

- لحقوا بي إلى هنا، أطلقوا عليّ النار في شارع الحمراء بنيّة القتل ومع ذلك عشتُ على مزاجي، عشقتُ النساء، دخنت السيجار الكوبي وشربت الويسكي وأصدرت مجلة قلت فيها كل ما أردت قوله.

وما لم يقله أنه يترجم روايات ماركيز ويقرصن كتب نجيب محفوظ من دون أن يدفع الحقوق لأصحابها.

رافقه إلى باب المصعد، ودّعه من دون أن يفتح دفتره.

الوحيد الذي تعاطف معه كان سليم خيّاط. ذكّره بزوجته، كل كتابة تذكّره بها، كانت تنظمُ الشعرَ في المصحّ الجبلي وهي تسابق المرض الذي يفتك بها. دار النشر هذه أسّسها لها، لإصدار دواوينها ومؤلفات أصدقائها ويداوم هنا فقط كي يشتمّ رائحتها. أهدى إليه كتابها الأخير، أوراق جارورها المبعثرة، **محفوظات القلب**.

فتح أبو شَعر صفحة كيفما اتفق وقرأ وهو ينزل السلالم:

بيروت المدينة الوردية،
فيها تُفرغ الأفكار والقوافل،
معقل الشرق الأخير
لابن الإنسان فيها رداء من نور...

موجة باهرة أطبقت على صدره، خشي أن تهزمه الشاعرة الرقيقة المتوفاة فأغلق كتابها وراح يبحث عن سلّة مهملات كي يتخلص من ديوانها.

انتهت جولته في مطبعة "كرم إخوان، تأسّست عام ١٩٠٨"،

والشمس تغيب بين مآذن المسجد الأزرق الكبير. مشى صعوداً في طريق ضيّق فدخل واحة من أشجار الليلك كأنّه خرج من المدينة، رأى هرّتين تلعبان في الفناء واشتمّ رائحة الحبر. استقبله رجل في خدّه ندبة، جرح عميق مقطّب، عبد الله أو دودول، وريث المطبعة الأخير، أصغى إليه وهو يتفحّص هندامه.

عندما قال فريد إنه يودّ نشر كتابه هذا، جاءه الردّ من الخلف، من زاوية الغرفة، بلهجة عربية ركيكة:

– ماذا في الكتاب؟

لم ينتبه إلى وجودها لحظة دخوله، كانت جالسة في المقعد الجلدي تقرأ رواية **لا تطلق النار على الطائر الساخر**، بالفرنسية.

– دوّنت فيه عصارة كياني!

نقل عبد الله ما قاله أبو شَعر إلى الفرنسية كي تفهم زوجته التي مدّت يدها اليمنى بحركة لاإرادية باتّجاه المخطوطة كأنّ هذه "العصارة" ستكون بادية فيها ما إن تقلّب صفحاتها.

– نحن بحاجة إلى مصحّح للغة العربية...

أربكه اقتراح صاحب المطبعة، أحسّ بنظرات المرأة في ظهره، طلب مهلة للتفكير، تمنّى عليه عبد الله أن لا تكون طويلة. عاد في مطلع الأسبوع التالي حاملاً دفتره. الهرّتان ما تزالان هناك، الرجل في المكتب وحيد، لا أثر للمرأة الشابة. رأى أيقونة صغيرة للعذراء سيّدة البحار ملصقة على المطبعة الرقمية الجديدة الضخمة. دلّوه إلى مكتب المصحّح وسط الردهة الشاسعة المكتظة بالآلات والمكاتب والعاملين، قال في نفسه إنه لن يعتاد رائحة الحبر واعتادها.

٢

اعتاد أيضاً الوجه العابس لصاحب الصورة بالأسود والأبيض المعلّقة داخل إطار مذهّب على عمود الحجر الوسطي.

فؤاد كرم، "الجدّ المؤسس" للمطبعة.

كان في منتصف العقد الثالث من العمر عندما جاء صيف ١٩١٤ بأخبار الحرب من كلّ صوب فاتفق مع شقيقه البكر على أن يغادر أحدهما بيروت، على أن لا يمكثا معاً في مقام واحد ساعة الشدّة. يسافر أحد الأخوَين فيكمل رحلة والده الذي جاء من حلب إلى لبنان قاصداً بلاد النيل عندما أغرم بوالدتهما، ابنة خاله الذي استضافه، فبقي في بيروت راضياً بالقليل. تركا الأمر للصدفة، ينزلان إلى سوق إياس فإذا استعطاهما شحّاذ يكون الاختيار من حصّة البكر، وإذا التقيا بائع الجريدة تكون الكلمة لفؤاد. مع وصولهما إلى بركة الماء انقضّ عليهما شاب رثّ المظهر مضطرب النظرات حسباه مُعدماً يطلب حسنة إلى أن دسّ تحت سترة فؤاد نسخة من صحيفة اسمها "القسطاس" كان والي بيروت باكر سامي باشا قد منعها من الصدور، واختفى في زقاق كما ظهر من دون أن يطلب مقابلاً. قرأ الشقيقان

العنوان "الحماية الفرنسية وإلحاق بيروت بجبل لبنان"، فتسابقا على رمي الجريدة وتمزيقها وهما ينظران حولهما خوفاً من وجود واشٍ في الجوار. اعتبرا الشاب بائعاً واعتُبر فؤاد فائزاً فتلعثم لأنّه لم يكن قد استقرّ على رأي بعد وفجأة سمع نفسه يقول:

- أبقى في بيروت!

ودّعه شقيقه بعد أن سلّمه مفتاح بيته وأبحر على متن الباخرة الإيطالية "سيراكوزا" إلى الاسكندرية برفقة زوجته الباكية من دون توقف على فراق أهلها، تلوّح بالمنديل الأبيض لمودّعيهما حتى بعد أن عاد هؤلاء إلى منازلهم وغابت المدينة عن ناظرَيها خلف الأفق.

أمّا الحرب فوفت بوعدها سريعاً، ويوم بلغ بحّارة الفرقاطة الألمانية "غويين" خبر إعلان بلادهم التعبئة، انفجروا فرحاً، حملوا الأميرال سوشون، الملقّب ثعلب البحار، على الأكتاف وطافوا به على سطحها مهللين تاركين بقعاً كبيرة من الشحم على بزّته البيضاء النقيّة. أبحروا إلى اسطنبول وأصواتهم تعلو بالأناشيد الحماسية وشاركوا في قصف أوديسا وسيباستوبول وهم يسخرون من لهجة تبادل الأوامر بين حلفائهم الضبّاط الأتراك فوق الطرّاد الحميدي. أعلن العثمانيون النفير العام بدورهم، حشدوا في أنحاء السلطنة ثلاثة ملايين متطوّع سيسقط منهم في المعارك نحو ثلاثمئة ألف وسيقضي نحو نصف مليون بالأمراض وسوء التغذية ونقص العتاد ورداءة الألبسة. أغلق البريطانيون البحر وضربت بيروت الشائعات فحمل سكّانها من الموارنة ما خفّ وزنه وغلا ثمنه وفرّوا بما وجدوه من عربات الخيل عائدين إلى قراهم الجبلية، بينما انحشر الكثير من

المسلمين في القطار سعياً للوصول إلى دمشق، والتجأ الدروز برّاً إلى أقاربهم في حوران فنفد الفحم الحجري وقُطعت أشجار التوت من الجبال القريبة لتسيير القطارات. ضاقت الدنيا بالعوام وشرب الضبّاط الأتراك الشمبانيا في بيوت الأثرياء يلعبون البريدج محاطين بالجميلات من النساء وبعازفي الكمان.

قال فؤاد كرم في نفسه، وكان ما يزال يُعرف حينها بفؤاد كرّوم، إن حظّ شقيقه الأكبر دائماً أفضل من حظّه. يقضي الليالي قلقاً على ما لديه في البيت من مؤونة، متأمّلاً زوجته النائمة فتراوده بإلحاح قرابة منتصف الليل فكرة ترك كلّ ما اقتناه والسفر سرّاً إلى حيفا فالعرّيش ومن هناك إلى القاهرة، إلى حياة جديدة عوضاً عن تلك التي بدأها صعبة في بيروت، فينتبه من هذيانه إلى أن زوجته بقربه حامل ولن يتركها. ينهض ويقترب من النافذة مراجعاً للمرّة الألف حساب مدّخراته ولا ينام إلّا عندما يقرع راهب من الإخوة الأغرار جرس القدّاس الأوّل في كنيسة مار يوسف داخل دير اليسوعيين في الجهة المقابلة من الشارع.

حضر جمال باشا بالبزة العسكرية والقلبق إلى بلدة عاليه، فرشَ له مستقبلوه عشرات الأمتار من السجّاد الأحمر فخطب فيهم قائلاً إن الدولة العليّة هي أمّكم التي ترأف بكم وتنقذكم من الأجانب فأطيعوا قوانينها لتعيشوا بسلام. عاد في العام التالي إلى بيروت برفقة أنور باشا وزير الحرب، والهزيمة التي كبّده إيّاها المايجور جنرال السير جون ماكسويل في قناة السويس التي حاول أن يغزوها بخمسة آلاف جمل عدا البغال، بادية في تقطيبة وجهه. طُردت جموع المتسوّلين

الهابطين من الجبل من الطرقات كي لا يقع نظر قائدَي جمعية الاتحاد والترقّي عليهم. لبّى جمال دعوة للعشاء من الصائغ يوسف الهاني وقائمة المحكومين بالإعدام في جيبه فحضر أحد ضبّاطه وأسرّ له على الشرفة بأنّ مضيفه من الموقّعين على العريضة المطالبة بالحماية الأجنبية التي كانت قد اكتُشفت قبل ساعات في جدار القنصلية الفرنسية، فغادر الحفل ممتقع الوجه بعد أن شدّ على يد الهاني وزوجته وأمر بشنقه بعد أيّام.

أيّامٌ كان فؤاد كرم يخشى في لياليها النوم كي لا يعاوده حلم يرى فيه نفسه يحاول عبثاً التقاط طائر غريب ينفر منه فيفتح يديه ليجدهما مضرّجتين بالدماء. وفي ليلة سمع كلاماً صارخاً داخل الدير، أوامر تعطى بالتركية والعربية وردود عليها بالفرنسية أو الإيطالية، صوت باب يُصفق بقوة وتهديد تبعه صمت يقطعه فقط طرطقة أحذية الجنود على بلاط الدير. أخبره في الصباح الأب لامبير البلجيكي المحنيّ الظهر الذي كان يراه جالساً يقرأ عند درج الكنيسة أنّهم سيختارون راهباً أميركياً بلاده لم تدخل الحرب، الأب ماك كورت، ليكون حارساً على أملاك اليسوعيين الذين أنذروا بضرورة الرحيل. قرابة الظهر طلع الناس إلى سطوح المنازل والأولاد يصفّقون والكبار ينهونهم وينظرون إلى الأفق ينتظرون بارجة حربيّة لم تُعرف جنسيّتها قيل إنها ستقصف بيروت عند غروب الشمس. حُكي عن فقدان الطحين قبل فقدانه وعن الجوع قبل وقوع أولى ضحاياه، مُنع الصيد وبدأ يظهر في الشوارع متسوّلون لم يحملوا إلى بيروت من قراهم الجائعة سوى أجسادهم المهدودة.

وزّع اليسوعيون كؤوس القربان الذهبية وموازين الفيزياء وأدوات تشريح الجثث في كليّة الطبّ والسجّاد والأثواب الكهنوتية وكتب الصلاة على عائلات الجوار من المسيحيين الموثوقين المواظبين على حضور الذبيحة الإلهية في كنيسة القديس يوسف، وصعد حوالى ثلاثمئة راهب وراهبة مريميين وعازاريين وكبوشيين وفرانسيسكان وغيرهم قادمين من نواحي فلسطين وسوريا إلى مركب معدّ لخمسين، ميمّمين شطر الشواطئ اليونانية، وما إن ابتعدوا عن مرفأ بيروت حتى أطلقوا معاً باللاتينية صلاة "السلام عليك يا مريم" لتنجّيهم من غرق وشيك.

في الأثناء كان فؤاد يلتقي بالرجل صاحب العربة التي يجرّها بغل، ينقل ميتاً مرضاً أو جوعاً وجده عند قارعة الطريق، يرمي عليه رداءً ويأخذه على مهل إلى جبّانة الباشورة. كان فؤاد يراه عند العصر ومرّة التقى به في طريق ضيّق، ابتسم له فأشاح فؤاد بوجهه وخفّ الخطى هارباً فيما الرجل يغنّي لنفسه موّالاً بغدادياً والميت ممدّد خلفه. رآه ليلاً هذه المرّة، قبل أن يغلبه النعاس، لمحه من نافذته يتوقف أمام باب الدير وبرفقته رجل طويل القامة يعتمر طربوشاً وما لبث أن لحق بهما رهط من العساكر، أشباح في ضوء القمر توغلوا في دير اليسوعيين. اطمأنّ فؤاد إلى نوم زوجته، ردّ الباب وراءه واجتاز الشارع ليلحق بهم. إذا أمسكوا به يدّعي أن الرهبان كلّفوه بالحراسة قبل رحيلهم. أشعلوا مصباحاً ودخلوا المبنى الخلفي فالتصق بجدار الحجر وأصغى.

- تريد قطّاعة الورق هذه ومطبعة الليتوغرافيا وأدوات الخياطة

والتذهيب والتجليد جميعها؟

- كلّ شيء، كلّ شيء.

- الآلة الكبيرة المزدوجة لا يمكن نقلها هكذا، لا يمكن حملها، يجب تفكيكها.

- أنت تعمل هنا وتعرف، تفكّكها الآن وستطلع يا حلواني إلى الشام لتركيبها هناك ولا تنسَ الحروف، شدّد الوالي على عشر لغات، العربية والفرنسية واللاتينية والأرمنية وغيرها والكتب، جميع الكتب...

تردّد قليلاً وأضاف بلهجة حازمة:

- تنقلونها على دفعتين أو ثلاث إلى محطة القطار في الكرنتينا، يحضر الجميع إلى هنا، في مثل هذا الوقت، ننتهي قبل الفجر والسلام.

سمع فؤاد ما يكفي فانسحب خلسة. حضروا بعد خمسة أيام، عربات كثيرة وجيش من الحمّالين ترافقهم فرقة جنود كاملة، جاؤوا ليلاً فلم يجدوا ما ينقلونه، كان المكان نظيفاً فعادوا أدراجهم ليبلّغوا الوالي.

في اليوم التالي كان الضبّاط الأتراك مشغولين بأخبار متواترة عن توجّه البوارج الفرنسية إلى الشواطئ اللبنانية واقتراب موعد انسحابهم من بيروت ومن البلاد التي فتحها أجدادهم عام ١٥١٦، فاحتفظ سائق عربة الموتى بالمال المخصّص للحمّالين وأصحاب العربات الأخرى الذين أحضرهم لنقل المطبعة، ولم يطالبه به أحد.

٣

"مطبعة كرَم إخوان، ١٩٠٨".

أسقط فؤاد حرف الواو من اسم عائلته، كرّوم، عند الإحصاء السّكاني الأوّل الذي أجراه الفرنسيون عام ١٩٢٢ وقاطعه المسلمون. وبشطحة قلم صار ابن تاجر الحبوب الحلبي بالمفرّق لبنانيّاً مسجّلاً في حيّ المدوّر ببيروت من دون أن يكون قد سكن فيه يوماً. ادّعى أنّه ماروني لشعوره بأن طائفة السريان الكاثوليك التي ينتمي إليها أهله وتكلّم والده لغتها بطلاقة قلّة قليلة لن يكون لها شأن يُذكر في دولة لبنان الكبير الجديدة، فسجّله موظّف القيد مارونيّاً بناءً على شهادة من أحد مخاتير بيروت، وألحق نفسه وأولاده بنسب شائع في مدائن المشرق وبين طوائفه، كرم، ويصعب حصر صلات القربى والسلالة داخله.

مئة عام بدأت من جوار القنصلية الروسية القديمة في بيروت حيث كان فؤاد يعمل أول الأمر بيده في النهار مع شريكه عبد الحميد الحلواني وما يجنيه من مال يفتح به ليلاً زجاجات الشمبانيا للفتيات اليونانيات. حاولن تعليمه رقصة الهاسابيكوس، ضحكن من بدانته

وتغامزن عليه بعد أن استبدل الطربوش بالقبّعة الافرنجية. يتسابقن إلى ملاقاته بمجرّد أن يظهر في باب الكباريه، يعود متأخّراً بعد أن يهدّه الشراب ليتلقّى في زقاق معتم ضربة على رأسه من قاطع طريق يتمدّد إثرها مُغمىً عليه حتى الفجر، فوجدوه وقد سُلبت منه سترته وليرة الذهب الاحتياطية التي يحتفظ بها دائماً في جيبه. يبذّر مدخوله فتهدّده زوجته بأمور تعجز عن الإقدام عليها، فالحظّ كان حليفه، المدارس فُتحت من جديد والصحف عادت إلى الصدور بعد الحرب، إذا توقفت "النبراس" ظهرت مكانها "المرأة الجديدة" وبعد "المعارف" تأتي مجلّة "الفوائد". تضاعفت مداخيله، جاء بعمّال جدد ضاق بهم المكان فانتقل في اتّجاه جنوبي شرقي إلى طابق أرضي واسع في "طريق الشام".

بدأ هناك طبع الروزنامات المزيّنة بصور القدّيسين وبطاقات الزيارة والقرطاسية لمصلحة سلطات الانتداب الفرنسي، وكان العمّال وهم يصفّون الأحرف أو يقطّعون الورق، يتابعون من النوافذ دفن الأموات في مقبرة الروم الملكيّين الكاثوليك واعتادوا رؤية زائرة صباحيّة بيضاء جميلة تحمل كلّ يوم باقة من الأقحوان بين الصلبان وملائكة الرخام. وإلى هناك وصل فؤاد بصعوبة، ملهوفاً، صباح يوم أغرقت فيه شتوة خرافيّة بيروت وأقلقته على المطبعة، فصَدَق خوفه عندما وجد المياه قد غمرت الآلات ومستودع الورق. اسودّ وجهه، ولمّا رأى بعينه النسخة الثمينة من القرآن بالخطّ المشكول على ورق نادر وكتاب **خلاصة الذهب المسبوك في مختصر سيَر الملوك** غارقَين في بركة ماء وقد بدأ حبر كلماتهما يتحلّل، ضاق نفَسه فخرج إلى

الشارع، إلى الهواء، تحت المطر المنهمر ليقع أرضاً ويُسلم الروح بعد أيّام قليلة في مستشفى "أوتيل ديو دو فرانس" القريب.

نزح ابنه بالمطبعة شمالاً، حزناً على والده وخوفاً من تكرار الفيضان، إلى ما كان سُمّي حديثاً شارع عبد الوهّاب الانكليزي الذي شنقه الاتراك في الشام ودخل في عداد شهداء استقلال لبنان. أضاف إلى أعماله طباعة إصدارات اليانصيب الأسبوعية وجرائد سباق الخيل، وواجه شكاوى سكّان البناية والجوار بسبب ضجيج الآلات العاملة ليل نهار أحياناً، يوقظهم صباحاً ويحرمهم القيلولة ظهراً فتخرج النساء إلى الشرفات يشتمن العمّال عند مغادرتهم المطبعة فيتدخّل رجال الأمن ويعودون برشوة من آل كرم تسكتهم لأشهر. فصارت نفايات الجيران المنزلية تسدّ باب المطبعة عمداً أو تُرمى إلى داخلها ليلاً من نافذة مفتوحة. تكاثرت الوشايات من كلّ نوع والتذمّر بحجّة أنّ هناك مرضى لا يتحمّلون هذه الضوضاء، حتى اختار ابن فؤاد كرم الفرار من هذه الحرب الأهلية وقد ضاق عليه المكان من جديد عندما استورد آلة أوفسيت من الطراز الجديد. نجح كذلك في اختراق دائرة الوجاهات البيروتية عندما تزوّج بابنة عائلة كانت أول من تاجر بالسيّارات الأميركية وأول من ربّى الجياد العربية للسباق في بيروت.

أمضت مطبعة كرم إخوان أكثر من عقدين من الزمن في جوار مدرسة الحكمة، تعهّدت جميع مطبوعاتها وسلسلات الكتب وبطاقات علامات الطلاب والمجلة الأدبية الشهيرة التي تحمل اسم المدرسة. كانت المدينة مزدهرة والعمل مزدهراً عكّره خلاف بين

حفيدَيْ فؤاد كرم، كان لا مفرّ منه بعد وفاة والدهما المبكرة. شقيقان شابّان عجزا عن تحويل عمل العائلة إلى مؤسّسة تجارية لها قانون، لك ما لك ولي ما لي. ولمّا اقترح عليهم أصدقاء محامون تأسيس شركة محدودة الصلاحية وتدخّل نائبا بيروت عن الموازنة وعن الأقليّات المسيحية لمصالحتهما، كانت الهوّة قد اتّسعت عبر تبادل التهم جهاراً. الصغير ينعت الكبير أي لطفي كرم بالطمّاع وناصب الأحابيل ويدعو الله أن لا يُشبعه، والبكر ينكر على الصغير جدارته بعد أن ارتكب هفوات موصوفة ومكلفة. كل ذلك بتشجيع من زوجتيهما وأشكال الغيرة المبتكرة بينهما، إلى أن وافق الأصغر على ترك المطبعة. بكى غيظاً وباع حصّته بمبلغ كبير حاول فيه تعويض شعوره بألم الانفصال الذي وصل به إلى حدّ استشارة محامٍ في شأن دعوى لتغيير اسم عائلته. اقترض شقيقه لتسديد المال المطلوب وأصرّ الصغير على بيع حصّته من بيت أمّه ومن محالّ تجارية أورثتهم إيّاها في سوق النوريّة. حضر جنازة أمّه كالغريب، لم يتناول طعام الغداء مع عائلة شقيقه التي اعتنت بالعجوز في أيّامها الأخيرة، وانسحب مع بدء انقطاع حبل المعزّين. أرسلت زوجته إكليلاً من الزهر واعتذاراً لأن موعد وضعها بات وشيكاً فأنجبت طفلة في اليوم التالي لانطفاء حماتها. حاول الشقيق المبتعد تأسيس مطبعة يبرهن فيها تفوّقه، لكن والد زوجته أقنعه بالعمل معه في تجارة الحديد حيث حقق وما يزال أرباحاً موصوفة.

أدار لطفي المطبعة وحده ودفع بابنه عبد الله إلى التخصّص في إدارة الأعمال كما استأجر إلى الشمال الغربي هنغاراً فسيحاً في محلة

الجمّيزة تعايش فيه بحنكة ودراية مع ميليشيات الحرب، وجاء انهيار سعر العملة اللبنانية ليحوّل ديونه لدى البنوك التي ورثها من جراء تصفية خلافه مع شقيقه إلى مبالغ رمزية سدّدها من دون عناء. كان آخر قراراته الانتقال بالمؤسّسة غرباً إلى البيت الذي ورثه عن أمّه وهناك سلّم المطبعة لنجله عبد الله، دودول، الذي تزوّج بشابّة كان لطفي يفضّل لو سئل أن تكون أقلّ جمالاً، وبقي يتردّد على المكان، هو وعصاه ودهاؤه الكبير، بسبب فراغ أيّامه خارج جلسات لعب الورق في نادي "الإيروكلوب" في ساعات بعد الظهر.

هكذا وبإرادةٍ عليا خفيّة، كأنّ مهندساً يصعب سبر نواياه، خطّها وبيده بيكار عملاق، رسمت مطبعة كرم إخوان طوال هذه العقود من الزمن التي قُصفت خلالها بيروت من البوارج في البحر ومن مرابض المدفعية في الجبال وعانت من جيوش حاصرتها واستباحتها ومن غارات جوّية واندلاع ثورات تاهت عن أهدافها ونصب متاريس في اتّجاهات متعارضة وذاقت صلف العيش وبهجته، كسل النهارات المطلّة على البحر وضجيج الليالي التي كانت تستر الفقراء والمشاهير والراقصات والجواسيس، رسمت المطبعة دائرة مكتملة بشعاعات تكاد تكون متساوية، حول نقطة مركز هي كنيسة القدّيس يوسف شفيع الآباء اليسوعيين، حتى استقرّت تحت هذه الأقبية العالية المحاطة بأشجار الجاكارندا الليلكية وحيث وصل فريد حليم أبو شَعر في حمّى سعيه المتعثّر لنشر كتابه، وكانت البطالة التي يعيش وعوزه المادي ونظرات نسائيّة من عيون زرقاء صافية هتفت له، كافية لجعله يستقرّ فيها مصحّحاً لا يضاهى للغة العربيّة.

٤

اجتهد فريد في مهمّته الجديدة ولم يصادق أحداً، فضّل التحادث مع نفسه على تحمّل الثرثرة والمزاح المتكلّف إلى أن غادر المطبعة من دون أن يعرف أنّ أقبية الحجر التي عمل داخلها اتّسعت في عزّها لعشرة جياد عربية تحمل شهادات النسب والأصالة. آوت كذلك مدرّبين وسيّاساً يمتطونها أيّام الآحاد بلباسهم الخاصّ في نزهة استعراضية في الجوار بعد عودتها من ميدان السباق. ويُحكى أن أشجار الجاكارندا التي عادت بها والدة لطفي كرم من بيونس آيرس بالباخرة، عشر شتول بترابها، كبرت هنا، يُحكى أن فوحها في موسم إزهارها كان ينشّط الجياد فتندفع وتتجلّى في جميع سباقات الموسم. ارتفع فوق الأقبية طابق فسيح للسكن سقفه عالٍ ومدخله الرئيسي مستقلّ، باب من الحديد المشغول يفضي إلى فسحة يزيّنها تمثال من المرمر الأبيض للإلهة فينوس العارية القفا، تتسلقها وتستر أجزاءً منها نبتة متعرّشة من الياسمين البلدي الفوّاح.

ورثت والدة لطفي كرم البيت وورث شقيقها الخيول الثمينة فحمّلها إلى مزرعة في سهل البقاع. رُصفت أرضية الأقبية بالغرانيت

الناري وضُربت الجدران بالرمل والماء لإزالة التعشبات وإبراز حجر العقد، وليتحوّل المكان إلى ردهة مفتوحة للطباعة بطول حوالى ثلاثين متراً. وبُني جداران يعزلان مكتبَين للإدارة، أحدهما يشغله عبد الله كرم، كما خُصّص قبو خلفيّ لتاريخ المهنة وُضعت فيه آلات الطباعة الأولى، وعلب الأحرف اليدوية والكتب النادرة الناجية من الطوفان الذي أغرق المطبعة في طريق الشام.

يتّصل بيت السكن بالردهة بواسطة درج حجريّ داخلي ضيّق يُدخل متسلّقه مباشرة ومن دون توقّع إلى مطبخ البيت العلوي، بين البرّاد ومجلى الرخام. فيكتشف الجالسون إلى حواسيبهم والمنهمكون في تصميم الصفحات الشخصَ النازلَ إليهم من البيت بدءاً من قدميه. صاحب المطبعة، عبد الله، صباحاً، في الثامنة والنصف تماماً، من نعلَيه الكريب السميكَين الصامتَين وخطواته الثقيلة في اتّجاه مكتبه خصوصاً بعد الحادث الذي كاد يودي بحياته، زوجته في ظهورها غير المنتظم داخل المطبعة، من كعبها العالي وساقَيها البيضاوين المتناسقين يوم لا ترتدي السروال، بينما فلور الضحوكة الكثيرة التنقل فمن هرولتها السريعة التي كلّفتها في إحدى المرات سقطة دحرجتها إلى أسفل وأدمت رأسها.

فلور، خادمة آل كرم السوداء القادمة من جزيرة الطواحين المئة في الغوادلوب، تلتقي مع مواطنات لها في باحة كنيسة سيّدة الانتقال بعد قدّاس يوم الأحد. يتبادلن بفرنسية طليقة أخبار الأرخبيل البعيد ونوادر العائلات البيروتية حيث يخدمن. تحب فلور القول إنها راضية، تساعد "معلمتها" في إلباس ابنتيها التوأمين ومرافقتهما إلى

حيث تنتظر معهما مرور حافلة المدرسة في الصباح. تعود فتجدها جالسة خلف النافذة تدخّن وتتحدّث على هاتفها المحمول، تكبح قهقهة أو تهمس في سرّ حميم. تندفع فلور إلى قول المزيد، ترغب في إخبار رفيقاتها أنها تستيقظ ليلاً على صوت حركة في البيت، "المدام" تروح وتجيء في غرفة الجلوس، تتنهّد عالياً، سمعتها مرّة تفتح باب المطبخ وتنزل إلى المطبعة لكنّها تعبت من انتظار عودتها فغفت من جديد. تنظر فلور في عيون مواطناتها لتتأكّد إن كنّ يؤتمنّ على أسرار بيرسيفون، تتذكّر لطافة صاحبة البيت والمال الإضافي الذي تعطيها إيّاه بمناسبة ومن دون مناسبة، فتتراجع عن البوح في آخر لحظة.

بيرسيفون ملكي، بيرسو للأصدقاء، نالت شهادة الهندسة الداخلية من الأكاديمية اللبنانية للفنون الجميلة واقترنت بعبد الله كرم بُعيد تخرّجها وقبل أن تحاول مزاولة المهنة. كان بيتها الزوجي فوق المطبعة و"افتُتح" بسهرة مشهودة، إنجازُها الفنيّ الأوّل. أكملته استعداداً لزواجهما وخصّصت له مجلة "البيوت والأعمال" مقالاً مصوّراً من أربع صفحات روت فيه كيف لوّنت بيرسيفون ملكي جفصين السقف والجدران بتدرّجات الزهريّ، ألوان مزجت خضابها بيديها وأغنتها بمنتهى الصبر والإتقان بطبقة من الشمع الشفاف تسمح بغسل الجدران. وزّعت المرايا العميقة وإطاراتها المنقوشة في المدخل وغرفة الجلوس وطلبت من صديق لم يثق أحد غيرها بقدراته التشكيلية، نوبار الذي يفضّل إهدار طاقته في عروض فردية من الرقص الشرقي كانت تحضر تمارينه عليها وتساعده خلال

تقديمها في أحد مسارح المدينة، أوصته بأن يرسم لها في الصالون طاووساً بأكمله يغطّي نصف الجدار بألوان الفنّ "الساذج". ربّما كان الطائر الصاخب وذيله المستدير من الأعمال التزيينية النادرة لهذا الشاب الذي لم يعمّر طويلاً. وُجدت جثّته مرميّة في قعر فتحة المصعد داخل بناية قيد الإنشاء بالقرب من مكان إقامته. قيل إنه تشاجر مع صديق له بسبب اتّهامات بالخيانة ورجّح الطبيب الشرعي أن يكون توفّي على الفور، وقد فرّ صديقه إلى جهة مجهولة.

اشترت بيرسيفون أباريق وصواني نحاسية من سوق البرغوت في الجانب الآخر من العاصمة، صمّمت مائدة الأكل من خشب الكرز البرّي، قطعة سميكة واحدة تبيّن عروقها وتحيط بها كراسٍ من الفولاذ الأبيض غير القابل للصدأ، كما رمّمت أيقونة "مريم باب السماء" العجائبية التي ورثتها عن أمّها بلونها الذهبي الوهّاج.

ترى من نافذتها البحر صباحاً. مربّع أزرق يطلّ عليها من فجوة بين مبنى شركة "كهرباء لبنان" الضخم والكئيب وعمارة مكاتب زجاجية جديدة تعكس واجهتها نور الشمس الطالعة. تملأ فراغات يومها بالقراءة، الروايات البوليسية، "السلسلة السوداء" ورثتها عن والدها الذي بدأ باكراً بتجميعها بأغلفتها القاتمة وعناوينها الصفراء وثابرت هي على شراء ما يصدر عنها من جديد. تحبّ ما يُكتب على غلافها الأخير: "رواياتٌ رجالُ الشرطة فيها أكثرُ فساداً من المجرمين والمحقق المختصّ لا يحلّ اللغز دائماً هذا إن وُجد اللغز أو وُجد المحقق". تكتفي عدا ذلك بالموسيقى وبتدليل توأميها سابين ونيكول، تقلّدانها بوضع المرهم الواقي على جسديهما

الطريّين وتتمدّدان حولها في نادي اليخوت بثياب البحر والنظارات الشمسية. تخرج مرّة في الشهر إلى غداء النساء، صديقات المدرسة وأخبارهنّ، حول حساء السمك، البويابيس، في مطعم "الكوكتو" مع نبيذ الألزاس الأبيض. يلُمْنها على سكوتها الدائم:

– الزعل يُكثر من التجاعيد يا بيرسو...

زيجاتهن فاشلة وضحكاتهن رنّانة.

تردّ في الصباح على مكالمات هاتفية لم تكن لديها الطاقة للإجابة عنها في المساء، تتابع دخول باخرة شحن إلى مرفأ بيروت وإذا خفضت نظرها من حيث تجلس تتسلّى بالنظر إلى العاملين يتقاطرون إلى المطبعة. تراهم ولا يرونها، تتكهّن بترتيب وصولهم، الأكثر فقراً في لباسهم ومظهرهم، الأقرب إلى الآلات وموادّها وسوائلها وسوادها هم الأبكر حضوراً، يليهم الإداريّون، بينما تصعد فتيات "الغرافيك ديزاين" الطريق إلى المطبعة متأخرات مستعجلات. أمّا المعلم أنيس الحلواني، صديق العائلة من زمن أبيه وجدّه، فلم تره يوماً قادماً من الشارع صعوداً في الصباح، كأنّه يمضي الليل هنا في المطبعة.

تتأمّل الشاب الجديد ودفتره. لم يتخلّ في الأسابيع الباقية من الفصل الحارّ عن البذلة وربطة العنق الحمراء العريضة بل جلب معه من البيت حمّالة ثياب خشبيّة يعلق عليها سترته. بدا واضحاً الفارق بين وظيفته البسيطة والأهمّية التي يوليها لهندامه خلال ممارسته اليوميّة لها، وعندما حضر من دون ربطة عنق وقد فتح زرّي قميصه الأوّلين فبان شيء من شعر صدره الأسود الكثيف، أمكن الظنّ أن

معنوياته تدهورت في الليلة الفائتة لسبب مفاجئ ولم يجد في نهوضه الصباحي القدرة الكافية لترميم هذا التدهور. كتفاه عريضتان، لا يشبه العاملين في المطابع ولا يشبه العمّال عموماً.

٥

خطّط فريد لكل التفاصيل.

اختار لغلاف كتابه الموعود الاقتراب الشهير بين سبّابة الله وسبّابة الإنسان، تفصيل مأخوذ من "خلق آدم" الذي رسمه ميكال آنجيلو في سقف كنيسة السيستينا في الفاتيكان.

أصرّ على أن يكون الإهداء مقتضباً، "إليّ"، وسيكتب بخطّ جميل عبارة إلى أمّه على نسختها، "الى منارتي في صخب الحياة"، ولن يكتب إهداءً بخطّ اليد لغيرها.

وبعد أن فاجأه الرجل الفظّ في دار النشر بأنّ العنوان الذي اختاره بنفسه، **الكتاب الآتي**، موجود بالفرنسية وتأكد من ذلك بعد التقصّي، بدأ فريد يميل إلى الاختصار كأن يسمّي مؤلّفه، مثلاً، **الكتاب** فقط لا غير، ولِمَ لا. خطّ اسمه في أعلى ورقة بيضاء كما يتخيّل الصفحة الأولى ورسم العنوان بأحرف كبيرة وجرّب إضافة تعريف بسيط لمضمونه تحت العنوان فكتب "نصوص" ثم "نصّ"، استبدلها بـ"كلمات" ومن بعدها بـ"ديوان" حتى إنّه تجرّأ على "آيات" قبل أن يستغني عنها جميعها ويعود إلى "الكتاب" وحيداً.

قد يفضّل الصفحات من الحجم الكبير، من قياس كتب الكنائس، مثل رسائل القدّيس بولس التي يقرأ منها في "سيّدة الملائكة" ويُخرج منها إيحاءات لا تخطر في بال كاهن الرعيّة الذي سمعه للمرة الأولى يتلوها في زفاف شقيقه. صار فريد يرسل صوته على مداه، مجلجلاً في فضاء الكنيسة أيّام الآحاد والأعياد فوق رؤوس العائلات المحتفلة بالذبيحة الإلهية.

وأراد لكتابه حصانة، أن تحميه صفحاته المغلقة المطويّة بعضها على بعض، فلا يدخل إليه قارئ حشريّ عابر صدفة أمام رفوف مكتبة لأنّ من اقتناه سيلزمه بيده سكين أنيق قبضته مطعّمة بالعاج ينثر غبار الورق على ثيابه وحوله.

لن يورد في صفحة الغلاف الاخيرة مختصراً لأن كتابته عصيّة على الإيجاز بل هي الإيجاز عينه، ولا حتى مقتطفاً من مضمونه، لن يفضح لغته ولا موضوعاته من النظرة الأولى، لن يذكر تاريخ ولادته فهو لا يرى فائدة من وراء هذا الإفصاح. لن يضيف اسم والده، لن يشير إلى ما حصّله من شهادات وكلّ تلك الثرثرات، تردّد فقط إن كان سيذكر أنّه وريث آل أبو شَعر، نسب القربى الملتبس الذي يلاحقه. حسم أمره في النهاية، لا يريد أن يكون مديناً لأحد مهما بلغ شأنه الأدبي، هو قائم بذاته وانتهى، وصفحة غلاف كتابه الأخيرة ستبقى عذراء تماماً حتى من دون ذكر ثمن النسخة.

ينحدر آل أبو شَعر من قرية عدد بيوتها الحجرية البيضاء أكبر من عدد سكّانها الخمسين المقيمين في فصل الشتاء مقابل حوالى ستة آلاف نسمة موزّعين في الأميركيّتَين كما أحصتهم "مؤسّسة الانتشار

اللبناني". صغيرة لكن خَراجها البلدي كبير، اجتاحته في العقود الماضية كروم العنب المؤصّلة جفناتها في فرنسا لمصلحة معامل النبيذ على السفح المطلّ على سهل البقاع. كما استُخدمت أراضي وقف مار الياس المهملة فيها لأغراض عسكرية. حضر ذات يوم رهط من العمّال تبيّن أنهم جنود باشروا بناء مخيّم تخلّوا عنه بين ليلة وضحاها لرجال ونساء وصلوا في شاحنتين عسكريتين مغطاتين. يابانيون ويابانيات كان صراخهم بلغتهم الأم خلال تمارينهم على اختراق دوائر النار أو إطلاق الرصاص الحيّ فوق رؤوس المتقدّمين منهم زحفاً يصل إلى الهضاب المحيطة بالبلدة. حتى أغارت على المعسكر في فجر أحد الأيّام طائرتان إسرائيليتان بعدما فجّر فدائيان من "الجيش الأحمر الياباني" نفسيهما في مطار اللد في تل أبيب فقتلا ٢٦ وجرحا ٨٠ واعتُقل ثالثهما. نزح من بقي على قيد الحياة من المقاتلين اليابانيين بعد القصف المتتالي لطائرات الـ"أف-١٦" وحلّ محلّهم أكراد متشدّدون، رجالاً ونساءً أيضاً، من "حزب العمّال" يشكّلون قاعدة خلفية لمحاربة الدولة التركية.

وآل أبو شَعر هم في الأصل آل الشدياق، أوّلهم كان جميل الوجه، كما يروون وكما رسموه بالفحم، زجّالاً يدور من قرية إلى قرية مرخياً شعره ضفائر طويلة شقراء على كتفيه. في سنة قحط وجفاف حلّت بجبل لبنان، هجا الأمير عبد الله الثالث الشهابي المشغول عن أحوال الأهالي بتربية الحمام، قال فيه بيتَي شعر ساخرَين تردّدا من ورائه من بلاد البترون إلى وادي التيم، فاستدعاه الشهابي وأمر بقصّ جدائله مستهجناً أن يسخر منه "أبو شَعر" هذا، فلبسه الاسم ولبس سلالته.

عملوا في كل مجال وبقي القول والكتابة فطرتهم. تكاثروا، ضاق بهم لبنان فأبحروا إلى البرازيل وأسّسوا شارع الخامس والعشرين من آذار في ساو باولو، باعوا فيه واشتروا كلّ ما يُباع ويُشترى. افتتحوا نادياً أدبياً سمَّوه "الرابطة الأندلسيّة"، يلتقون فيه، يشربون العرق ويتساجلون شعراً. إلّا أن الذين وُلدوا منهم هناك هجروا اللغة العربية وظلوا ينظمون القوافي ولو باللغة البرتغالية حتى أمد قريب، ويقال إنّ الكاتب الكبير الذي اتّخذ من الأمازون وساكنيه وطبيعته موضوعاً وحيداً لرواياته مدين بالموهبة لأمّه التي هي من آل أبو شَعر.

وقبل ذلك، في القاهرة، أحكم أحدهم تعريب إنياذة فرجيليوس شعراً في آلاف من الأبيات الموزونة والمقفّاة "الخالية من أيّ عُجمة"، وبدأ ابنه نقل "الكوميديا الإلهيّة" إلى "لغة قريش المضرية" كما يسمّيها لكنّه توقف يائساً عند وصوله إلى بوّابة الجحيم وهي تصيح قائلة: "أنا صنيعة القدرة الإلهية ولم يخلق قبلي سوى الأبدية، أيّها الداخل ارم الأمل خلف ظهرك...". فتحوا المدارس، أصدروا الصحف وبدأوا معاً في بيروت موسوعة ضخمة للأعلام والمعارف العامّة أرادوها "قاموساً لكل فنّ ومطلب" أهرقت سنيهم وأنهكت قواهم، ولم يتمكنوا من تجاوز حرف "الثاء" إذ تُوفّي آخر العاملين عليها بينما كان ينهي سيرة حياة أبو منصور النيسابوري، أديب عربي فصيح لقب بالثعالبي لأنّ والده كان فرّاءً يخيط جلود الحيوانات البريّة.

منهم رجل رمته الكنيسة المارونية بالحرم وسجنته لأنه اعتنق البروتستانتية فسافر شقيقه الأول إلى الشام ونفى الأصغر نفسه

إلى مصر حيث درس الفقه في الأزهر وتحوّل إلى الإسلام، جاور تشارلز ديكنز في لندن وغوستاف فلوبير في فرنسا وأصدر صحيفة في إسطنبول وتُوفي في تونس. عملوا في فريق من اثنين أو ثلاثة فبوّبوا القواعد العربية ورتّبوها على مراحل تصاعدية وفقاً لصعوبتها كي يسهل على التلامذة تعلّمها فصار اسم عائلتهم مرادفاً لكتاب اللغة العربية، فيطلب الصغار في المكتبات مطلع العام الدراسي، "أبو شَعر، التكميلي الثاني" أو "تمارين أبو شَعر" للصفّ الرابع. أكملوا تقليد مقامات الهمذاني وحاولوا إحياء أنواع الشعر المقفّى من هجاء ومديح ورثاء، ثمّ شحّ نتاجهم الأدبي لأسباب لم يسعَ إلى معرفتها أحد وانصرف الجيل الجديد منهم بين المهاجر والوطن إلى علوم الحواسيب وسوق الإعلانات التجارية، وعُرف منهم صاحب غاليري للوحات الفنية في شارع السين في الدائرة السادسة من باريس أو رئيس كتيبة المترجمين من العربية إلى الإنكليزية الموزعين على مختلف قطاعات الجيش الأميركي إبّان غزوه العراق...

أنهى فريد الكتاب الذي سيحمل، للمرّة الأولى بعد ثلاثة عقود من النضوب، توقيع مؤلّف من آل أبو شَعر. تعب كثيراً في كتابته ولم يقرأ منه على أحد ويوم رضي هو عنه وقرّر أن لا يضيف إليه ولا ينقص منه حرفاً، ختمه وراح يدور به على الناشرين، لا يفارقه، لا يتركه في البيت، لا يريده أن يقع بين يدي أحد أشقّائه فيقرأ منه بعضهم لبعض ويُبدوا إعجابهم بفريد لأنه شقيقهم فقط، من دون الغوص في معاني كتابته. يضعه إلى جانبه فوق مكتبه في مطبعة "كرم إخوان"، يبقيه تحت نظره وهو يعمل في تصحيح الموادّ العربية على أنواعها.

وجاء يوم، رغم ذلك كله، نسي فيه دفتره في المطبعة، يوم تكاثرت عليه الأشغال، فحمل في نهاية دوامه كدسة ملفّات معه إلى البيت وخرج. لو كانت يداه فارغتين لانتبه إلى "حمله" الدائم. لحظة أدرك أنّه لم يأت بمسوّدته، كاد يعود إلى المطبعة ليلاً لكنّه انتظر إلى صباح اليوم التالي فرأى عند وصوله، من أسفل الطلعة، على غير عادة، سيّارة رباعيّة الدفع تحمل لوحة تسجيل عسكريّة تسدّ الطريق الضيّق المؤدّي إلى المطبعة.

٦

استيقظت بيرسيفون في تلك الليلة التي عاد فيها فريد أبو شَعر إلى بيته من دون مخطوطته، عند الثانية والربع فجراً، بعدما تقلّبت وحدها في طول السرير وعرضه. يحين أرقها الليلي ساعة يكون النيام النظاميّون في عمق سباتهم، فتنهض متأهّبة ولو أنّها لم تأو إلى الفراش إلّا في منتصف الليل. شارف أيلول على نهايته والحرّ ما يزال مقيماً، أنوار مصابيح الحديقة المتدفقة من النوافذ العالية تُلبس الطاووس الكبير حلّة مبرقعة لا تشبه في شيء زينته النهارية، وتغرق الصالون ومعه كلب البيشون المالطي المتكوّم فوق الكنبة بألوان قاسية يزيد من حدّتها بريق قاتلة البعوض الكهربائيّة وفرقعاتها. فور نهوضها تشعل قضيباً من البخور كان قد أطفأه زوجها قبل أن يخلد إلى النوم، تقاوم وحشة أضواء النيون ونوبات أرقها برائحة خشب الصندل. تشقّ باب غرفة ابنتيها من دون ضجّة لتتمتع بمنظرهما، سابين وكيف تسند رجلاً لامبالية إلى الجدار، ونيكول وكيف تضع المخدّة فوق رأسها وتغفو. تبتسم وتدخل كي تصلح نومتهما، تقبّلهما وتردّ عليهما غطاء الصيف الخفيف.

تعود إلى غرفة الجلوس، ترتمي على الكنبة في الزاوية حيث لن تطالها كاميرا المراقبة وتحمل بيدها كتاباً تشرع في قراءته. توزع الكتب في أرجاء البيت، يفترض أنها تقرأها معاً، لا تغلقها ولا تعيدها إلى أماكنها على الرفوف بل تبقيها مفتوحة وتضعها بالمقلوب على الطاولات والوسائد. رواياتها البوليسية وألبومات لرسّامين كبار أو لمدن تاريخية تنتظرها، توصي فلور بتركها كما هي حيث هي. تقرأ سطوراً في "الأعمى في الكاتدرائية" فتشعر كما عند كلّ محاولة ليليّة بأن الكتب لن تسكّنها وأنّ الكلمات المرسومة أمامها تختلط بمعانيها لترتدي وطأة لا تُحتمل. تكفّ عن القراءة وتخرج إلى الشرفة، تموء هرّة وتقفز هاربة في العتمة، تنصت بيرسيفون لأصوات الليل، إلى موسيقى الجاز الحائرة، جون كولتران، في استقبال الفجر الذي لن يتأخر، تستمتع بنشوة عابرة يقطعها رجع صدى رشقات ناريّة بعيدة، مفرقعات ترافقها أصوات مناداة في شارع الحانات المجاور. لن تسكت موسيقاهم إلّا مع طلوع الضوء، حتى يرمي روّادهم النعاس بعد طول الشراب.

تاهت من جديد في الممرّ بين غرف النوم، استنفدت أفعال يقظتها ولم تشعر بتعب يغلبها ولا بنعاس. تقصد المطبخ، تشرب ماءً مثلّجاً، تفتح الباب الصغير، تحمل خفّيها بيدها وتصغي قبل النزول إلى المطبعة. تُصغي لأصوات قد تطلع عليها من تحت حيث قد يسهر بعض العاملين إلى ساعة متأخّرة. إنها المرّة الثانية التي تنزل فيها ليلاً إلى ردهة الآلات والمكاتب. تخاف أن ترى ما رأته في

المرة السابقة، قبل عام أو عامَين، في ليل حارّ مثل هذا، أو ما خيّل إليها أنّها رأته.

رجال ثلاثة يأتيهم النور من أسفل إلى أعلى، من مصابيح منبعثة من منضدة التوليف المجتمعين حولها وقوفاً في تشاور جدّي، طيّات الظلّ والضوء تضرب وجوههم، تجعّدها. رأت والد زوجها لطفي كرم وعرفت المعلّم أنيس الحلواني وبينهما يقف شاب صاحب صوت نسائي، سمعته يتكلّم العربية ولم تفهم منه كلمة. كان يحمل بيده ورقة يشير إلى تفاصيل رسماتها، يمسكها بين الإبهام والسبابة ليتحسّس ملمسها، يقارنها مع ورقة أخرى. لم يرَ الرجال الثلاثة بيرسيفون لأنهم كانوا يقفون بعيداً عن الدرج ولأنّ الضوء القويّ كان قريباً من عيونهم يبهرهم، ولأنهم كانوا غارقين في تفاصيل الأوراق المرميّة أمامهم يرفعون واحدة مقابل ضوء المصباح ويتهامسون وهم يشيرون برؤوسهم. وحده الشاب الغريب كان يحكي بصوت مرتفع. سمعت ضجة وأصواتاً أخرى صادرة من جهة الآلة الكبيرة لكنّها لم ترَ أصحابها. تراجعت صعوداً إلى البيت وبقيت تعاودها من وقت لآخر رؤيتها لهؤلاء الثلاثة الخارجين من لوحة زيتية قديمة، متآمرين في أحد البلاطات الملكيّة، وجوههم طويلة ونظراتهم حادقة، أو تلاميذ المسيح في لوحة كارافاجيو التي تخيّل فيها العشاء الأخير في "إيمايوس" والتي رأتها في المتحف بمدينة ميلانو خلال رحلة مع أكاديمية الفنون الجميلة درس الطلاب فيها طويلاً لغة الألوان والظلال.

كانت الردهة تنعم هذه الليلة بهدوء تلمع فيه إشارات ملوّنة تبقى

مضاءة في الآلات الحديثة ويقطعه صفير الكهرباء وأزيز محرّكات التهوية التي لا تنام، بينما ساكسوفون جون كولتران ما يزال يصل إلى مسامعها مصحوباً بنباح شبّان سكارى في وجه القمر الكامل الساطع فوق المدينة وهي تنزل درج الحجر حافية القدمين.

مشت على مهل، تلصق قدميها الحافيتين أرضاً، تحبّ سخونة البلاط تسحبها إلى جسمها. مررت أظافر يدها على طول الجانب الحديدي لآلة الطباعة الجديدة وأكملت طريقها حتى استدارت من أمام مكتب دودول وعادت من الجهة المقابلة كحارس ليلي يطمئنّ إلى سلامة المكان. وفي لمحة انتبهت إلى مكتب المصحّح، عينا الشابّ الجديد سوداوان تبرقان عند مرورها هنا نهاراً. تقدّمت نحو الطاولة متفحّصة فرأت من خلال تسرّب الضوء الضعيف الدفتر الأحمر مرميّاً فوق الأوراق. هنا سرّه، دفتره الذي لا يفارقه، ترك فوقه رائحة جسمه وعرق يديه، وقد يكون انصرف إلى بيته وتركه هنا عمداً. حملت المخطوطة وعادت بها إلى غرفة نومها.

دخلت إلى الحمّام، غسلت بالصابون قدميها المسودّتين من أوساخ أرضيّة المطبعة، اكتملت يقظتها وصار بإمكانها النوم من جديد. وضعت لمسات عطر خفيفة حول عنقها وتحت إبطَيها ثم نزعت عنها بهدوء ثوب النوم الساتين الزهريّ وحاملة النهدين. اكتفت بالقميص القصير الشفّاف، الورديّ اللون أيضاً، أضاءت المصباح الجانبي على طاولة الليل الصغيرة واستقرّت على السرير جالسة بعدما جمعت أربعة مساند خلف ظهرها.

وضعت الدفتر الأحمر على ركبتيها العاريتَين المضمومتَين،

ابتسمت للإهداء وللعنوان، ولو أنها لم تتمكن من معنى ولا من مقصد هاتين الكلمتين الافتتاحيتين، "الكتاب"، "إليّ". قلبت الصفحة وبدأت المحاولة، تنزلق على سطح الكلمات، لا تفهم سوى عبارات متطايرة، أصوات جميلة تطنّ وحدها ولا يكتمل بها معنى. لوقع العربية الفصحى سحر عليها منذ الأستاذ الوسيم الذي كان يلقيها بنوع من الاحتفالية التي تليق بها خلال الدروس القليلة التي تابعتها قبل أن تقرّر التخلّي عن اللغة العربية والتقدّم فقط إلى شهادة البكالوريا الفرنسية. تطرب لسماع العربيّة كما تستمتع سرّاً بصلاة الجنازة السريانيّة في كنيسة مار جرجس للموارنة حيث ترافق زوجها عند وفاة قريب، صلاة تصلها منها فقط بعض العبارات الأليفة، مثل أغانٍ تعتقد أنها أناشيد حبّ بلغة الأوردو لا تفهمها وتوحي لها بمعانٍ يتبيّن لها، إن سعت إلى الوقوف على حقيقتها، أنّها أبسط بكثير ممّا زيّن لها فينكسر سحرها. تقرأ في المسوّدة من جديد ولا تعرف ماذا تقرأ، تصرّ ولا تفهم، تقلّب الصفحات المكتوبة بخطّ جميل تتساوى فيه ارتفاعات الحروف، ما يقرّبه من الطباعة فتفلت منها اللغة، تنوس الكلمات وتبقى الألفاظ عالقة في خيالها...

تنتظر عودة النعاس محدّقة بالستارة الأرجوانية ويصلها رجع أصوات من الخارج لم تعد تحول بينها وبين استرخائها، تعرف دنوّ موعد النوم عندما يأتيها الخدر من رأسها، من الخلف، ونادراً ما يأتي، فلا يعود بإمكانها ردّه. تنزل جسمها، تغرقه في الفراش، تبعد المساند بحركة أخيرة، تقذفها برجلها، تبعثرها في أرض الغرفة إلى جهتَي السرير وتستدير إلى اليمين لتستلقي على كتفها وتضع ذراعها

تحت جذعها كما تفعل دائماً في سعيها الأخير إلى النوم، فينكشف وشم زهرة اللوتس المنمنم على كتفها اليسرى. تباعد بين رجلَيها، تسرح قليلاً، تفكّر على مهل بما يمكن أن تفعله بهذه المخطوطة، تحضرها ألعاب دودول، تودّ حتى لو تستشيره. بعد دقائق تستسلم إلى خدرها وتغفو والمسوّدة على مخدّتها.

٧

بدا الشرطيّان كما رآهما فريد وهو يصعد الطريق إلى المطبعة غير متأهّبين. النحيف المتّكئ على الجدار يتفحّص شاشة هاتفه، يقرأ فيها، يبتسم ويكتب بشغف جواباً سريعاً. رفيقه الأكثر هدوءاً يحمل في كتفه بندقية أم-١٦ ويجول بناظريه في غابة الجاكارندا الصغيرة. هو أيضاً لم يتوقّع وجود هذا المكان المنفرج وألوانه الأرجوانية الصارخة، هررة وعصافير صباحية في وسط المدينة.

كانت مهمّتهم منع الدخول إلى المطبعة، فتجمّع الموظّفون في فيء الأشجار يناقشون الاحتمالات ويتسلّون بقراءة وقع ما يحدث على وجوه زملائهم الواصلين تباعاً، عاملَي الصيانة اللذين ظنّا أن في الأمر مزحة، وسكرتيرة صاحب المطبعة التي تصعد الطريق بكعبها العالي وخطواتها الصغيرة وتشهق حين ينكشف لها ما يجري، فتجحظ عيناها وتضع يدها على فمها كي لا تصرخ. تتنحّى جانباً تسأل زملاءها فلا تلقى جواباً مفيداً، حتى أطلّ المعلم أنيس من الباب، من بين رجلَي الأمن، نبرته هادئة وقسماته جنائزية. طلب من المنتظرين خارجاً الانصراف إلى بيوتهم.

- يوم عطلة!

وأضاف أنها مسألة أرقام وحسابات وهي قيد المعالجة، كما حصل قبل سنتين.

يطمئنهم وهم راغبون في أن يطمئنّوا لكنّ أحدهم ممّن يقرأون الصحف استغرب وجود شعار "مكتب مكافحة الجرائم المالية" على السيّارة ذات اللوحة العسكرية المتوقفة وسط الطريق. واحدة من أربع سيّارات رباعية الدفع، فورد إكسبلورر سوداء وجديدة، يعرف أنها هديّة من السفارة الأميركية مكافأة للبنان على التزامه ولو المتأخر بالمعايير المشتركة لمجموعة العمل المالي حول تبييض الرساميل، "الغافي". كما لا يخفى على العارفين أنّ التهرّب من الضريبة هو من اختصاص وزارة المالية ومفتّشيها الكسولين.

انفرطت الجمهرة، عشرات العاملين توجّهوا نزولاً إلى المواقف حيث يركنون سيّاراتهم أو كي يستقلوا سيارات الأجرة وأمامهم فراغ نهار كامل غير متوقع بدأوا يخططون لكيفية تمضيته.

فريد أبو شَعر لم يغادر. بقي وحده واقفاً مستظلّاً أشجار الجاكارندا حاملاً الملفّات التي أنهى تصحيحها مساء اليوم الفائت. خطا بعد قليل، من فراغ صبره، باتجاه الباب فلم يجد الدركيّان سبباً مشروعاً كي يطالباه بالانصراف أسوة بزملائه. كان وجود مجموع الرجال والنساء أقلّ إرباكاً لهما من هذا اللجوج الذي يقترب ويحاول استراق النظر إلى الداخل، إلى نقطة محدّدة غير مكشوفة عليه تماماً، فتضطرّه، بالرغم من طول قامته، إلى الوقوف على رؤوس أصابعه ومطّ رقبته لجهة اليمين كي يراها. استعدّ رجلا الأمن تحسّباً لسلوك

غير متوقّع منه، وكان خروج أحد الرتباء من المطبعة حاملاً بيديه الاثنتين صندوقاً كبيراً مناسبة للحارسَين كي يُبعدا المتطفّل عن الباب فتراجع أبو شَعر أمتاراً لكنّه بقي مشدوداً إلى الداخل، يحاول من بعيد الغوص بنظره إلى سطح مكتبه المزدحم بالأوراق والملفّات التي افترض أنّه نسي بينها دفتر كتاباته الأحمر.

صمد، انتظر حتى أنهى المحققون تحميل ما صادروه في سيّارتهم السوداء، وبّخ الأعلى رتبة بينهم العسكري الشاب المشغول دوماً بهاتفه الذكيّ:

- خلصنا لعب وغراميّات، أنتم أولاد الدولة!

وانصرفوا.

اقترب من الباب، سمع في الداخل كلاماً، لم يفهمه بسبب صدى الفراغ في المطبعة الخالية من موظّفيها. ظهر في الباب فتوقفت الأصوات. كانوا ثلاثة:

عبد الله كرم، ربّ العمل، واقف في باب مكتبه، يسند كتفه إلى الحاجب، يد في جيبه ويد يمطّ بها شريط حمّالة السروال إلى الأمام ثمّ يفلتها فترجع لتخبط على صدره. أيقظته فلور في السادسة صباحاً خائفة تقول بفرنسيتها إن "البوليس" يقرع الباب وطلبوا منها إيقاظه كي يدخلوا المطبعة. كان دودول هادئاً مقارنة بإحباط الآخرين.

بيرسيفون ملكي تدبّرت أناقتها على عجل قبل أن تنزل لمتابعة ما يحدث. جالسة في وضعية قتالية. تتفحّص المصحّح منذ دخوله وتكاد تتوجّه إليه بالكلام. سمع فريد أولاً كلمة "بيرسو" في المطبعة فحسبها من تلك المصطلحات الرقمية الجديدة الغريبة عليه، قبل أن

يلفته سؤال من عبد الله كرم إلى سكرتيرته:

– هذا البريد لبيرسو، كيف وصل إلى هنا؟

فأدرك عندها أنه إزاء اسم علم معروف هنا. اكتشف بعد أسبوع أنه يُطلق تغنيجاً على زوجة صاحب المطبعة. وصل أخيراً إلى اسمها الكامل عندما طُلب منه التدقيق بطلب المشاركة في مناقصة عامة، وجده في تفصيل هويّة السيد عبد الله كرم، والدته صونيا ومتأهّل من بيرسيفون جورج ملكي. سأل الخطّاط المتقدّم في السنّ فأخبره أن العائلات البيروتية من أصل يوناني تتمسّك بأسمائها القديمة. قرأ فريد في "معجم الأساطير الإغريقية والرومانية" أنها ابنة زوس إله السماء والرعد وكانت تُدعى أيضاً كورا وقد تكون هي فينوس ذاتها، وها هي الآن أمامه، تحرجه بنظراتها، طريّة، نظيفة، عيناها متعبتان قليلاً، شعرها القصير يلمع كأنّها غسلته ولم تجد وقتاً كافياً لتجفيفه، ثوبها واسع بسيط، أمامها أوراق بيضاء كانت تخرطش عليها بقلم الرصاص أشكالاً هندسيّة ثلاثية الأبعاد طوال عملية الدهم التي قامت بها شعبة مكافحة الجرائم المالية.

وثالثهما كان المعلّم أنيس الحلواني في إحدى اللحظات النادرة التي كان يقف فيها صامتاً متكئاً إلى خزانة وشابكاً ذراعيه هو أيضاً، يعطي عادة الانطباع بالانشغال الدائم، حركة جسمه المندفع في أكثر من اتّجاه توحي بأنّه يتدبّر لنفسه مهامّ صغيرة متواصلة يبدو أنّه افتقدها هذا الصباح فحلّت عليه الجمدة من تأثير ما قد يحصل. بدا ملمّاً بالخفايا.

تردّد أبو شَعر في اختراق اجتماعهم لإكمال طريقه، لم يرَ دفتره

من حيث هو واقف، كان عليه الاقتراب ليتأكّد لكنّه أحسّ أنّه دخل على حوار حميم، كان هناك كلام في الهواء، كلام بدأ قبل دخوله وسيُستأنف بعد انسحابه.

استدار من حولهم ليتقدّم نحو مكتبه والزوجان يتابعانه بالنظر، عبد الله يثابر على العبث بحمّالة سرواله التي لم يعد يتخلّى عنها منذ إبلاله من الانفجار، وبيرسيفون تمسك بالقلم الذي ترسم به المربّعات ولا ترسم. منحهما استراحة ممّا كانا في خضمّه، فتّش سطح المكتب وأدراجه، انحنى ونظر تحته، جال حوله ثمّ توقف ناظراً في المكان فقال له المعلم أنيس:

– ربما أخذوا معهم دفترك، من يدري؟ أخذوا أشياء لا تخطر في البال...

انتبه فريد رغم بلادته.

– كيف عرفت أني أضعت دفتري؟

– إنّها المرّة الأولى أراك فيها من دونه...

انتصبت بيرسيفون واقفة، بدت بحركتها الحادّة هذه كأنها تعترض على سخرية افترضتها في كلام أنيس أو أنها تذكرّت موعداً يناديها. استدارت منصرفة فأوقعت شيئاً ثقيلاً أحدث صوتاً قويّاً أقرب إلى الانفجار، كرة زجاجية تزيّن مكتب أحد مخرجي الصفحات. التفتت بيرسيفون لحظة فلم تجد في ما تسبّبت به ما يكفي للعودة أدراجها فأكملت طريقها إلى درج الحجر، صعدته مسرعة ليختفي رأسها وتلحق به رجلاها.

عاد أنيس إلى بيته، يسير كلّ يوم على قدميه وصولاً إلى ساحة

الشهداء ومن هناك يستقلّ سيارة أجرة توصله إلى تخوم البسطة التحتا. قصد فريد أبو شَعر بمشيته العسكرية المديرية العامّة لقوى الأمن الداخلي أملاً باسترجاع مسوّدته، يسرح تارة في صورة بيرسيفون ملكي وأسطورتها وتارة يشدّ قبضته حنقاً على نفسه لأنه لم يقبل حتى أن يحتفظ بنسخة مصوّرة عن كتابه. دخل عبد الله كرم إلى مكتبه، يشارك في لعبة التكساس هولدم أون لاين محاولاً الترفيه عمّا هم فيه. شارك في كلّ يد وُزّعت ولو بأوراق عادية كأنه يتحدّى اللعبة حتى ابتسم له الحظّ فرفع يده وهتف وحده بعد أن كسب الرهان الأكبر بأربعة ملوك ضدّ مُنازله الأخير الذي يسمّي نفسه "سنسيناتي كيد" من ولاية أوهايو الأميركية، الذي غرّته ترتيبة من خمس أوراق متتالية. ربح عبد الله كرم خمسمئة دولار إضافة إلى تعويض خسائره السابقة. أطلّ من باب مكتبه مجدّداً ليتأكد من أن المطبعة خالية وعاد إلى شاشته يتابع عليها شريطاً لمدّة عشر دقائق أطفأ بعدها الحاسوب وانصرف.

٨

شبّ عبد الله على تحدّي الكلمات، لا يخفى عليه منها معنى فسمّاه رفاقه "الروبير الصغير" تيمّناً بالقاموس الفرنسي المعروف، كان مرجع الأحاجي والجناس وبطل "الكلمة الضائعة". تعرّف إلى من أصبحت زوجته في إحدى مباريات السكرابل. غلبة نسائية وثرثرة بالفرنسية وعشاء فاخر وفتاة مشرقة في عينيها لمعة حزن غامضة لفتته. سأل صاحبة الدعوة عن اسمها وتدبّر أمره عندما حان موعد المباراة كي يحصل على ما يلزم من المربّعات الخشبية الصغيرة ليصفّ حروف اسمها، بيرسيفون، كاملة أمامه على الرقعة فصفّق له الحاضرون وتلوّنت وجنتا الصبيّة.

لم يمهلها بعد تلك الليلة فاستأجر من متعهّد إعلانات من زبائن المطبعة العائلية، بسعر مخفوض وبالسرّ عن والده الذي كان يهيّئه لإدارتها، خمسين لوحة دعائيّة اختارها في الحيّ الذي تقيم فيه صديقته الجديدة، وعند تقاطع الطرق الرئيسية في العاصمة. طبع عليها صورة يد بكمّ قميص أبيض وزرّ مذهّب، تحمل باقة زهر كُتبت فوقها عبارة "ورود بيضاء لبيرسيفون". ظنّ العابرون أمامها

وسائقو السيّارات أنها ضرب من الإعلانات المتسلسلة التي سترسو، بسبب غرابة الاسم، على ماركة غسّالات ألمانية أو على ثياب نسائيّة داخليّة فرنسيّة ثمينة. رأت بيرسيفون الإعلان فأدركت لتوّها أن لا فتاة غيرها في بيروت تحمل اسم جدّتها اليونانية قد يُوجَّه إليها هذا الغزل لكنها تريّثت في التصديق أنها هي المعنيّة به حتى صباح اليوم التالي عندما قرع أحد السعاة الباب حاملاً نفس باقة الورد المصوّرة على الإعلان ملفوفة بطرحة من ورق النيلون الشفّاف مطبوعاً عليها اسمها عشرات المرّات وسط فيض من النجوم الصغيرة الحمراء.

كان مستقبله مرسوماً سلفاً، العمل ينتظره، وحيد والديه ويرث "ثروة" كما يقولون. ظهر اسمه في قائمة نشرتها إحدى المجلّات تحت عنوان: "آنساتي، هؤلاء هم أفضل عشرة عازبين في بيروت". صادق فتاة وبقيا يتواعدان لأشهر ثم انفصلا من دون سبب معلن. كان في وجهه لطافة وفي بدانته طيبة توحي بالثقة وتغني عن جمال قسمات الرجال ورشاقتهم. حاضر دائماً لا يعرف السهو ولا سوء المزاج، يصغي في لقاء الأصدقاء أكثر ممّا يتكلم على المخاطر التي تتهدّد البلد ورعونة سياسيّيه و"الشيطان المقيم في الشرق الأوسط" بحسب تعبير الأكثر بلاغة بينهم.

واصل ألاعيبه مع بيرسيفون فدسّ مخالفة سير على زجاج سيّارتها وجدت في داخلها رسالة غرام مطبوعة بكلمات من مقالات الصحف ومرصوفة كلمة كلمة، متذرّعاً بأنّ على صاحب المطبعة استعمال الأحرف الطباعية. في الختام طلب يدها عبر رسالة نصيّة على هاتفها المحمول بعث بها مباشرة بعدما خرجا من مطعم السوشي الجديد

في الوسط التجاري في العاصمة، لم تكن تتوقع أيّ شيء منه في تلك اللحظة التي افترقا فيها راضيين. كان محتوى الرسالة مألوفاً بحيث يمكن الاعتقاد بأنه لم يكلّف نفسه حتى عناء صياغة مشاعره في جمل من عنده: "منذ التقيتك اتّخذت حياتي منعطفاً جديداً وها أنا اليوم قرّرت أن أطلب يدك كي نتّحد أمام الله والبشر، أحبّك" بل كأنه استعار الرسالة كاملة من كتاب "كيف تطلب وظيفة؟ كيف تتقدّم باعتذار مكتوب؟ أو كيف تنصّ رسالة تطلب فيها يد الفتاة التي تحب؟".

لم توافق على طلبه بل انتظرت. انتظرت أن ينال الودّ من أعماقها، أن يتحوّل عبد الله إلى بطلها. كانا ينفردان في زاوية أحد المطاعم، يختليان طويلاً في غرفتها ويبقى بينهما هذا الجدار مرتفعاً، يحكي عبد الله، بل كان يكثر من الكلام، موهوب في تحويل كلّ شيء إلى مرويّات صغيرة وتفاصيل يسهل وصفها. سألته عن علاقته بأمّه، ابتسم وفتح ذراعيه لا يجد ما يقوله كأنّ الجواب بديهي وأنّ علاقة الولد بأمّه هي نفسها عند جميع الناس. ينتقل بعدها بالحديث إلى أصول أمّه وأقاربها المتديّنين أو إلى سيرة جدّته لوالدته صاحبة البيت وأقبية الجياد. وإذا تجرّأت بيرسيفون على استجوابه حول ما يستهويه تحديداً في جسد المرأة وإن كان يفضّل الحبّ في الضوء أم في العتمة، في المساء أم في الصباح، في البحر، كاد يغضب للمرة الأولى بعد أشهر على صداقتهما. ظنّت، بعد محاولاتها المتكرّرة، أن مطالبها هي من صنع خيالها، أن العلّة فيها. هذا ما كانت تسمعه لمّا كانت تشتكي ممّن يغازلونها، لا تجد ضالّتها بين شبّان تتمنّى

صديقاتها معاشرتهم، أو ربّما هي تطلب من المتحابّين ما لا يسرّون به ومن الأزواج ما لا يحدث بينهم. تراجعت في النهاية، حضرتها صورة أبيها وأمّها، تذكّرت تلك السهرات الطويلة، خصوصاً أيّام المعارك في بيروت عندما كانت أصوات القذائف المتقطّعة تحول بينهم وبين النوم في بيتهم القريب من خطوط التماس كيف كانت تنقضي ساعات بطولها يقرأ فيها والدها صحفاً قديمة ويفشل في إتمام كلماتها المتقاطعة وتتابع والدتها برامج التلفزيون من دون صوت، فوافقت بيرسيفون على عقد قرانها بعبد الله كرم. بدين وثريّ، يسلّيها بالألعاب والمفاجآت، وزيّنت له بيته فوق المطبعة كأنّه بيتها، ولن تعرف كيف تؤلّف قصّة حبّ أخرى مع رجل آخر تنتهي إلى الزواج الذي ربّتها أمّها على الإسراع إليه.

كان عرسهما أنيقاً ومتواضعاً، دُعي إليه الأهل والخلصاء لكنّ عبد الله توّجَهُ باستعراض من طائرة "سيسنا" استأجرها من نادي الطيران للهواة، عبرت السماء في اللحظة التي خرجا فيها من باب الكنيسة حيث تكلّلا وتدلّت منها لافتة كبيرة خطّ عليها اسميهما. عادا من رحلة شهر العسل واستقرّا في البيت الجديد فوق المطبعة، فحملت بيرسيفون بسرعة وأخبرها الطبيب بعد ثلاثة أشهر بأنها "تخبّئ" توأمين بصحّة جيّدة، ابنتين.

وفي نهار شتائي مشمس، يوم عيد العشّاق، سقطت الدنيا على رؤوسهم.

كان عبد الله خارجاً من موعد طويل مع مدير أحد المصارف في وسط العاصمة تداولا فيه مخاطر المزيد من الاستدانة ومشروع

تطوير المطبعة وكلفته العالية في ظلّ الظروف الأمنيّة المتذبذبة، وحاولا تحديد المبلغ المطلوب لتأمين استيراد الآلة الحديثة التي يصرّ آل كرم على شرائها واتّفقا على لقاء أخير وحاسم بعد أسبوع. وعندما خطا عبد الله من باب المبنى في اتّجاه سيّارته المركونة في الجوار، انهار كلّ شيء عليه. قال لاحقاً إنه لم يسمع الانفجار بل ضربه في جسمه من دون صوت وقذفه إلى الجدار، نقلوه شبه ميت إلى المستشفى، رأسُه غارق في الدماء، أصابته شظيّة ضربت عظم جمجمته ووجهه كما أصيب بكسر في كتفه، فيما أوقعت الشاحنة المحمّلة بالموادّ المتفجّرة التي قيل إنّ انتحارياً كان يقودها ٢٦ قتيلاً وما يقارب مئة جريح.

نجا بصعوبة كبيرة، تكسّر جسمه وتشوّه وجهه فعاد أكثر إدماناً على الحاسوب، يبحر فيه ساعات بعد أن اختار له "غوتنبرغ ٩" ككلمة سرّ، يحفظ عليه أسرار المطبعة وحساباتها، وانساق بواسطته إلى المراهنات، الدوري الفرنسي لكرة القدم، كرة السلّة الأميركية، سباق الخيل في ميدان اسكوت اللندني وحتى نتائج مباريات الملاكمة. ثابر على قتل الوقت بمختلف انواع الألعاب، الحروف والأرقام، السودوكو وصولاً إلى لعبة البوكر على الشبكة ومنها إلى سلسلة من المواقع الإباحية أدمن مشاهدتها حتى نهاراً، في ساعات العمل، وصار الداخلون عليه ينتبهون أحياناً إلى أنه يغلق حاسوبه بحركة مفاجئة حين يقترب أحد من مكتبه.

٩

خرج فريد أبو شَعر من دائرة الجرائم الماليّة خائباً، وقف على الرصيف المقابل للمديرية كالعاري المكسور. إعادة الكتابة تشبه الأكلة المسخّنة التي تحاول أمّه إقناعه بها يوم لا تفتح نفسها على إعداد طبخة جديدة. مشى من دون هدف وهو يسترجع عن ظهر قلب صفحاته الضائعة من بدايتها، يلقي ما بقي في ذهنه منها على مهل، بصوت مسموع وأداء محرّك ومنوّن كان يلفت انتباه المارّة حوله، وكلّما تعثّرت ذاكرته انتابه خوف عميق كأنّ الجملة أو المقطع الذي سها عنه غرق في لجّة أبديّة سوداء لن ينجح في انتشاله منها. اتّجه غرباً نحو البحر فسمع دويّاً مفاجئاً يخترق السماء، تلاه زعيق صفارة إنذار صحبه بعد ثوان دويّ آخر مشابه، ظهرت سيّارة إسعاف عالقة في زحمة السير الكثيفة، وأمامها سيّارة هوندا سوداء يخرج من نافذتها الأمامية اليمنى رجل بثياب مدنيّة يرمي في الهواء من رشاشه الأوتوماتيكي بشكل متقطع طلقة طلقة مساهمة منه في إرغام السائقين على فتح الطريق. مرّت سيارة الإسعاف بمحاذاة فريد، لم يكن وجه سائقها يوحي بالهلع الذي كان ينشره دويّ الطلقات

والصفارات المتواصلة.

تعود به خطواته إلى مطبعة "كرم إخوان" وقبل أن يدخل ينعم النظر في نوافذ بيت بيرسيفون المشرّعة في حرّ الصيف. كان حريصاً على أناقته الرجوليّة، لا يمرّ بجانب مرآة إلّا ويتأكد من الصورة التي يريدها لنفسه فيملّس شعره أو يعدّل من ياقة قميصه المتهدّلة. لا حركة في البيت العلوي سوى الهواء يلعب بستائر النوافذ البيضاء الشفافة، ويعبث بسحابة من البعوض مثل حبل يتمدّد في كلّ اتّجاه.

دخل المطبعة الخالية وعاود التفتيش فوق المكاتب من دون نتيجة، وكان يهمّ بفتح الأدراج عندما سمع وقع عصا تضرب البلاط من بعيد قبل أن يظهر صاحبها السبعيني قادماً من القبو الخلفي ورافعاً بيده الأخرى كتيّباً. كان الرجل يلبس الأسود كأنّه روح المكان الغامضة والهائمة. عاجل فريد بالسؤال:

– عمَّ تبحث يا ابني؟

– أعمل هنا منذ وقت قصير وأضعت شيئاً من أثمن ما عندي ربّما!

– سوف تجده، لا تقلق، هنا الأشياء لا تختفي بل تعود وتظهر لا محالة! تخيّل أنّي عثرت قبل دخولك إلى هنا بقليل على هذا مرميّاً في إحدى زوايا القبو الخلفي. الطبعة الأولى لدستورنا في مئة مادّة ومادّتين، باللغتين الفرنسيّة والعربيّة...

يفتح صفحة الكتيّب الأخيرة ويقرأ:

"ابتداءً من أول أيلول سنة ١٩٢٦، تُدعى دولة لبنان الكبير الجمهورية اللبنانية دون أيّ تبديل أو تعديل آخر.

يُعمل بهذا القانون الدستوري فور نشره في الجريدة الرسمية.
أذيع في بيروت بتاريخ ٢٣ أيّار ١٩٢٦، طُبع لدى...
يتوقف قليلاً إثارة للحشرية ويكمل:
... كرم إخوان".

صفّ فؤاد كرم، المؤسِّس، كلمات الدستور اللبناني الأول بيده، وحده ليلاً على ضوء المصباح بعد انصراف العمّال. كانت التعليمات تقضي بأن لا يطّلع حشريّ على موادّ القانون التأسيسي هذا قبل أن يقرّه المجلس التمثيلي لدولة لبنان بالتصويت. صفّه وأعاد مراراً فكّ الصفحات بعدما أدخلت عليه عشرات التصحيحات وجرى استدراك الأخطاء في الترجمة. حاولوا تفادي نقل موادّ دستور الجمهورية الفرنسية الثالثة بحرفيّتها واتفقوا على تعديلات متلاحقة على ضرورة قيام مجلس للشيوخ إلى جانب مجلس النوّاب ثمّ التراجع عن نظام الغرفتين والعودة إليه وعلى مسؤولية الوزراء الذين يتحمّلون إفرادياً تبعات أفعالهم. وقد حضر المندوب السامي الفرنسي هنري دو جوفنيل إلى المطبعة في طريق الشام لتسريع العمل:

– تنتهي مهمّتي في بيروت بعد خمسة وعشرين يوماً أغادر بعدها إلى باريس...

فتشاجر مع ميشال شيحا العضو في لجنة الصياغة الذي صرخ في وجهه قائلاً:

– تريدون أن تصنعوا لنا جمهورية ديمقراطية برلمانية تأخذ في الاعتبار كلّ خصوصياتنا وطوائفنا وجماعاتنا وحريّاتنا السياسية والتجارية وذلك في مهلة ثلاثة أشهر؟

كان الرجل بالأسود يجول في المطبعة ويرافع، يميل بجسمه إلى جهة ويستعيد توازنه بواسطة العصا ويحكي بينما عاد فريد يسرق النظر يمنة ويسرة.

- تبدو مهموماً، ما هذا الذي قلت إنّك أضعته؟

ضرب فريد أبو شَعر قبضته على المكتب حيث كان يقف:

- مئة وخمسين، مئة واثنتين وخمسين صفحة!

- سوف تكتب غيرها، لا تخف، الحياة أمامك وتبدو ذكيّاً.

- لكنها شيء من روحي وليست لديّ نسخة غيرها.

- ومن سيسرق مخطوطة شعر هنا؟

- هل قلت لكَ إنّي شاعر؟

- لا، لكنّ فيك شيئاً منهم...

لم يتمكن فريد من النفي وتركه يكمل:

- ... كانوا يأتون إلينا وأوراقهم بأيديهم مكتوبة بخطّ اليد وفي عيونهم نظرة تائهة، يدفعون سلفة بسيطة، يحملون نسخهم تحت إبطهم ويغادرون. كنت أتساهل معهم كثيراً، يكملون دفع تكاليف الطباعة بعد بيع دواوينهم، أحدهم كان يوزّعها بيده مجّاناً على المارّة. مضحكون بكتاباتهم الغامضة وعناوينهم التي كان يتندّر بها عمّال المطبعة "نافورة الكلمات الخضراء" أو "السماء ترتدي مريول المطبخ". جاءت سيّدة جميلة ذات يوم ومعها ديوان بعنوان "أشهرت عليك الحبّ"، كانت جريئة، اكتسبت شهرة وأعادت طبع كتابها مراراً لكن أخبروني انها لم توفَّق في زوجها الذي كان يخونها مع الخادمة...

يفتعل ضحكة ساخرة ويتقدّم نحو فريد فيدوس على بقايا الزجاج المنثور أرضاً:

- ما هذا؟

- كرة زجاجية أوقعتها السيدة بيرسيفون.

يحب فريد ذكر اسمها.

كرة ثلج تذكارية في داخلها مدينة بيروت، تفتّت زجاجها وسال ماؤها وبقي منها المجسّم المصنوع من صورة للعاصمة مأخوذة من الجوّ، من شبّاك طائرة قادمة من جهة البحر لتحطّ في المطار، تظهر فيها الفنادق البحرية، السان جورج والفينيسيا والى اليمين جادة الإفرنسيين وبعدها مباني الجامعة الأميركية ومساحاتها الخضراء.

حرّك الرجل شظاياها بعصاه وسأل:

- هل أوقعَتْها زوجة عبد الله عمداً؟

- لا أدري.

- ماذا قالت؟

- بقيت صامتة.

- كنتَ في المطبعة عند مجيء الشرطة؟

وفجأةً يردّ فريد السؤال اليه:

- ومن أنت؟

- لطفي كرم، والد عبد الله، هذه مطبعة والدي، أسّسها جدّي فؤاد بالتعب والشقاء، وأنت؟

- فريد أبو شَعر.

- هل طرحت عليكم الشرطة الأسئلة؟

- أوقفونا خارجاً، الموظفين جميعهم، فانتظرت حتى انصرفوا.
- هل كان عبد الله في المطبعة عندما وصلوا؟
- نعم، كان واقفاً هنا يتابعهم صامتاً.
- وماذا أخذوا معهم؟
- أخذوا صندوقاً لم أرَ ما فيه.
- وبقيت هنا منذ الصباح؟
- كلا، لحقت بهم إلى مديرية الأمن الداخلي، لعلهم حمّلوا كتابي في جملة ما حمّلوه. أحالوني هناك على ضابط برتبة عقيد جزم لي وهو يؤنّبني بلهجة متعالية بأنّهم يعرفون ما هم فاعلون ولا يصادرون سوى "الموادّ المشبوهة" ثمّ صرفني!

التقط لطفي كرم العبارة وانفجر رافعاً عصاه في الهواء:

- الموادّ المشبوهة؟ صارت لدينا موادّ مشبوهة نحن؟ مطبعة كرم كانت تؤتمن طوال سنين، من زمن الانتداب الفرنسي، على إصدار الطوابع البريدية والطوابع المالية، ولا تنسَ جميع إصدارات اليانصيب الوطني، تخيّل كلّ هذا المال وهذه الأمانة! بالإضافة إلى الجريدة الرسميّة، أعدادها كاملة موجودة في الخزانة هناك، ودفاتر الشروط للمناقصات العامة والصورة الرسمية المرفوعة في جميع الدوائر لرئيس الجمهورية فور انتخابه والوشاح الوطني على صدره. كنّا مطبعة الدولة ويأتي اليوم أناس لا نعرف من أين خرجوا، يتمرجلون علينا، يتركون المهرّبين والسارقين يسرحون ويمرحون ويدسّون أنوفهم هنا لعلّهم يجدون طريقة يبتزّوننا بها، ماذا سيحلّ بهؤلاء إذا أقفلت المطبعة؟

أشار بيده إلى الكراسي والمكاتب الفارغة وأضاف:

- أكثر من مئة عائلة!

لكن هو أيضاً تذكّر السؤال البديهي بعد أن هدأ قليلاً:

- وأنت لم أرَك هنا من قبل، ما هي وظيفتك؟

- أصحّح اللغة العربية...

ثمّ أضاف كذبته الصغيرة في محاولته المستمرّة لتحسين صورته أمام الآخرين:

- ... وأحياناً أترجم.

١٠

عدّتُه واقٍ للأكمام يحافظ به على نظافة القميص الأبيض، أقلام البيك بالحبر الأحمر التي تتكاثر في جيوب سترته ومعجم "الأخطاء الشائعة في العربيّة الذائعة" من تأليف محمد زيد القحطاني، وجده في أحد أدراج المكتب، تصفّحه في اليوم الأول فلم يجد فيه كبير فائدة لكنّه أبقاه في متناول يده تحسّباً لاستثناء لغوي قد يتردّد في حسم أمره.

سلفه في وظيفة المصحّح، الطاعن في السنّ، لم تعرف يداه ايضاً الطريق إلى لوحة المفاتيح. تفادى الآلات الكاتبة في شبابه ولم يرافق شيوع الحواسيب. جلس سنوات إلى نفس المكتب الذي أعطي لأبي شعر، وغادر فجأة. كانوا يسمّونه "الأستاذ"، تقاعد من التعليم الرسمي حيث "تخصّص" في الصفّ الرابع التكميلي. يسكن وحده، تزوّج لأسابيع قليلة هربت بعدها العروس ولم تعد، وبقي سبب هروبها لغزاً غير مباح. قلمه الرصاص مشكوك دائماً خلف أذنه جاهزاً يصحّح به حتى فاتورة الكهرباء عندما تصله قبل أن يتذمّر من قيمتها المستحقة عليه. له مؤلَّف صغير واحد لم تُعد

طباعته هو "رسالة في علامات الوصل والوقف".

صبر على كل أنواع الأخطاء والشواذات في ما يطلب منه تصحيحه قبل الطباعة، لينفجر في يوم واحد من دون سابق إنذار. نهض عن كرسيّه ملوّحاً بيده برزمة أوراق كان يراجعها بصعوبة ظاهرة أرهقته، رمى نظّارته أرضاً، داس عليها بكعب حذائه وراح يضربها حتى طحنها. جعلك الأوراق ورماها في سلّة المهملات، قال إن المطبوع عليها ليس كلمات بل براز الذباب وطالب الجميع بأن يودّعوا عنه "مسيو" كرم، قالها لؤماً بالفرنسيّة للمرة الأولى والأخيرة، وأن يطلبوا منه البحث عن شخص غيره. لم يرجع ولو مرة واحدة للمطالبة بما له من مستحقات مالية. غادر المطبعة لكي يداوم في مقهى الحاج نقولا حيث كراسي الخيزران والطاولات بأغطية بيضاء وزرقاء تذكّره بأيّام من شبابه، يلعب طاولة الزهر، يحتقر الجرائد ويهزأ من أخطائها، ترك وراءه في درج المكتب مسبحة من حجر الكهرمان، بعض التبغ "العربيّ" مع آلة للفّ السجائر ورزمة مفاتيح من عدّة قياسات احتفظ بها مع أنها لا تفتح سوى أبواب بيوت هجرها من زمان.

كان من المتوقّع أن يحلّ محله خطاط المطبعة ولو مؤقتاً. بدأ البيروتي العتيق هذا مهنته بنسخ الآيات القرآنية لرفعها في البيوت وفي المحالّ التجارية، وقد ورث حبّها عن أبيه مؤذّن المسجد العمري، أبوه يوقظ الناس ويجوّد الآيات القرآنية وهو يكتبها. يلوّن أحجامها وانحناءاتها، ينمنمها بخطّ الغبار على الأواني والأخشاب وحتى على الخواتم الذهب لكنه، إذ انكبّ في بداية أعمال التصحيح على

مراجعة دفتر تعليمات برادات جنرال إلكتريك بالعربية، اكتشف أنه مع براعته في رسم الثلث والمحقق، فهو لا يعرف كيف يضبط اللغة العربية. فأمكن القول إن عمر عبد اللطيف بازرباشي، المقيم في شارع كليمنصو، يبرع في رسم الحروف والكلمات العربية ولا يتقن قواعد كتابتها.

تراجع وسلّم المهمة إلى سيّدة خمسينية من العاملات لدى "كرم إخوان"، استحقّت صيتها كمثقفة المطبعة لأنها اقتنت لوحاً أخضر إلى جانب مكتبها تخطّ عليه كل يوم بالطبشور قولاً مأثوراً لأديب عالمي. تطوّعت صباحاً للتصحيح وعند الظهر اتّجهت إلى مكتب عبد الله كرم لإعلان استسلامها فاستمهلها صاحب المطبعة كي يتمكن من إيجاد مصحّح جديد دائم.

في اليوم التالي حضر فريد في الوقت المناسب فسلّمته السيّدة ما كانت تعمل عليه، ابتسمت له وسألته إن كان مشتركاً في الفايسبوك، "كتاب الوجوه" كما سمّته، حيث تنبش عموماً الحكم والأقوال المأثورة التي تأتي بها. كان نفيه قاطعاً وجاهر بجهله بهذه الأمور وأنه في كل حال لا يريد أن يفسح المجال أمام أحد للدخول على خصوصياته. انسحبت من دون أن تفهم ما يعنيه بموضوع الخصوصية هذا، فهي سعيدة بإعلان ولادة حفيدها الأول على صفحتها وتبدي امتناناً لكل من يبادلها المشاعر. أطالت النظر في اتّجاه فريد أبو شَعر بعد أن عادت إلى مكتبها، وفي اليوم التالي كتبت على لوحها الأخضر جملة لفكتور هوغو: "المرأة مزيج من حقيقة القوة وظاهر الضعف".

إضافة إلى جهله بالحواسيب ووسائل التواصل الاجتماعي، كان كلّ شيء في مظهر فريد أبو شَعر، بالرغم من عدم تجاوزه العقد الثالث من العمر، يوحي بمسحة قِدم لم تخفَ على السيد عبد الله كرم يوم استقبله في مكتبه لأوّل مرة وخيّب أمله هو أيضاً في نشر كتابه. بذلته من جوخ رمادي مقطّع مربّعات، من الذي لا يُعثر عليه إلّا عند خيّاط في أحد الأحياء الداخلية وُفّق يوماً بشراء "ثوب" إنكليزي بسعر رخيص وراح يقنع زبائنه القلائل بأن يُلبسهم من هذا الجوخ "الأصلي"، ربطة العنق الحمراء العريضة، تسريحة شعره وفصاحة لسانه الطبيعية كأنه يقرأ في كتاب قديم. سأله دودول إن كان "شاطراً" باللغة العربية فردّ أبو شَعر كمن تعرّض للإهانة بأنه "وُلد في لغة بني تغلب" ففهم وريث المطبعة مقصده من دون أن يفهم الإشارة إلى من أسّسوا سوق عكاظ ونصروا باكراً رسول الله.

يوم طلب منه العمل مصحّحاً كان يُفترض بفريد أن يرفض من دون جدال لكنّه تردّد قليلاً ونظر بسرعة في أحواله: يسكن مع أمّه، آخر من بقي معها في شقّة أهله بعد أن تزوّج أخواه واستقلّا مع عائلتيهما، تنفق عليه بعضاً من مدّخراتها وتنكر ذلك أمام شقيقيه، تقول إنه هو الذي يعطيها لا العكس لأنه يعمل وعنده مدخول. كان فريد يعمل بتقطّع ومقابل القليل، علّق على واجهات المتاجر والمكتبات في فرن الشباك حيث يقيم أوراقاً يعلن فيها أنه يعطي دروساً خصوصية استلحاقية لتلامذة المدارس فلم تتأخر الاتّصالات به من أهل يشكون تدنّي علامات أبنائهم. صار يقصدهم في بيوتهم

حيث يتباطأ الصغار في فتح حقيبة الكتب ومفكرة الفروض ويعاملونه من دون الاحترام المفروض عليهم في المدرسة فيما هو يشعر بالذنب إن لم ينجحوا في امتحاناتهم النهائية.

طلب مهلة للتفكير فظنّ عبد الله كرم أنّه يناور فعرض عليه، لحاجته الملحّة إلى مصحّح، مرتّباً مغرياً لكن أبو شَعر أصرّ على المهلة، ولو من باب الكبرياء. أمضى أسبوعاً يتجاوز ما اعتبره إهانة بحقّ موهبته. قصد القرية حيث أمضى يومين يراجع نفسه واقفاً على شرفة البيت ينظر في تغيّر ألوان السهل المنبسط أمامه. عاد إلى بيروت وأطفأ كدره وتردّده لليلة واحدة في ملهى "لوس لاتينوس" مع الشقراء المثيرة اللطيفة التي تُفهمه دائماً بمزيج اللغات التي لا تتقنها أنها تفضّله على باقي الزبائن، قبل أن يعود في صباح اليوم التالي إلى المطبعة موافقاً ومصمّماً على اكتشاف سرّ المرأة التي تدخّن وتقرأ وتنظر إلى الغرباء في عيونهم.

بدأ العمل وهو مقتنع بأن ما يحصل معه مؤقت، فهو لا يرى نفسه في هذه الوظيفة، وحاول لوقت طويل إخفاء ما يفعله عن أمّه وشقيقيه وأصحابه. وعن السؤال أين تعمل؟ يجيب باقتضاب "في مطبعة"، مقفلاً الحديث هنا وإن ألحّ السائل قال إنه مشرف ومدير أو حتى محرّر متفادياً دائماً كلمة مصحّح.

بدأ العمل، ورغم صغر سنّه اكتسب بسرعة لقب "الأستاذ فريد" وذلك من باب وراثة المكتب وبسبب رصانته وتضلّعه من اللغة العربية واكتشف بسرعة ما كان يعرفه الجميع من أنّ عمل المطبعة متوقف عليه أو على الجالس مكانه، كلّ بروفة، كلّ

تصميم، كلّ شيء قبل أن يأخذ طريقه إلى آلات السحب الكبيرة يجب أن يمرّ به كي "يشيّك" عليه، يصحّحه ويسجّل موافقته "صالح للطباعة".

١١

كلّ شيء يعني كلّ شيء.

تصحيح تعليمات علب الأدوية التي تأتيه مترجمة من شركات التوزيع المحليّة، "كزاترال إكس إل"، دواء للعلاج الاعراضي للإشارات الوظيفية لتضخّم البروستات الحميد، مراجعة وصفات من نوع "ابلعي قرص واحد" من مِفبريستون الذي يوقف مفعول البروجسترون، وبعد مرور ٢٤ ساعة، يجب عليكِ وضع أربعة أقراص من ميسوبريتول تحت اللسان لثلاثين دقيقة تستطيعين بعدها أن تبلعي ريقك"، وصفة تفصيلية لمعالجة داء البواسير بعسل النحل... وبعدها مباشرة، في اليوم نفسه، تفاصيل وطرق استعمال طوافات سوبر بوما AS - 332M المرسلة من فرنسا إلى الجيش اللبناني بعد تجاوز اعتراض إسرائيل على الصفقة، سلّمه إيّاها عبد الله كرم يداً بيد في ملفّ مقفل وعليه عبارة "سرّي" وأوصاه بإعادتها إلى مكتبه قبل خروجه من المطبعة. قوائم المأكولات في المطاعم مكتوبة بلغات ثلاث، جرائد الإعلانات المبوّبة لم يجد فيها فرصة عمل تليق به أكثر من الذي يقوم به عند "كرم إخوان"، تعرض أثاثات بيوت

للبيع بداعي السفر وتعلن إعطاء دروس عزف على البيانو وطلب فتيات حسنات المظهر للعمل سكرتيرات في مؤسّسة تملك فروعاً في الخليج العربي. أوراق النعي وبطاقات الأعراس، دليل الحياة الليلية في بيروت، كتيّب "مئة وسيلة بسيطة لمنع الألزهايمر والخرف"، عقود التأمين على السيارات وعلى الحياة حيث يدقّ حجم الكلمات كثيراً ويقال إن ذلك مقصود لكي يستثقل الزبائن المتعاقدون قراءتها ويوقعوها من دون مناقشة. مجلّات "الجمال" و"الشاب العصري" و"أناقتك" حيث الصور تلتهم النصوص على الورق اللمّاع الفاخر. الجسم المثالي في عشر دقائق يومياً فقط، الدليل الكامل لخصوبة المرأة و"كيف تمارسين الجنس وأنت حامل"، "طريقك المعبّد إلى جني الأرباح المؤكّد"، أو كيف تؤمّن دخلك من شراء الأسهم وبيعها في الوقت المناسب، مئة موديل للرضّع والصغار، كاتالوغات شغل الصوف بالإبرة...

غطس فريد أبو شَعر في المهمّة التي ارتضاها من دون تأفف، وكانت ضربات قلمه القاسية فوق الأخطاء أصدق تعبير عن احتقاره النصوص التي يتعامل معها واستهتاره بمؤلفيها المغفلة أسماؤهم. وهو ما يوحي به توجّهه إلى المغسلة أربع أو خمس مرّات في النهار وكثافة رغوة الصابون التي يُغرق فيها يديه كأنما رغبة في تنظيف نفسه من "تفاهة" ما يعمل عليه لا فقط غسلاً لحبر الكلمات العالق على ظهر يده اليمنى من جراء احتكاكه المستمرّ بالأوراق المطبوعة بالأسود. ومع ذلك كان يعمل بحماسة وفعالية نادرتَين، فكلما مرّت أمامه فتاة الخدمة ورمت على مكتبه "بروفة" للتصحيح انكبّ عليها

لا يرفع رأسه، لا يستكين، حتى يفرغ منها. وإذا ازدحمت أمامه الأعمال التي لا تنتظر بسبب الاضطرار إلى طباعتها بسرعة وفاضت التصحيحات عن قدرته في خلال دوام العمل، حملها معه إلى البيت، أوراقاً يضمّها إلى مسوّدته الأدبيّة التي لا تفارقه، يعالجها وهو يتناول طعام العشاء أمام التلفاز الذي تتابع عليه أمّه مسلسلها التركي، "حبّ للإيجار"، تترضّى عليه وتشكو له أوجاعها المزمنة.

أو ترافقه أوراقه إلى الملهى، "لوس لاتينوس" الاسم على غير مسمّى فزبائنه من العرب الأقحاح مسلمين ومسيحيّين، ونساؤه شقراوات عيونهن ملوّنة قادمات من بلدان الشرق السلافية الباردة. وهناك، في خفوت الأضواء وضجيج الأغاني الشائعة، أثار فضول طالب جامعي يتردّد على المكان ويدّعي المعرفة بأصول اللغة العربية، وكان الشاب يرفّ بعينه كأنّه يغمز من دون توقف، ويتدخل في ما يفعله فريد ويكثر عليه الأسئلة حول نوع عمله وأجره فيشمئزّ فريد من سلوكه ويظنّ أنه يتواطأ مع الآخرين عليه بغمزاته المتكرّرة. ولمّا تطفّل عليه وعارضه في جملة ظنّ أن فريد اخطأ في تصحيحها جاء جواب فريد بلهجة التوبيخ: "الفعل الناصب للمفعول المطلق يُحذف وجوباً إذا كان المصدر بدلاً من فعله وإذا أُتي به تفصيلاً لعاقبة ما قبله أو متى كرّر المصدر المسند إلى اسم ذات أو عطف عليه مصدر أو إذا كان المصدر مؤكّداً لنفسه". هكذا ردع أبو شَعر طالب الملهى عن دسّ أنفه في تصحيحاته.

كانت خياراته حاسمة في ما يسمّى الأخطاء الشائعة ويهزأ من محاولة تجويزها في الصحافة والرواية، لكن ما إن ينهي تصحيحاً

يستغرق منه "ليلة بيضاء" لا يكاد ينام فيها سوى ساعتَين ويصل إلى المطبعة في الصباح، حتى يجد ملفّاً جديداً ينتظره أكثر سماكة من الذي أنهى تصحيحه. يمطّ شفتيه تبرّماً حتى أدرك أنه يواجه بحراً لا ينضب، ورأى البحر في المنام محيطاً مياهه تميل إلى الخضرة وموجه المتلاطم في يوم عاصف متوّج لا بالزبد بل بأخطاء لغوية كثيفة تلتمع على رؤوسها. بحر مبقّع بالهمزات فوق الألف وتحتها وبأفعال القلوب والمتعدّي والمفعول به والأسماء المشبّهة بالأفعال والأرقام المركبة اثنتا عشرة وثمانٍ وثلاثين بعد المئة وأصوات المنادى والزجر والاستغاثة... حتى إنه أُصيب بعد فترة بحمّى الأخطاء، راح يقرأها على لوحات الإعلانات التجارية واللافتات الحزبية وأسماء المحالّ ويكاد، كلما بدت له من بعيد، يرسم بيده حركة شطبها كما يشطب الهمزة في غير موضعها بقلم "البيك" الأحمر.

اشتدّ عليه ضغط العمل وزادت خيبته بعد أن فقد أمله في العثور على مسوّدته التي كان يمنّي نفسه بطبعها عند "كرم إخوان" بعد أن تتوثّق علاقته بأصحابها. فصار مجيئه إلى المطبعة سخرة ارتضاها لنفسه وأجراً يغني عن جوع. وكان قد التقى صديقاً من زملاء الدراسة في الجامعة وصارحه بمشاعره فلم يحبّذ له هذه الوظيفة الضحلة التي لا تقدّم فيها. وعده بالمساعدة لنشر مقالات في إحدى المجلات وطمأنه إلى أنه سيكون له مستقبل واعد في الصحافة. هكذا تحوّلت مع الأيّام إقامته في المطبعة إلى محنة ضاغطة، كان بإمكانه الدخول إلى مكتب عبد الله كرم واستئذانه بالرحيل بنبرة حاسمة متذرّعاً بالسفر أو الحصول على وظيفة تهمّه أكثر، لكن

خيطاً آخر كان يربطه بالمكان. جذبه إليه من اليوم الأول وأعاده إليه، فصارت لحظة الانفراج الوحيدة في يوميّاته تحصل عندما تنزل بيرسيفون درج الحجر فتنير القاعة بابتسامتها التي يظنّ أنها موجّهة إليه وحده. كان في كلّ أفعالها وعد بفصل تالٍ يبقيه متأهّباً، عيناه في ظهره، يتابع حركتها فيصير وجودها على مقربة منه أو مجرّد معرفته بأنها في بيتها، فوق، محرّضاً له على البقاء جالساً في كرسيّه متكئاً على صورتها واحتمال تلقّي إشارات جديدة تقرّبه منها لكي ينجح في إكمال نهاره وتصحيحاته المتزايدة.

لكن لم يكن مقدّراً لفريد أبو شَعر أن يغادر أقبية مطبعة "كرم إخوان" بهذه السهولة. فبعد مرور شهر على تبخّر مخطوطته من دون أثر ولم يقتنع بعد بكتابة سطر واحد منها من جديد، حضر في أحد الصباحات فوجد أمامه كتاباً جديداً ظنّ أنّه وُضع هنا عن طريق الخطأ فأهمل فتحه وأبعده إلى طرف المكتب لينصرف إلى أعماله. صحّح لساعتين ثمّ نهض ودخل إلى الحمّام يغسل يديه ويرشّ الماء على وجهه ليعود نشيطاً إلى كرسيّه حيث وجد الكتاب قد صار أمامه، مباشرة فوق أوراقه. نظر حوله بحثاً عن السكرتيرة التي تحمل إليه البروفات ليسألها عن الحاجة الملحّة إلى هذا الكتاب، لم يجدها في الجوار ففتحه وانتبه أولاً إلى ملمس ورقه المختلف عن ورق الكتب، ورق سميك، يصعب طيّه كأنّه مشمّع. قرأ في الصفحة الأولى فانتبه إلى أنّه يقرأ في كتابه. إنها الجملة الأولى في مخطوطته، أصابه بالدوار هذا المطلع المستعاد المحفور في وجدانه والذي مزّق في سبيل تحسينه عشرات الصفحات. هو يدرك أهمّية البدايات.

وقف عن كرسيّه يكمل القراءة ويتأكد من أنه أمام كتابته الواردة هنا بالترتيب نفسه الذي أراده لها. نظر حوله ليرى إن كان هناك من يراقبه أو يتلاعب به وكاد يهتف بمفاجأته وتساؤلاته على الملأ. كان الجوّ في المطبعة عاديّاً، الموظفون في أماكنهم المعتادة. لاحظ أنّ المعلّم أنيس قد دنا من مكتب البازرباشي الخطّاط وتهيّأ له أنهما سيتحدّثان عنه لأن الحلواني كان يرمقه بنظرة من طرفه بابتسامة غامضة.

١٢

أنيس ابن مصطفى ابن عبد الحميد الحلواني، بمدّ الياء على طريقة أهل محلة البسطة البيارتة إذا كان الحديث في ما بينهم. سلالة من الحرفيين المهرة، عملوا بكدّ ولم يقتنوا الكثير، فلا يخشى آخرهم، أنيس، عودة الحرب إلى أحياء بيروت وغياب أيّ أثر للدولة بقدر ما يخاف من إقرار قانون جديد للإيجارات في المجلس النيابي يرفع البدلات القديمة المتواضعة بنسب عالية فيجعله مع عائلته عاجزاً عن البقاء في مسكنه الحالي في شارع النصراوي في البسطة التحتا ويشرّده إلى حيث لا يمكنه التكهّن.

عمل عبد الحميد، الجدّ، في مطبعة "كرم إخوان" من يوم تأسيسها، علّم فؤاد ومعاونيه كيفية تشغيلها لكن الرجلين كانا يتشاجران ويتزاعلان بسبب تفاصيل صغيرة واختلاف في الأطباع، وفي كل مرة كان عبد الحميد يحرد وينتقل للعمل في مطبعة اليسوعيين ثم يعود إلى مطبعة كرم بعد أن يلتقي الرجلان في أحد مقاهي ساحة البرج ويتصالحا، وقد حزّ في قلب فؤاد أنه يوم تُوفّي عبد الحميد الحلواني كانا على خلاف نسي حتى سببه.

"ظُلم جدّي"، يقول حفيده أنيس مصطحباً محدّثه إلى المستودع الخلفي في مطبعة "كرم إخوان" حيث جُمعت العتائق. ولا يبدأ بسرد سيرة عبد الحميد إلّا إذا تناول أحد الحروف العربيّة المصبوبة التي تملأ المكعبات الخشبية.

– ما هذه؟

يسأل ويجيب:

– إنها العين وفوقها فتحتان، وهذه الألف والهمزة تحتها، قبل ذلك كانت الحركات محفورة على قطع مستقلّة عن الحروف.

جدّه اخترع هذا، الحرف والحركة في قالب واحد، لا يعرف لماذا سمّوه الحرف الإسطنبولي ونسبه الآباء اليسوعيون لأنفسهم، الأب لويس شيخو تجاهل عبد الحميد الحلواني في كتاب "تاريخ الطباعة والمطابع في لبنان"، لكن جدّه كان شريفاً لا ينقلب على من عمل معهم.

في آخر أيّام الحرب الكبرى حضر إلى البيت ضابط تركي ومعه بعض العسكر وانتظروا عبد الحميد حتى عاد مساءً. طلبوا منه مرافقتهم فأجاب بأنه لم يتسبّب بمكروه لأحد وأنه من رعايا السلطان الصالحين. تجادلوا معه، وإذ عجز الضابط عن إقناعه بمرافقتهم رماه فجأة بتهمة الخيانة لأنه يعمل في مطبعة اليسوعيين الفرنسيين أعداء السلطنة وأن الدولة بحاجة إلى خدماته وأن عليه الإشراف على مصادرة المطبعة الكاثوليكية. عاند وبقيت زوجته لسنوات تخبر أن الضابط بعدما يئس من إقناعه بالكلام ضربه بقبضة بندقيته فأوقع طربوشه أرضاً. تجمّع بعض أبناء المحلّة بسبب الصراخ

فزجرهم العسكر. أخذوا عبد الحميد مخفوراً في الليل فخشيت زوجته ألّا تراه ثانية. عاد فجراً وأخبرها أنهم صادروا عربات الخيل في بيروت ووضعوها في تصرّفه لإيصال آلات المطبعة الكاثوليكية إلى محطة القطار في الكرنتينا على أن تُنقل إلى دمشق بناءً على أوامر عليا من جمال باشا وأنهم قد يصطحبونه عنوة لتركيبها وتشغيلها هناك. لكن الحلواني كان صاحب حيلة فتظاهر بأنه متعاون معهم وطالب بمكافأة فظنّوا أنه قابل للرشوة فتركوه يأوي إلى بيته من دون حراسة. لا يعرف أنيس ما الذي حصل لجدّه في تلك الليلة فهو يفضّل القول إن عبد الحميد الحلواني لم يتحمّل فكرة المشاركة في سطو الأتراك على المطبعة التي كان يعمل فيها، كما يمكن الاعتقاد بأن بكاء زوجته وخوفها من ترحيله إلى دمشق جعله يحجم عن مساعدة الجنود فخرج من البيت في الليل رغم المخاطر في تلك الأيام ولم يخبر حتى زوجته عن مقصده. لم يُعرف ماذا حدث لاحقاً لكن لم يأت أحد للسؤال عنه في الصباح ذلك أن بيروت ضجّت بأخبار انتهاء الحرب وانتصار الحلفاء على الجيش التركي الذي انسحب منها بعد أيّام على جناح السرعة.

أخذ والد أنيس "المصلحة" باكراً عن أبيه. عبد الحميد بدأ بسبك الأحرف، أمّا مصطفى فامتهن الصفّ. هو أيضاً بدأ بالعمل عند آل كرم حتى انتفت حاجتهم إليه. كان أعسرَ وحادّ الطباع، يرتّب الحروف في رفوفها وعلبها على طريقته الخاصّة. يضع الشمسية منها، الدال والذال والصاد والضاد في الرفّ الأعلى وتحتها في علب موازية الحروف القمرية مثل الحاء والخاء والميم والهاء. هذه بدعته،

فكان إذا تغيّب أو ترك العمل وجد الصفّيف البديل صعوبة بالغة في التأقلم مع هذا الترتيب الفريد. كان مصطفى الحلواني كما قيل فيه "فرجة لمن يتفرّج"، كان أسرع صفّيف بالعربية على الإطلاق وقد شارك في شبابه في مسابقة جرت في القاهرة أذهل في خلالها اللجنة وصفّق له الحضور طويلاً. يأخذ المسطرة الحديد وزاويتها بيده اليمنى، يقف أمام خزانة الحروف وينطلق كأنه في سباق لا يرحم، لا ينظر إلى القطعة ونادراً جداً ما يخطئ في التقاط الحروف إن كانت في الطاقات التي خصّصها لها. التاء في جميع أحوالها، الطويلة والمربوطة والقصيرة في أول الكلمة أو في آخرها، الألف في تحوّلاتها من الهمزات المبتدئة، المتوسّطة وشبه المتوسّطة، إلى الجالسة على كرسيّها أو فوق الواو أو المعلّقة بالفراغ وصولاً إلى المتطرّفة والى الألف المقصورة، إضافة إلى الحركات والفواصل والمدّات لتوسيط السطور وضبطها. يصحّح النصوص تلقائياً من دون الرجوع إلى أصحابها وحتى مؤلفيها إذا لمس أن فيها أخطاءً، يعالج الاختلاف في ارتفاع بعض الأحرف وكانت عنده الحشوات المناسبة لترتيبها بنفس المستوى، يشدّ الصفحة بالملزمة ويصرخ بعامل المطبعة "حمّل".

وقعت الكارثة يوم أنجز طبع كتاب "سنن الترمذي" وكان متغيّباً بسبب نزلة صدرية أقعدته ففُكّت صفحات الجزء الأخير بأكملها وتطوّع أحد العاملين لردّ الحروف إلى مواضعها فعمد إلى رميها في المربّعات وفق الترتيب الأبجدي المتعارف عليه في المطابع اليدوية واختلطت الحروف بعضها ببعض. عاد مصطفى إلى العمل

وسرعان ما اكتشف باللمس أن هناك خطأ في الترتيب ولما عرف ما حدث انفجر غاضباً ثمّ جلس في إحدى زاويا المطبعة وبكى ى مذكّراً صاحبها بأنّه حذّر من ترك أي كان يعمل مكانه.

لن يحلّ محله أحد لأن صنعته كانت على وشك الاندثار. لم تأخذ منه آلة المونوتيب الحديثة الكثير لكن ما جاء بعدها من اختراعات قضى نهائياً على الصفّ اليدوي، وكلما جُهّزت بها مطبعة كان مصطفى الحلواني يجد نفسه عاطلاً عن العمل. ظلّ أصحاب ما بقي من مطابع صغيرة يتسابقون على تشغيله بالرغم من مزاجه الصعب فقط لسرعته المفيدة. إذا وُجّهت إليه ملاحظة لا تعجبه بسبب تأخّره يوماً في الحضور عند الصباح، يرمي ما في يده من مسطرة وحروف فوق المنضدة ويخرج من الباب من دون رجعة رغم اعتذارات وترجّيات صاحب العمل. انتهى فقيراً في مطبعة فقيرة متخصّصة في أوراق الإعلانات الخفيفة التي توزّع على المارّة أو ترمى في الشوارع وأعمال طباعية عفا عليها الزمن وبعض أوراق النعي.

تعلّم أنيس صفّ الأحرف بدوره وأتقن العمل به في مطبعة كرم إخوان حيث بدأ والده يصطحبه عند بلوغه العاشرة من عمره، خاف عليه من البطالة فأرغمه على إتقان تشغيل آلة اللينوتيب عدوّته اللدود وسبب تشرّده. عرّفه إلى لطفي كرم عندما كانت المطبعة ما تزال في الجمّيزة فعمل لديه طوال حياته وصار رجل الثقة الأوّل عنده. لم ينقطع عن الدوام سوى سنتين بسبب انقسام العاصمة أثناء الحرب وكانت إقامته في شطر وموقع المطبعة في الشطر المقابل. عمل بكدّ في أكثر من صنعة طباعية لكنّه استسلم أمام آلة الصفّ الضوئي

ومن بعدها تسارع كلّ شيء دفعة واحدة وتوالت الاختراعات والتطبيقات. ومع حدوث الانقلاب الرقمي وانتشار حاويات اليو أس بي الصغيرة صار كالأطرش في الزفّة. تُحضر النصوص مصفوفة والآلات تقطع الورق على القياس، تقوم بالتجليد والتوضيب، فبقي في المطبعة المواكبة لكل جديد مع عبد الله باعتباره تركة أو بركة من زمن ولّى، زمن الآلات التي تقذف حبراً والتي بقي منها آثار في هندامه وبشرته وسواد أصابع يديه. يسجّل ما يريد حفظه على دفتر صغير سميك يخرجه من جيبه ليكتب عليه أرقام الهواتف أو غيرها من المهام، يفقد القدرة التدريجية على أيّ مساهمة عملية في تسيير الآلات ومراقبة إنتاجها فتحوّل إلى عين لطفي كرم ومن بعده ابنه عبد الله بين الموظفين.

١٣

عَينُ عبد الله وحافظُ سرّه وسرّ أبيه، يدخل البيت من دون استئذان، يلاعب الفتاتين، تضحكهما لهجته وحركاته، يلاحقه الكلب الصغير كيفما دار، يتعثّر به، يتصفّح مجلاّت الموضة المرميّة في غرفة الجلوس، ينتظر بيرسيفون. تكلّفه شؤوناً لا تأتمن غيره عليها، يعرف مزاجها الصباحي من نبرة صوتها حتى قبل أن تظهر أمامه خارجة من غرفة نومها قبل أن تنهي تبرّجها، فيتأهّب الحلواني تحسّباً.

ناب عن آل كرم بعد إصابة عبد الله في الانفجار، فعندما صارت تُجرى العمليات الجراحية الخطرة لعبد الله يلازم والده لطفي قاعة الانتظار في المستشفى لساعات عصيبة بعد أن يسلّم المكتب لأنيس الحلواني. صرّف بعض الأعمال برصانة مدققاً في ما يمرّ أمامه، مشكّكاً في الأرقام التي تقدّم له كأنه ليس زميلاً للعاملين الذين تندّروا بجديّته ورمقوه بنظرات سخرية مواربة. وتلقّى في جلوسه القصير خلف مكتب المدير مكالمة هاتفية من المصرف تبلغه فيها الموظّفة بلهجة محايدة أن حساب مطبعة "كرم إخوان" بات مكشوفاً بنسبة كبيرة وأن على أصحاب المؤسّسة مراجعة إدارة المصرف على وجه

السرعة، ولمّا سأل، بحشرية الفقير، عن حجم الانكشاف أجابته بأن هذه أمور لا تُحكى إلّا مع المعنيّ بها وبالتأكيد ليس على الهاتف.

استدعى الأطبّاء أهل عبد الله يوم قرّروا إيقاظه من غيبوبته التي امتدّت لأكثر من شهرين. هَمْهَم، تكلّم بصوت ضعيف، كان وجهه مضمّداً، طلب ماءً ليروي عطشه، تعرّف إلى الجميع، واحداً واحداً، سأل بهدوء ماذا يفعل هنا فأخبروه أنه أصيب في انفجار فكان آخر العارفين بعملية اغتيال رئيس الوزراء التي كان هو إحدى ضحاياها الجانبيين وأحد الشهود الذين ستُوثّق أقوالهم لدى قاضي التحقيق ولو لم يكن لديه الكثير يقوله عمّا حدث. تذكّر بعد قليل أنّ زوجته حامل بفتاتين توأمين فأخبرته بأنهما أبصرتا النور وتنتظرانه لإتمام رتبة العماد ولاختيار اسميهما، وأنها ربطت خلخالاً ذهبياً في كاحل إحداهما لتمييزها عن أختها فابتسم لأول مرّة. تفاءل والداه بإمكانية نجاته ولم يتمالكا نفسيهما عن البكاء فخرجا إلى الممرّ وبقيت بيرسيفون جالسة تتعرّف إلى زوجها من جديد.

زرعوا قضيباً من النكل في كتفه بعد انتزاع المفصل العلوي لعظم العضد واستبدال مفصل الكتف بسطح اصطناعي، خاطوا خدّه بعدد كبير من القطب الجراحية الدقيقة بعدما أخذوا لحماً من فخذه وأخبروه أن أثر الجرح في وجهه سيبقى ظاهراً لسنوات. كان الأصعب استئصال شظيّة استقرّت في مقدّمة الدماغ الأمامي بين النواة الذيلية والنواة العدسية، عملية استمرّت عشر ساعات بعد توسيع فجوة الجمجمة وفتح الغشاوة على شكل حدوة حصان. وبعد ذلك كله لم يجزم الأطباء بنوع التلف الذي أحدثته الشظيّة وتأثيره على

"الوظائف العليا" للدماغ في انتظار استعادته وعيه وممارسة حياته العادية مدّة شهر يصار بعدها إلى تقييم حاله الصحّية.

رمّموه، جمّلوه، أبقوا ضمادة على خدّه الأيمن، نقلوه إلى البيت. إلى غرفة الضيوف بناءً على طلبه، تخفيفاً للعبء عن زوجته كما قال في البداية. جاؤوه بممرّضة تلازمه في نقاهته الطويلة وكانت فلور تحمل إليه سابين ونيكول مرتّين في اليوم فيقبّل أقدامهما ويلاعبهما حتى تملأ ضحكاتهما الغرفة. يزوره الأصدقاء، يراجعون معاً الأحداث، يتكهّنون بالموقف الأميركي، ينعون تراجع الودائع المصرفية وأسعار العقارات، يرصدون التصريحات الإيرانية ويتوقّعون بضعة "أشهر صعبة" تنفرج الأحوال من بعدها. وقد زاره في غرفته رجل ضخم ينادونه "أبو حسين"، يخبر نكاتاً ويسارع قبل غيره إلى الضحك منها عالياً. اهتمّ عبد الله لزيارته ورافقه المعلم أنيس إلى البيت كما تمّ الاتّصال بلطفي والد عبد الله الذي يعرفه ايضاً، للمشاركة في استقباله وتبادل الأحاديث معه.

تجالسه بيرسيفون، تقرأ عليه فصلاً من رواية "الأضاليا السوداء" فيقطع قراءاتها دويّ رهيب. تخرج إلى الشرفة، سبقها عمّال المطبعة ينظرون إلى غيمة سوداء تكوّنت إلى الجهة الشرقية على بعد شارعين أو ثلاثة. بعد نصف ساعة ينقل التلفزيون مباشرة من موقع الانفجار كيف كان الصحافي المعروف الذي تلقّى تهديدات لا تحصى بالقتل إذا استمرّ في كتابة افتتاحيته الأسبوعية يهمّ بإدارة محرّك سيّارته "الفولكسفاغن" لما انفجرت عبوة مزروعة في أسفلها مزّقته وقتلت البقّال الواقف تحت قرط الموز إلى الجهة المقابلة من الشارع.

انتهت مرحلة العناية الخاصّة فأكّد الطبيب الجرّاح، بشيء من نشوة الانتصار، أنّ مريضه استعاد قدراته الجسدية والعقلية. غادرت الممرضة وفضّل عبد الله البقاء في غرفة الضيوف وكان هذا أساس الشائعة التي تقول إنّ عبد الله كرم أغرم بممرّضته لأن زوجته لم تُعْنَ به كما يجب في محنته، فهي كانت مأخوذة كما يقولون بالعناية بطفلتيها والعمل على تفادي إرضاعهما من ثدييها.

الحقيقة أنّ دخولها غرفة الضيوف حيث يعتصم حتى أثناء النهار صار نادراً، فتوقفت بعد أسابيع عن دفع بابها، وكانت ترسل فلور لإبلاغه بأمور ضرورية كزيارات من أقارب أو أصدقاء وبدعوات إلى مناسبات لا مفرّ منها أو بضرورة إرسال اعتذار عن تلبيتها. ويوم أنهى المهندسان اللذان حضرا خصيصاً من ألمانيا تركيب آلة الطباعة الرقمية الحديثة، قرّر عبد الله كرم النهوض من الفراش والنزول إلى الطابق السفلي وطلب من بيرسيفون مرافقته إلى استقبال نظّمه المعلم أنيس فلبّت طلبه.

ظهر على فريق موظّفيه بحضور والده، للمرة الأولى بعد الحادثة، شاحباً والجرح في وجهه لا يخفى، مرتدياً ثوب الرهبان البنّي المربوط بحبل على الخصر وغطاء الرأس المرميّ إلى الخلف وبالحذاء الصندل المفتوح من دون جوارب. ففي ذروة الخوف على حياته، عندما كان الدكتور غصن، خرّيج جامعة ماكغيل الكندية والمعالج الشخصي للملك السعودي ولعدد كبير من مشايخ وأمراء الخليج العربي والمشهود له بفتوحات في جراحة الأعصاب وإيجاد علاج نهائي لداء الصرع يقف حائراً أمام أهله وزوجته ويولّد لديهم

الانطباع بأنه غير ملمّ تماماً بما حدث مع عبد الله ويصارحهم على الطريقة الأميركية بنسبة مئوية لبقائه على قيد الحياة، في هذه البلبلة زارتهم قريبة أمّه، الأخت برناديت الطفل يسوع، رئيسة دير راهبات العائلة المقدّسة في بيروت، وقدّمت لهم عرضاً لم تكن زوجة لطفي كرم المارونية المؤمنة والمواظبة على كلّ فروض التقوى من صغرها قادرة على رفضه في تلك اللحظة، أي أن تنذر إذا وقف ابنها الوحيد مجدّداً على رجليه وعاد إلى حياته الطبيعية، أن يلبس طوال شهر ثوب القدّيس الناسك مار أنطونيوس الكبير.

استقبلوه بالتصفيق، وزّعوا الحلوى المثلّجة والبقلاوة التي حملها أحد الموظّفين معه صباحاً من مدينة طرابلس، ألقى أحدهم شعراً زجلياً وزغردت إحدى عاملات التنظيف طويلاً متمنّية للخواجه عبد الله الصحّة والعمر الطويل، واختلط ترحيبهم به بفرحتهم بنجاح أول "بروفة" طباعية بالآلة الجديدة، ففتح المسؤول عن المحفوظات زجاجة شمبانيا فاخرة وعلّقت إحدى مصمّمات الصفحات أيقونة سيّدة البحار على حديد الهايدلبرغ، أحدث الطابعات الرقمية في الشرق الأوسط، تعمل بخمسة ألوان، طولها ثلاثة عشر متراً وقياسها الطباعي ٤٧،٢٤ X ٦٣،٧٨ إنشاً مجهزة بسلالم حديدية وبشاشات لمتابعة تفاصيل عملها وضبط كافة معاييرها.

دُهش المعلّم أنيس لضخامتها وبعد ما سمعه قبل وصولها من ثناء على نتائجها الطباعية الاستثنائية صار لا يبتعد عنها، تكفّل بحراستها بنفسه، يتأمّل ما يخرج من جوفها، يتفحّص الألوان، ينظّفها من أصغر لوثة، يلصق أذنه بها مصغياً إلى أصواتها، يحاول عبثاً أن يقارن بين

الظاهر من وظائفها وما خبره في الآلات السابقة ويحلو له في المساء عند وصفها لزوجته في البيت وقت العشاء أن يقول بلهجة مرحة إنّ جنيّاً نصب لنفسه خيمة في داخلها.

١٤

في آخر النهار حمل فريد أبو شَعر الكتاب الثمين الذي نزل على مكتبه، كأنّ ملاكاً طار بمسوّدته وحطّ بها مطبوعة، حمله إلى البيت وهو لا يتوقف عن تقليب صفحاته والتأكّد من كمال أجزائه. لا يعرف من يسأل عمّا هو فيه؟ لو روى ما حدث له فلن يجد من يصدّقه، وبات يعرف أن خبثاء في المطبعة يضحكون خلف ظهره. يريد نسخة أخرى، واحدة على الأقلّ يهديها لأمه كي تقرأ فيها على مهل في غيابه، وتدرك مقاصده بحدسها وهي جالسة على الشرفة كما يجدها عندما يعود إلى البيت باكراً، رأسها في الظلّ وباقي جسمها في الشمس، تشتغل كنزة صوف لأحد أحفادها الصغار مع اقتراب فصل الشتاء. لن تهتمّ لأمره الآن فهي مشغولة بأعمال لا تنتهي في المطبخ. أغلق وراءه باب غرفة نومه وراح يقرأ كلماته كأنّه لا يعرفها في حلّتها الجديدة، يجوّدها بصوت مسموع ويطرب لها، تولّد الجمل إيحاءات لم ترد في ذهنه من قبل. وفجأة خطر له أنّ ما يحمله بين يديه بعناية ليس ربما سوى صفحات مكتوبة بخطّ اليد لذا لم تظهر منه سوى هذه النسخة اليتيمة. قال في نفسه إنّ كلّ ما

يحدث له منذ أيّام هو عمل خطّاط المطبعة الذي كان فخوراً قبل أيّام باختياره لتزيين مسجد محمّد الأمين بالآيات القرآنية، تذكّر كيف توجّه إلى مكتبه وفي وجهه خبر:

- سألتني عن أسماء اليونانيين، هناك بنات باسم أفروديت ومينرفا وأثينا وأبولونيا!

توسّع في الأسماء الإيطالية والتركية والفرنسية ليرسل إليه نظرة ماكرة ويقول:

- لكن بيرسيفون هو أجمل الأسماء على الإطلاق!

راح فريد يلامس أطراف أوراق الكتاب الحادّة، يلاطف صفحاته، يمتحن لمعانها في ضوء المصباح الكهربائي، حتى أدرك التشابه التام بين حروفها المتكرّرة خصوصاً حرفَي القاف واللام ألف، فأيقن أنه ما من خطّاط قادر على نسخها هكذا بالتمام وأنّها لا بدّ خارجة من آلة طباعة. عاد في شكوكه إلى نقطة البداية وانتظر أن تظهر باقي النسخ من حيث لا يتوقّعها.

دسّ الكتاب في سترته واستقلّ سيّارة أجرة إلى "لوس لاتينوس"، على حدود الحيّ الأرمني. يكون الملهى هادئاً بعد نهاية أسبوع محمومة.

صاحبه أيوب، ابن القرية البقاعية نفسها، رفيق الشباب الأول والصيف فيها، كان يمضي شهراً واحداً في "الجبل" لدى جدّته وتبتلعه المدينة في أشهر السنة الباقية. خبير من صباه بإغواء النساء، بدأ إنجازاته من سنّ الخامسة عشرة، يرويها لرفاق مشدوهين لا يعرفون المدينة وأحوالها فيصدّقونه ويحلمون. يصنّف النساء

انطلاقاً من الكاحل فإذا كان دقيقاً وعظمه بارزاً تكون لصاحبته قابلية عالية للجنس، أمّا الواقفة على كاحل مستدير سمين فتكون متعفّفة يصعب "الوصول" إليها، ولما خالفه فريد أجابه أيّوب بحدّة أنّ لكلٍّ اختصاصه.

- لم أجادلك يوماً في قضايا الأدب والكتابة فاسمح لي بشؤون النساء!

ودّع القرية في سنّ الخامسة والعشرين على طريقته. ظهر قبيل غروب الشمس يقود سيارة كورفيت بمقعدين، حمراء اللون مكشوفة، والى جانبه فتاة لم يعرف عمرها ولا مقدار جمالها بسبب النظارة السوداء الكبيرة التي كانت تخفي قسماً من وجهها. اصطحبها في رحلة إلى قلعة بعلبك وفي طريق العودة عرّج بها على البلدة ودار في طرقاتها قبل أن يختفي نهائياً هذه المرّة، شتاءً وصيفاً.

ورث في بيروت نزل والده الذي كان مقصوداً في البداية من بعض أهل الشام من غير الميسورين، كما كان يرتاده أبناء القرى البقاعية المضطرّون إلى مبيت ليلة في العاصمة. اكتسب المكان سمعة مشبوهة عندما نضب المسافرون إلى بيروت المشتعلة بالمواجهات العسكرية وشوهد فيه مقاتلون لا يتخلّون عن أسلحتهم يصعدون إلى الغرف برفقة نساء رخيصات. وصار الرجل الجالس في ردهة الاستقبال عند عودة الهدوء أو حتى في خلال جولات الحرب يبادر الزبائن ويعرض عليهم فتيات بأسعار مقبولة.

التقاه فريد صدفة بعد سنوات وما كان فريد ليعرفه لو لم يكلّمه أيوب ويعرّفه بنفسه. لفته سوء هندامه وصلعه المبكر، وفقدت تلك

النظرات التي كان يسحر بها النساء اتّقادها. فتح ملهى في جوار فندق والده، سمّاه "لوس لاتينوس" باسم نادٍ أعجبه في مدينة برشلونة. نصح فريد بالحضور يوم الاثنين، يكون المكان خالياً تقريباً وفتيات الخدمة يخفضن أسعارهن. نسي فريد الدعوة، فهو لم يتخيّل نفسه يوماً يرتاد أمكنة كهذا حتى قرأ قصيدة مترجمة عن الفارسية يقول فيها الشاعر:

لم تسحرني إلّا زهرة الثلج الأرجوانيّة
ولم أعثر على الحبّ إلّا عند بائعات الهوى

فتشجّع وزار ملهى أيوب الذي صار يدلّه على المتعلّمات من بين الفتيات وخصوصاً واحدة شاهدها تقرأ كتاباً بلغتها بين زبون وآخر فسألها عن عنوانه فقالت "الإخوة كارامازوف". صار فريد يشعر بالحياء كلما التقاها فيبتسم لها في شيء من تواطؤ بينهما يتخطّى ما أرغمها على الحضور إلى هذه البلاد وما بدأ يستهويه في هذا المكان. لم تكن الفتاة تعي اختلافها المفترض عن زميلاتها في المهنة اللواتي لم يعتدن القراءة فكانت تتصرّف كما يتطلب منها عملها ولا تعير كبير اهتمام لفريد أبو شَعر الذي كان يجلس إلى طاولة منفردة، لا يقارب أحداً، فوعده أيّوب بفتيات جديدات جميلات، عشر سيستوردهن، فلا بدّ من أن يعجب بإحداهنّ.

صار فريد يلقاه مرّة في الأسبوع، يتبادلان أخبار ما طرأ على فصول حياتهما منذ افترقا، فأخبره أيّوب أنّه أغرم بإحدى فتياته وكاد يتزوّجها لكنّها رفضت وعادت إلى بلادها. يعرف كلّ شيء عن هذا

العالم ويقول إنّ كثيرين في بيروت يطاردون أولئك الفتيات، ولما أبلغه فريد أنه صار يعمل في مطبعة "كرم إخوان" سارع أيّوب إلى التأكيد أن صاحبها مواظب ينتقل "من بنت إلى بنت"، ولما اعترض فريد بأن الرجل ليس في أفضل حال، أجابه أيّوب أنه يعرفه ويعرف أنّه تعرّض لإصابة خطرة، لكنّه اتّهم فريد بأنه يعيش خارج الواقع ولا يعرف ما يدور حوله. فريد في الأدب وأيّوب في النساء.

- أنت ما تزال في القرية يا فريد، فوق!

وفى أيّوب بوعده وعرّفه إلى الفتاة الواصلة حديثاً فتعوّد أبو شَعر رفقتها وصارا يجلسان على كرسي البار العالي صامتَين، لا تحكي ولا تقرأ ولا تكتب سوى لغتها الأم. يفتح لها زجاجة نبيذ لبناني أبيض سعرها مقبول، وعندما لا يكون هناك زبون يفتح لها زجاجة ويسكي أسود. انتظرها حتى الإقفال كي ترافقه إلى فندق أيّوب. أمضى فريد الوقت يضمّها ويداعب شعرها، لم يحاول تقبيلها بل أمسك يديها وراح يلقّنها العربية، "القلب عصفور"، عنَبي أحمر" فتكرّر من ورائه وتضمّه بدورها ثمّ رفضت المال الذي عرضه عليها وهما يفترقان.

في اللقاء التالي جاءته بسؤال علّمها إيّاه أيوب:

- هل أنت كاتب؟

ابتسمت في وجهه ابتسامة عذبة وأتبعتها بجملة حفظتها غيباً من تمارينها على الإنكليزية:

- اكتب لي قصيدة حبّ!

وفي ذلك المساء الذي نزل فيه من سيّارة الأجرة حاملاً نسخة كتابه ودخل إلى "لوس لاتينوس" وجد الشاب الذي يدّعي الإلمام

بالقواعد العربية ويرفرف بعينيه غامزاً يشرب القهوة وحيداً فجالسه.

- هذا الكتاب للتصحيح أيضاً؟

كان سؤاله حذراً.

- لا، هذا الكتاب لا يحتاج لأيّ تصحيح!

كان مزاج فريد مرحاً فأجاب جليسه عن أسئلة حول ما يتقاضاه من أجر ودوام عمله في المطبعة، وهما يتابعان ما يمرّ على شاشة التلفاز من كليبات غنائية حتى خرجت لونا من خلف البار، من جهة المطبخ، فهتف بها فريد من بعيد ملوّحاً بكتابه المستعاد وبإنكليزية متأنّية:

- لونا! عندي لك قصيدة...

ضحكت عيناها فجلس إلى جانبها يرافق الأغنية التي تملأ موسيقاها المكان ثم أكمل بالنبرة الحماسية نفسها متوجّهاً إلى خادم البار:

- وسيم، كأسَي جاك دانيلز!

النبيذ الأبيض اللبناني لن يفي الليلة بالغرض.

١٥

بعد ظهر اليوم التالي للسهرة التي أسرف فيها فريد في احتساء الويسكي الأميركي في ملهى أيوب، نزلت بيرسيفون إلى المطبعة ووقفت في مدخل مكتب زوجها. تلبس سروالاً من الجينز الضيّق وقميصاً من الكتّان الأبيض. تارة تتأكّد من حسن تناسق أظافر يديها وتارة أخرى تثبّت عينيها في عمق ردهة الطباعة حيث تتمدّد آلة الهايدلبرغ العملاقة، كأنها تتأمّل أفقاً سماوياً بعيداً.

قالوا فيها إنها كسرت القاعدة فجمعت الجمال والحظّ. تألّقت باكراً، في حفل "المبتدئات" الذي جرى في "صالة السفراء" بالرغم من الانفجارات التي كان يمكن رؤية لمعاتها ليلة السبت تلك في سماء العاصمة من شرفة كازينو لبنان. كان الحفل رائعاً واختارها الأمير إيمانويل فيليبير دو سافوا دون غيرها من الفتيات ليرقص معها الفالس ويحادثها طويلاً.

صارت نجمة صديقاتها، واستحقت لقب شارون ستون الذي رمتها به مدرّسة الرياضيات في مدرسة الانترناشيونال كوليدج يوم رأتها تجلس لامبالية على مقعد الصفّ. قيل عنها كل ما يقال في

فتاة يثير جمالها الغيرة، إنها تحبّ الفتيات إذا مرّ وقت لم تشاهد فيه بصحبة شاب، إنها تدمن المخدّرات إذا سهرت وشربت الجنّ بعصير الليمون الحامض تمثّلاً بسلالة المحققين الخصوصيين، أبطال روايات ريموند تشاندلر التي بدأت تغرم بها، وإنها تلبّي في فصل الصيف دعوة في مسبح السان جورج لنزهة بحرية في مركب سريع ينطلق جنوباً إلى قبالة مدينة صور فتستسلم مغمضة عينيها للفح الريح ورذاذ الماء فتنسى مرافقها الذي يقود المركب ويريد هذه الرحلة مقدّمة لحميمية أكثر صراحة، أو إنها ترقص حتى الثمالة كما في سهرة السبت الشهيرة، عندما حملها نجم فريق "الهومنتمن" لكرة السلّة المفتول العضلات على ذراعيه لحظة انفتاح سقف علبة الليل لكنّ التدافع أوقعها فلوَت ذراعها وأضحكت حاسداتها.

أمّها حذّرتها منذ بلوغها الرابعة عشرة من عمرها.

– أخفي جمالك يا بيرسو، عندما كنتِ طفلة لم أكن أعرّضك للعيون، رفضتُ أن يصوّروكِ في إعلان عن حليب للأطفال، لا تُظهري عقودك وخواتمك، لا تنخدعي بالواجهات المرتّبة، انظري حولك جيّداً، بيروت كلها واجهات مرتّبة.

أمّها التي أورثتها جمالها جاءت إلى بيروت وهي لا تعرف كلمة عربيّة واحدة، أغرمت بالشاب اللبناني وكيل التأمين على السفن الذي فضّل والدها، صاحب مكتب الشحن البحري، التعامل معه بدل شركات التأمين اليونانية. أمّها التى أطلق والدها اسمها على باخرته فقال الظرفاء إن جورج ملكي "أمّن" على تيودورا سيرافيديس قبل أن يتزوّجها. أمّها التي كانت عندما تدبّ الفرحة في البيت إذ ترسو

"سفينتها" في بيروت، ترسل بيرسيفون وشقيقها سليم إلى المرفأ بالثياب البحرية، يصعدان إلى سطحها، يتسلقان السلالم الحديدية، يقبّلهما القبطان ويتبادل معهما بعض عبارات التودّد باليونانية قبل أن يتسابقا على رفع العلم فوق السارية وإعادة إنزاله كأنهما يعبثان في فناء منزلهما الصيفي.

ورث سليم التأمين البحري وكذّب مخاوف والده حيال جدارته بتحمّل تبعات العمل بعدما كان سلوكه ومعشره في شبابه ينبئ بفوضى عارمة. وسّع نطاق عمله وخاض في التأمين على الحروب وكانت أولى صفقاته توقيع عقد على قوافل التموين للقوات الأميركية في العراق، واستمرّ بعد انهيار الدولة هناك وفي سوريا يقبل التأمين على الشاحنات من كلّ صنف. نسج شبكة من العلاقات حوّلته مرجعاً في تجاوز المخاطر، يدفع عمولة لضابط المخابرات عند آخر حاجز للجيش السوري فور الخروج من دمشق باتجاه الجنوب ومثلها للمعارضة المسلّحة في نواحي درعا وأكثر منها لأحد شيوخ العشائر الذي يواكب "البضاعة" فور خروجها من الأردن ليعبر بها مع أبنائه بكامل أسلحتهم محافظة الأنبار بطولها وصولاً إلى أبواب بغداد. هكذا لم يجد آل كرم أفضل من سليم ملكي للتأمين على رحلة الهايدلبرغ البحرية من هامبورغ إلى مرفأ بيروت والتوقيع معه على عقد تأمين عليها وسّعوه لاحقاً ليشمل المطبعة بأكملها وبيت السكن فوقها مع التعويض عن السرقة والتخريب والحريق والأضرار الناتجة من الأعمال العسكرية.

أمّا صاحبة الحظّ والجمال فنصف بيروت يعرف أنها وزوجها

منفصلان ويُكمل النمّامون على هواهم، ينسبون له ما يشاؤون وينسبون لها زوراً وحبّاً بالتساوي في الخيانة، عشيقاً يسمّونه بالاسم فتنفتح سيرة آل كرم ومطبعتهم، أيّام عزّها وخلافات ورثتها وسوء إدارتها ومصاعبها الغامضة ومع ذلك عدم توقفها عن العمل حتى ليلاً، ومظاهر ازدهارها المستجدّ في العامين الأخيرين. شؤون لا تعني الكثير لبيرسيفون التي تطمئن من دون اقتناع والدتها عندما تهاتفها لتعرف أسباب وعواقب دخول الشرطة إلى المطبعة.

تنزل إلى مكتب عبد الله، تشرد في عيون العاملين الذين يميلون بنظرهم حياءً عن زوجة ربّ عملهم. باستثناء هذا الجديد الذي تملك سرّه وهو غافل، تتابعه في الصباح قادماً وعلى وجهه أمارات من يحمل همّ العالم على كتفَيه ولا يتذمّر. يحافظ على استقامة جسمه عندما يصعد من الشارع في اتّجاه المطبعة، يرمي نظرة إلى نافذتها وينزع عند وصوله إلى باحة المدخل غصناً صغيراً يكسره بين أصابعه أو يضعه في فمه، يُغرق يده في حوش الأزهار فيرجع بقبضة من زهر اللافاند يعطّر بها جيب سترته. يتأخر في دخول المطبعة فيتحرّش بالهررة أو يلقي من بين أغصان أشجار الجاكارندا نظرة على جبل صنّين كمن يأخذ روحاً من موطنه الأصلي قبل مواجهة واجبات يومه.

مرتّ وسط الردهة بعد الظهر فرأت عينيه من بعيد تلمعان في أثرها، وقفت في باب المكتب، وقفت كما يحلو لها، تتابعه وهو يحاول البدء بأعمال التصحيح بعد الغداء. نادراً ما يأكل في أحد مطاعم الشارع، يفضّل مغالبة جوعه ليتمتّع بطبخات أمّه في البيت،

يفتح ملفّاً أمامه، يغلقه ليفتح غيره، يلتفت في جميع الاتّجاهات ولا يهدأ، لن يصحّح ما دامت واقفة هناك. نهض عن كرسيّه وتوجّه إلى مكتب عبد الله كرم، مرّ إلى جانبها فهمست له بالفرنسية:

- مسيو كرم ليس هنا!

لسعته الهمسة، ارتبك وأجاب:

- أحتاج إليه في أمر هام...

انتظر قليلاً.

اتّجهت إلى المكتب، جلست مكان زوجها وحاولت الاتّصال هاتفياً به. بدأت بهاتفه المحمول فوجدته مقفلاً، ثمّ اتصلت بالنادي حيث يتردّد بعد الظهر على خطى والده فطالبها المجيب بتكرار اسمه قبل أن يؤكد لها بعد صمت قصير أنه لم يحضر اليوم. اثنان من أصدقائه أجابا بأنهما لا يعرفان مكان وجوده. كانت تتكلم على الهاتف وتطلق في وجه فريد ابتسامة يصعب عليه تفسيرها فيما كان ينتظر، متحمّساً لوجوده بقربها، لا يقول كلاماً يخشى أن يخرّب به ما بدأ يحاك بينهما، حتى فقدت الأمل في العثور على عبد الله فتوجّهت إلى الخارج وهمست له من جديد:

- لا تخبره شيئاً، فلا دخل له في هذه الأمور!

حاولت إثارة مخيّلته لكنّه لم يفهم ما قالته بالفرنسية وبلهجتها السريعة، أخذته فقط نبرة صوتها الدافئة. راقبها كيف تسير وعيناها في الأرض تتفادى النظر إلى الموظفين كي لا تُضطرّ إلى تحيّتهم أو ردّ سلامهم.

عندما عاد عبد الله كرم إلى البيت حوالى السابعة مساءً سألته

بيرسيفون أين أمضى بعد الظهر، متذرّعة بقلقها عليه جرّاء الأخبار عن قطع الطرقات وحصول عمليات خطف للعابرين من أجل مبادلتهم مع أقارب اختُطفوا في سوريا بالقرب من مدينة حلب، فابتسم شاكراً اهتمامها وقال إنه على جاري عادته لعب الورق في النادي، فابتسمت بدورها...

١٦

لم يرث فريد عن والده فنّ إغواء النساء. كان حليم أبو شَعر حلّاقاً رجاليّاً وسيماً تقول زوجته المتسامحة معه، الفخورة به حتى بعد موته، إنه لو أسعفه العمر لصادق أو عاشر جميع نساء شارع الصليب الأحمر. تحكي قصصه بخفّة لا ترافق عموماً الحديث عن الراحلين، تعرف تفاصيل حياته الخاصّة التي كان يظنّ أنّه يخفيها عنها بإتقان كأنها كانت تكلّف بملاحقته مخبراً مدفوع الأجر. لكن في غفلة منه ومنها، ساقه القدر في سيّارته الرينو، إلى طريق المطار حيث صودف ظهور القائد نصير المستضعفين على شاشات التلفزة وكان لا يزال في الصلاة الافتتاحية "أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، الحمد لله ربّ العالمين والصلاة والسلام على سيدنا ونبينا خاتم النبيين أبي القاسم محمّد بن عبد الله..." عندما انهمر رصاص الابتهاج من كلّ صوب فأصيب الحلّاق في رأسه ونزف لنصف ساعة قبل وصوله إلى المستشفى بينما كان زئير الخطيب ما يزال مسموعاً من راديو سيّارته.

مات محاطاً بزوجته وأولاده الذين كبروا واتّكلوا على أنفسهم

في أشغال مبكرة، كانوا قد غادروا القرية وليس لهم فيها سوى بيت صغير متواضع أجمل ما فيه شرفته، يعودون إليه فرادى لأن غرفتيه الوحيدتين ما عادتا تتسعان للأولاد والأحفاد المتكاثرين. يعودون في فصل الصيف فيضجر الصغار ويتذمّرون لغياب رفاق يلاعبونهم فيقفلون عائدين إلى بيروت. ثلاثة شبّان أصغرهم ومدلّل أمّه، فريد. يحبّ الكبيران النساء ومغامرات النساء وهما من صنف الصائدين المنفردين لا يفصحان لأحد عن غزواتهما حتى حصل أن التقى الأشقّاء الثلاثة في صدفة فريدة، في عشاء في أحد المطاعم المعروف بمازاته المتنوّعة. دار العرق في الرؤوس ولم تُرتشف كأس قبل أن تُضرب بكأسي النديمين الآخرين فانفلتت الألسن وراح الشقيقان يقارنان فتوحاتهما وقدراتهما الجنسية. وتأكيداً لصدقيّتهما ولمراهقتهما المتأخّرة لا يذكران إلّا الحرف الأوّل من أسماء النساء، ثم حاول البكر الاتّصال هاتفياً بإحداهنّ لإسماع صوتها لشقيقيه لكنها لسوء حظّه لم تردّ على المكالمة. لم يتركا دوراً لفريد الذي أصغى لا يصدّق ما يكشفه أخواه اللذان تسابقا وقد ارتويا شراباً على من يدفع الحساب، وفي صبيحة اليوم التالي شعرا بالحياء وعادا إلى كتمان رياضتهما النسائية المفضّلة.

زوجة البكر تفتّش ثيابه كلّ يوم، تنصت إذا أطال الكلام على الهاتف وتحاول أن تتبعه إذا خرج إلى الشرفة ليجيب، كلّ ذلك من دون نتيجة. زوجة الثاني أقرب إلى حماتها لجهة الاستسلام لواقع الحال لكنها قادرة على أن تنفجر وتهدّد بمغادرة المنزل، وهذا ما حصل مرّة واحدة عندما وجدت في جيب زوجها علبة من الواقي

الذكري راح يدّعي جهله بوجهة استعمالها، فأمضت يومين عند حماتها لكنّ اتّصالات زوجها بأن الصغيرَين يطالبان بها وأن الصبيّ الذي "نظف" قبل أسابيع عاد يقضي حاجته في ثيابه فرجعت ملهوفة ناسية مغامرات زوجها.

لم يصل من "الأدب" إلى شقيقَي فريد ما يستحقّ الذكر فاكتفيا بالشهادة الثانوية، وفي الثقافة العامة قلّبا صفحات كتاب أو كتابين لمارون عبود أو لميخائيل نعيمة لم يبق منها أثر في ذاكرتهما. كانت التركة الأدبية المفترض أنّها من ميراث آل أبو شَعر من نصيبه وحده. مع أنه لم يختلط بهم، قرأ في مؤلفاتهم كأيّ أحد، ومثل كلّ عبء عائلي كان يسعى إلى عدم تكرار ما برعوا فيه من أنواع وأساليب.

فمن بين أدباء آل أبو شَعر الكبار التقى فريد واحداً فقط، الأخير من هذا الصنف. كان قد بلغ العاشرة من العمر، بعد وفاة والده بوقت قصير، زاره بصحبة أمّه في يوم ماطر. أيقظته باكراً، غسلته بعناية، ألبسته ثوب يوم الأحد والحذاء الشتوي ذا الثقوب العديدة والشريط الطويل. ارتدت معطفها الأحمر الوحيد وعلّقت عليه البروش المذهّبة على صورة هرّ وكانت من وقت لآخر، في سيارتَي الأجرة اللتين استقلّاهما على التوالي كي يصلا إلى شارع بلسّ في جوار الجامعة الأميركية، ترمي ابنها بنظرة هلع يائسة، ترتّب ياقته أو تمسّد بيدها خصلة متمرّدة من شعره.

دخلا بناية هادئة فسحتها ودرجها مفروشان بالسجّاد، لا يُسمع فيها سوى صوت إقلاع المصعد القديم وارتطامه الصاخب عند توقفه في أحد الطوابق. قالت الخادمة بصوت هامس وهي ترافقهما

إلى غرفة الجلوس المعتمة إنها لن تقطع على "الأستاذ" مطالعته ولكن لن يطول به المكوث في المكتبة فهي تعرف مواقيته. لم تتخلّ أمّه عن معطفها برغم الجوّ الدافئ، أجلست فريد إلى جانبها وراحت تكلّمه همساً، هي أيضاً ترتجف وتجذبه نحوها كلما ابتعد قليلاً كأنّها لا تريد أن يأخذا معاً متّسعاً لأكثر من شخص واحد على الكنبة. خرج إليهما هذا الرجل الذي قيل في وصفه في إحدى المقالات الصحافية إنه "معتدل القامة، ممتلئ الأعضاء، أسمر اللون، وقور، شهم كامل متواضع، متأنٍّ في حديثه، قليل الضحك، عفيف اللسان، سريع الفهم، قويّ الذاكرة، جليل أنيس، إذا تحدّث أخذ بمجامع القلوب". كان يرتدي عباءة مقصّبة وعلى رأسه قلنسوة خفيفة مشغولة بالخيط الأبيض. دفعته أمّه إلى النهوض معها للترحيب به. وضع من لقّب "العلّامة" يوسف أبو شَعر يداً على رأس فريد طوال الوقت الذي كان يتكلم فيه مع أمّه واليد الأخرى في يدها مطمئناً على أحوالها وأحوال أبنائها، ثمّ طلب منه مرافقته إلى المكتبة. بقيت الأم واقفة تنظر إلى رجلها الصغير يمسك بيد قريبه الذي أدخله قبله وردّ الباب وراءهما. وبالرغم من الطقس الماطر كان شعاع شمس وهّاج يتسرّب من بين ستائر النافذة العالية فيُضيء على رفوف خزانات الكتب عناوين مذهّبة حُفرت على الأغلفة فغشي نورها بصر فريد الصغير فور دخوله ومنعه للوهلة الأولى من رؤية صفوف الكتب السوداء والحمراء الواصلة إلى السقف والتي راح يتخيل من يومها أنّ في داخل كلّ منها أقزاماً ملوّنين نائمين وجنّيات يتراقصن.

لم تطل الخَلوة بينهما إذ بعد ربع ساعة فتح العلّامة الباب ونادى

أمّ فريد التي طلبت من ابنها أن يجلس على الكنبة وينتظرها. يتذكّر الصبيّ أن مكوثها في الغرفة كان طويلاً وخرجت منها حمراء الوجنتين وخرج وراءها يوسف وبيده مغلف كان يختمه بتمرير لسانه على طرفه، سلّمها إيّاه وودّعهما إلى الباب وهو يبتسم بمحبّة. سأل الصغير أمّه عن محتوى المغلّف فتجاهلت فأصرّ فصمتت فعاود الكرة فأرجأت الردّ.

جاء دور أمّه لتسأله في سيّارة الأجرة عمّا حدث بينهما، فلم يبادلها الكتمان وأخبرها أنه فور دخولهما المكتبة راح يوسف أبو شَعر يبحث عن كتاب ويردّد بيت الشعر:

إنّي ذكرتكِ بالزهراء مشتاقا
والأفق طلقٌ ومرأى الأرض قد راقا

فأكمل فريد قائلاً:

وللنسيم اعتلالٌ في أصائله
كأنّه رَقَّ لي فاعتلّ إشفاقا

وحكى لها كيف دُهش به وتوقّف عن البحث عن الكتاب وسأله إن كان يعرف معنى اعتلال النسيم وسبب الإشفاق فأعطاه جواباً صحيحاً فراح ينظر اليه غير مصدّق. غمرته أمّه وقبّلته على جبينه وهي تهمس غير قادرة على إخفاء افتخارها بابنها وكأنه علامة على نجاح تربيتها له:

– أنت مثل والدك سوف تحبّك النساء!

لكنّها لم تخبره أنّ المال الذي في المغلف أعطاها إيّاه يوسف أبو شَعر لدفع أقساط دراسته وأنها المرة الثانية التي يعطيها فيها مالاً بعد وفاة زوجها، لكنه رغب هذه المرة في التعرّف إلى الصبيّ، وإذ تأكد من نبوغه واظب حتى وفاته على مساعدته. وعندما تُوفّي كان فريد قد وصل إلى الصفوف النهائية فنظم فيه قصيدة رثاء ألقاها في جنازته التي حضرها رئيس الجامعة الأميركية وعدد من أساتذتها، وهناك في "كنيسة المسيح المعمدانية"، أدرك ابن حليم أبو شَعر أن نسيبه المزعوم كان إنجيلياً وليس مارونياً مثلهم.

١٧

الحقيقة أنّ عبد الحميد الحلواني لم يكن سهل المراس وقد أمضى حياته متنقّلاً بين المطابع، ويوم صُرف من المطبعة الأميركية طلب من مديرها القسّ تيموتي هاريس السماح له بأخذ "خصوصياته" معه. حمل بيده كيساً من الخام الأبيض جمع فيه خمسة طواقم كاملة من رؤوس الحروف الاستهلالِية المزركشة من الألف إلى الياء ومثلها نماذج بخطوط وزخارف مختلفة من البسملة ورسوم تزيينية لهوامش الصفحات. استأجر حمّالاً حزم على ظهره ثلاث علب خشبية ثقيلة ومشى أمامه إلى البيت حيث ارتأت زوجته أن تسدّ بها فراغاً في المطبخ إلى يمين المجلى وراحت تصفّ فوقها مراطبين المربّيات والبهار والملح وشجيرات الصبّير القزمة المزروعة في أوعية الفخّار. دفع عبد الحميد برِجله الكيس تحت سرير النوم بعيداً عن الأنظار ولم يكترث أحد طوال عقود لمعرفة ما في داخل هذه العلب، كذلك لم ينقلها معه عبد الحميد إلى مطبعة اليسوعيين الذين كانوا يسارعون إلى تشغيله عند كلّ خلاف له مع فؤاد كرم.

لم يمهله قلبه طويلاً وتُوفّي جالساً لم ينزع الطربوش عن رأسه

بعد نوبة سعال عنيف فيما كان يصفّ بيده كتاب القدّاس في طبعته الجديدة، يقسم الصفحة نصفين، السرياني باللون الأحمر إلى اليمين والترجمة العربية بالأسود إلى اليسار، بطلب من مطران بيروت للموارنة أغوسطينوس مبارك. ورث مصطفى الحلواني المأجور وبقيت العلب المقفلة جزءاً من أثاث المطبخ العائلي إلى أن تذكّر وجودها أنيس الحفيد، بعد ما لا يقلّ عن ثمانين عاماً، عندما حوّل آل كرم القبو الأخير في مبنى اسطبلات الخيل متحفاً لمعدّات المهنة التي توارثوها. حمّلها كذكرى من جدّه في سيّارة تاكسي ليضمّها إلى آلات الطباعة والعدّة التقليدية في المتحف حيث ظلّت موضّبة سنوات إلى أن أوقع أحد العمّال علبة منها عن طريق الخطأ فانفتحت وتبعثر محتواها على البلاط. أمضى أنيس يومين كاملين يكتشف محتواها ويتخيّل جنون جدّه عبد الحميد الذي صنع باكراً ما يئس من صنعه الكثيرون حتّى في عصر لاحق. لقد حفر وصبّ طاقماً كاملاً بكلّ زينته ولوازمه من حروف الثلث، ملك الخطوط العربية وروعتها من دون منازع.

رتّبها أنيس ونسيها من جديد. لم يتذكّرها إلّا يوم سعت وراءه فلور في المطبعة تناديه، مسيو أنيس، مشيرة بيدها إلى الطابق العلوي. كانت السيدة بيرسيفون تنتظره جالسة بين كتبها المفتوحة النائمة على وجوهها حاملة بيدها الدفتر الأحمر تقلّب صفحاته من دون تركيز ومن دون توقّف. بادرته بلا مقدمات:

– هل تطبع لي من هذا الكتاب نسخة واحدة؟

يعرف المعلم أنيس أنّها تقرأ العربية بصعوبة.

إنّه لصديقة تحلم بنشره، سأقدّمه هديّة لها في عيد ميلادها.

عرف المعلّم أنيس بسهولة صفحات دفتر أبو شَعر لكنّه فضّل ادّعاء التصديق، تعوّد تقبّل سلوك لا يفهمه ولم يكن مهتمّاً بمعارضة بيرسيفون التي تحدّته بأن يأتي في طباعته بأفضل ما عنده.

ثمّ رمته بسؤال مفاجئ:

- هل تأتي إلى المطبعة في الليل يا أنيس؟

ادّعى أنه لم يسمع ما قالت كسباً للوقت لكنها كرّرت سؤالها فاستوضح متذرّعاً بأنه لم يفهم لغتها العربية المكسّرة، سألها ماذا تقصد بالليل فقالت منتصف الليل فنفى متأنئاً في ردّ تلقائي واستفهم عن سبب السؤال وبعد استيعابه المباغتة أقرّ بحضوره مرّة أو مرّتين في الشهر بسبب تراكم الأشغال الطباعية والحاجة إلى تسليمها في مواعيدها.

طالبته بأن يستخدم أغلى ورق يمكن العثور عليه في بيروت وأن يعمد إلى الصفّ اليدوي والسحب على الطابعة القديمة، اليدوية أيضاً إذا أمكن. تريد فنّاً يخرج من اليدين:

- أكره هذه الآلة الجديدة، إنّها تخيفني!

يخيفها لطفي كرم أيضاً.

شدّدت على أنيس أن لا يخبر أحداً كي تبقي على وقع المفاجأة لدى صديقتها، وللمرة الأولى طلبت منه أن يخفي الأمر عن زوجها.

- لا تخبر دودول!

كان أنيس واقفاً ينظر إليها لا يدري ماذا يقول عندما عاجلته بسؤال أكثر إحراجاً:

- وهل تبقى وحدك ليلاً تحت؟

تلعثم أنيس من جديد وحاول التجاهل رافعاً كتفيه قبل أن يسارع إلى الانصراف هرباً من استجواب بيرسيفون ومتسائلاً ما الذي يجعل امرأة مثلها تهتمّ بالمصحّح صاحب الوجه المتجهّم. اضطرّ إلى العودة أدراجه كي يتأكد:

- نسخة واحدة قلتِ مدام؟

- نعم، نسخة واحدة فقط.

أشارت إلى لوحة لجورج سير الذي كان صديقاً لجدّها لأبيها تمثّل خليج بيروت، المرفأ والمدينة والجبال خلفها غارقة في ضباب وردي يذكّر بتدرّجات اللون الذي اختارته لجدران بيتها:

- مثل هذا التابلو! ليست هناك نسخة ثانية منه...

بالرغم من اسئلة بيرسيفون المشوّشة، أيقظت المهمّة في أنيس رغبة دُفنت تحت سنوات طويلة من البطالة.

عادت إلى غرفة نومها فخرج وأغلق الباب وراءه لينسى نفسه واقفاً بجانب تمثال فينوس المائلة برأسها محاولة النظر إلى مؤخرتها العارية وهو مطرق يتفحّص الاوراق بين يديه ويبدأ التخطيط لإدهاش بيرسيفون مسترجعاً مهاراته الطباعية.

أمضى أيّاماً في قبو الأدوات القديمة واقفاً منكبّاً على عمله. يعرف أنها ستكون على الأغلب المرّة الأخيرة التي تتاح له فيها فرصة صفّ الحروف وصناعة كتاب على هواه. لحظة مدّ أصابعه إلى علب الحروف الحديدية عاودته رائحة والده مصطفى، لازمته من فرط التصاقه به رواحاً ومجيئاً في صغره، أخرجه من المدرسة باكراً بذريعة

أنّه لن يحتاج من القراءة في مهنته إلّا إلى "فكّ" الحرف، ودرّبه على فنون الطباعة كرأسمال وحيد يورّثه إيّاه.

لم يُعرف كيف أقنع أنيس عبد الله كرم بإعطائه هذه العطلة الطويلة. يستدعيه فقط إذا احتاج إليه في مهمّة لا يحسن القيام بها غيره فكان العاملون يلاحظون عند عبوره بينهم لمعة حيوية في عينيه لم يعهدوها من قبل. يسرع للعودة إلى حيث بدأ بترتيب حروف جدّه عبد الحميد في خزانة خشبية قبل أن يمضي في تركيب الصفحات وفق القياس الرباعي، الملزمة الواحدة من ثماني صفحات. أمامه تركيب عشرين ملزمة، نسي نفسه وهو يصفّ المقاطع، ينتبه إلى تتابع حروفها وتدبير الوصلات، لا يلتقط من الكلمات والجمل معنى أو هو لا يأبه لمعنى. شوهد لطفي كرم يقصد أكثر من مرّة القبو الخلفي عندما كان أنيس لا يبارحه ويتأخّر كلّ يوم في العودة إلى البيت مساءً. اتّصلت زوجته يوماً، مع هبوط المساء، خائفة من أن يكون تعرّض للأذى أو للخطف لأنّها كانت تتكلم على الهاتف مع سكرتيرة صاحب المطبعة وتصف لها ما تراه من شرفتها في اللحظة عينها، شبّاناً يتواجهون في الحيّ، فريق في رأس الشارع يشتم عليّ وزينب وفرقة في الجهة المقابلة تسبّ عثمان وعمر ثأراً للحسين، يتقاذفون بما تقع عليه أيديهم متوقعة أن يبدأ بعدها إطلاق القذائف كما حدث في المرّات السابقة وسقط قتلى وجرحى...

ركّب أنيس الصفحات بتأنٍ وشدّها وأدار الطابعة القديمة نفسها التي عمل عليها والده وربما جدّه والتي حُوّلت للعمل على الطاقة الكهربائيّة، عادت إلى الدوران للمرّة الأولى منذ أكثر من خمسين

عاماً لتخرج منها بروفة أولى على ورق عاديّ انصرف إلى تصحيحها وترتيبها بحسب مقاسات حرف الثلث الخاصّة، وكان يجد أخطاءً صغيرة، شواذات تخفى على عامّة القرّاء تستوقفه فيضع علامة بالقلم الأحمر، ملتهياً بذلك عن أيّ قراءة متّصلة. فكّ ونقّح وشدّ من جديد.

بقي أن يختار الورق وكان عارفاً بالمطلوب، استأذن لطفي كرم وتوجّه إلى مخبئه، أزاح الحجرين المتحرّكين من الجدار فظهرت الكوّة الخفيّة، أخذ حاجته القليلة من المواعين المودعة فيها، رمى هناك دفتر المصحّح الأحمر وأقفل من جديد على المخزون الثمين، قطّع الورق وأدار الطابعة للمرّة الأخيرة فأخرج منها صفحات النسخة المنقّحة النظيفة، حملها وخرج بها إلى ضوء النهار ففُتن بما رآه. اختار تجليداً فاخراً واستغرب هو نفسه كيف لم ترد في ذهنه فكرة طباعة ولو نسخة ثانية واحدة على الأقل من هذا الكتاب.

١٨

لم ترسُ جوهرة التاج، أو ما قيل إنّها أحدث آلة طباعة في الشرق الأوسط، وهي كناية عن مبنى بطابقين أشبه بسفينة حربية يرتقي العاملون إلى سطحها على سلالم حديدية، ويراقب إنتاجها المتدفّق ويخدمها طاقم لا يقلّ عن ستة أشخاص، لم ترسُ في مرفأ بيروت داخل مستوعب بقياسات خاصّة بالسهولة التي يمكن تخيّلها. فتأمين الاعتمادات الماليّة شهد مسلسلاً مضنياً امتدّ لأكثر من سنة وصلت فيه المفاوضات مع مديري المصارف مراراً إلى حافة الانهيار خصوصاً أنّ ديوناً سابقة مستحقة على مطبعة "كرم إخوان" لم تُسدّد بالكامل بعدما أعيدت جدولتها مراراً بوساطات سياسيّة إضافة إلى فترة سماح أخيرة قرّرها مجلس إدارة المصرف بعد حادثة الاغتيال المروّعة والإصابة الكبيرة التي تعرّض لها عبد الله كرم عند خروجه من المقرّ الرئيسي.

ولم يُمنح المال المطلوب، عدّة ملايين من الدولارات الأميركية، إلّا بعدما قدّم أصحاب المطبعة كفالات شخصيّة ورهنوا أملاكهم إضافة إلى محتويات المطبعة واسمها التجاري وبنائها بما فيه طابق

السكن العلوي والأسهم التي حصلوا عليها في شركة "سوليدير" بديلاً من ملكية مخازن لتجارة الأجواخ في الأسواق التجارية القديمة ومزرعة خال عبد الله لتربية الخيل في سهل البقاع. باختصار، ابتلعت الهايدلبرغ سبيدماستر XL 162 كامل ميراث السيدة آفلين التي كتب أحد الصحافيين اللبنانيين سيرة حياتها بالفرنسية ملحقاً بها رسائل تبادلتها مع شارل قرم وجورج شحادة ومارغريت يورسنار، جدّة عبد الله، ابنة واحدة من أثرى العائلات البيروتية المعروفة، والتي حصل والدها على لقب الفيكونت شرف من قداسة البابا، هي التي أخبرت دوماً أن جمال باشا كان عندما يلبّي دعوة أهلها للعشاء والرقص في سنوات الحرب الكبرى، يجلسها على ركبتيه ويلاعبها وهي في عمر السنتَين. أمّا ما لم يكن يقال أمامها فهو أنّ والدتها كانت إحدى العشيقات الكثيرات المتداولة أسماؤهنّ لعضو القيادة الثلاثية في حزب الاتّحاد والترقّي التركي.

نُفّذ هذا الاستثمار الضخم فيما كان أعضاء نقابة أصحاب المطابع الذين غاب لطفي كرم عن مجلسهم منذ إصابة ابنه عبد الله، لا يملّون في اجتماعهم الشهري من إحصاء الطلبيات التي ألغيت في القطاع، والعروض التي تأجّلت بعدما كانت على وشك التوقيع. يتداولون في تكاثر عمليات خطف الرهائن لأسباب سياسية أو مقابل المال، يأسفون لتوقف البرنامج المدرسي الجديد الذي كانت قد وضعته في العراق لجنة بإشراف أميركي ووزّع التزام طباعة الكتب بملايين النسخ على عدد من المطابع اللبنانية، وكذلك لإلغاء طباعة سلسلة الأحاديث النبوية التي كانت دولة الإمارات

العربية المتحدة قد أوصت عليها لتوزيعها مجّاناً على الجمعيات والمكتبات الإسلامية في العالم والاستعاضة عن ذلك بنشرها على الانترنت جاهزة للتحميل لمن يرغب، وكيف أنّ صاحب الفكرة هو صاحب مطبعة سابق من بيروت تحوّل إلى الأعمال الرقمية. تتشعّب نقاشاتهم فيختلفون حول عدد اللاجئين الهاربين من الحرب في سوريا. استعادوا أخبار التظاهرات المستنكرة للرسوم الكاريكاتورية للنبي محمّد وتحطيم المحالّ التجارية كما أخبار التهديدات بإحراق الوسط التجاري ونزول فقراء الضواحي إلى جوار الواجهات الفخمة في قلب العاصمة ووفاة صاحب أكبر مكتب إعلانات ورغبة أرملته في إقفال الشركة ما يستتبع انهيار سوق المجلّات الفخمة التي تُموَّل من إعلانات العطور وماركات الثياب النسائية الداخلية وأدوات الكتابة الفاخرة. وكانت كلمة الختام عند العودة إلى صفقة شراء آل كرم آلة الهايدلبرغ لصاحب مطبعة "الأنوار" الذي رفع صوته بلكنة إنكليزية أصيلة اكتسبها من سنوات دراسته في "مدرسة لندن للاقتصاد" مستعيراً من التحذير المكتوب على مرآة الرؤية الخلفية في السيّارات الأميركية أن الأمور كما تبدو في المرآة "أسوأ" مما هي عليه في الظاهر. عُزي كلامه إلى الغيرة وأقفل الموضوع.

وبالفعل كانت الأمور ملتبسة. فالأوضاع العامّة تتدهور وعبد الله كرم ومن ورائه كرجع الصدى المعلّم أنيس الحلواني، يتذمّر من كلّ شيء، من المناقصات الرسمية والتلاعب بدفاتر الشروط لمصلحة النافذين الجدد من أمراء الحرب الذين احتلوا المناصب الوزارية، من الثورات التي ضربت أسواق البلدان العربية التي لا حياة لبيروت من

دونها، أو من ارتفاع أسعار الورق ونجاح بعض المحميّين باستيراده من دون رسوم جمركية، ويكون وريث مطبعة "كرم إخوان" في تغريدة التباكي هذه أميناً لتقليد يبرع فيه تجّار العاصمة الذين يكدّسون الأرباح وهم يصعّدون الشكوى ويترحّمون دائماً على عصر ذهبي حُكي لهم عنه وعرفه آباؤهم كما يقولون، لكنّ المخضرمين يذكرون أنّ هؤلاء الآباء أنفسهم ملأوا بدورهم الدنيا نواحاً في زمانهم، كأنّ التذمّر في هذه المدينة هو تعويذة النجاح.

يتدهور الوضع كما يقول الخبراء الاقتصاديون والكتّاب الصحافيون والمطبعة تعمل بكامل طاقتها، فآلة آل كرم العجيبة تجاوزت كلّ ما كان مأمولاً منها. سُدّدت الأقساط الشهرية للمصرف كاملة كما دُفعت المتأخرات المتراكمة لدى الصندوق الوطني للضمان الاجتماعي، وصُرفت الأجور في اليوم الأخير من كل شهر. لاحظ المحاسب المرافق لمطبعة كرم إخوان منذ أكثر من خمس وعشرين سنة تدفّقاً لعقود طباعية ضخمة بأرقامها وغريبة بأنواعها، مثل سلسلة فنيّة مصوّرة فاخرة حول حضارات المايا والأزتيك، مئات آلاف الأكياس من الورق المقوّى الفاخر بدمغة لانفان أو أديداس تنتجها شركاتٌ مقارّها في ماكاو أو الجزر العذراء البريطانية. طرح على سائقي آلة الهايدلبرغ أسئلة عفوية تأكّد من خلالها من أن العمل قائم على قدم وساق فكبت الرجل نفسه مبتعداً عن حشرية قد ترتدّ عليه، ومطبّقاً نصيحة والده "ابتعد عن الشرّ وغنّي له"، واكتفى بما يصله من أوراق وفواتير، يصنّفها ويحضّر موازنتها مع كامل النفقات واحتياط لا بأس به للطوارئ فتبقى أرقام الفائض

والأرباح غير مسبوقة. لكنّه لم يتمكن من حرمان نفسه من خيرات الازدهار المفاجئ فطالب بعلاوة على خدماته تمّت الموافقة عليها كما توقّع من دون أيّ نقاش.

لم تكن بيرسيفون بحاجة إلى دفاتر الحسابات كي تدرك التحسّن الكبير. شاهدت بدء أعمال ترميم في المبنى كانت مؤجّلة منذ انتقال المطبعة إليه مع تعبيد الطريق الصاعد من الشارع العام وإنارته ليلاً، سمعت عبد الله يحكي عن فتح حساب مصرفي له بالفرنك السويسري في أحد بنوك مدينة جنيف، سافر مرّتين إلى باريس بذريعة أعمال لم تعرف بيرسيفون طبيعتها.

تحكي صباحاً على الهاتف.

المال يأتي بكثرة منذ أشهر يا أمّي، لا أعرف من أين، لست مطمئنة، رأيت أشباحاً في المطبعة وأسمع أصواتاً وقد وظّفوا حارساً ليلياً جديداً لا أرتاح له.

لا تعرف تيودورا سيرافيديس إن كانت ابنتها تصدّق ما تقوله، بينما تكمل بيرسيفون ساخرة من حماتها كيف وصلت يوماً وكأنها في مهمّة خطيرة عاجلة وأخرجت من حقيبتها عيناً كبيرة من الفيروز الثمين الأصلي من إيران، وعلّقتها فوق باب المطبعة دَرءاً للحسد.

- أنا مثل الهررة والكلاب، أشعر بالخطر قبل وقوعه!

تخاف عليها أمّها من هذه الأوهام، توصيها بالصلاة قبل النوم، تعرف أنها لن تفعل، أو ترمي المسؤولية على والدها الذي حشا رأسها بالروايات البوليسية.

- أخذت "السلسلة السوداء" كلها إلى بيتك، أليس كذلك؟

- وتابعتُ شراء جميع إصداراتها...

تكمل بيرسيفون جولتها الهاتفية فتتحدّث مع صديقتها، تحكي لها عن الشابّ الطويل القامة الذي جاء يوماً إلى المطبعة ومعه دفتره.

تتذكّرين نوبار يا ساره؟ يحكي مثل نوبار. وقف كالجندي المتأهّب أمام دودول في مكتبه وقال إنّه وضع روحه في هذا الدفتر كمن يقول إنه وضع فستقاً حلبياً في كيس من الورق، نوبار كذلك لم يكن يرضى عن رقصته إلّا إذا أحسّ أنه وضع فيها روحه.

سألتها سارة قبل أن تتحدّثا عن شؤون أخرى:

- أين تجدين هؤلاء الشبّان يا بيرسو؟ أم أنت تخترعينهم؟

١٩

كانت أعمال الطباعة تزدهر وعبد الله كرم يستعيد عافية جسمه، تنزّه بداية في مشية متثاقلة استوت وثبتت مع الوقت لينتقل إلى الهرولة الصباحية أيّام السبت يرافقه سائقه على كورنيش البحر جهة المنارة معتمراً قبّعة يخفي بها الفجوة في رأسه إلى أن ينبت شعره من جديد. كذلك عادت قابليّته للأكل فاشتهى الكنافة بالجبن والمغربيّة بموزات لحم الغنم التي تعرّف إليها على مائدة أحد أصدقائه من المسلمين. دخّن مجدّداً سيجار سوبر بارتاغاس مع كأس بورتو بارد في الأمسيات المعتدلة وهو يداعب غوغول، كلب البيشون، بعد أن تبعده فلور عن سابين ونيكول كي تخلدا إلى النوم.

حصل له أيضاً ذاك الانقلاب. شهوات ملحّة إلى أجساد النساء بدأت تطغى على حواسّه، يستيقظ على غير عادته في حالة إثارة لا تهدأ، أو هي الإثارة التي توقظه. اكتشفت هذا التغيّر موظفات المطبعة اللواتي دخلن عليه بعد عودته إلى المكتب وكان لا يزال مرتدياً ثوب القدّيس انطونيوس الكبير فصرن يحترن في كيفية جلوسهنّ تحت نظراته الحارّة التي بدأت تلمع. يلاحظ الأرداف، يسرح في الأكتاف

المكشوفة وسمرة البشرة وأعلى الصدر، تثيره الأصابع، يبدأ تفحّصه المتجرّئ من اليدين. يستريح من شؤون المطبعة فينصرف بين رهان كروي ومباراة التكساس هولدم إلى البحث عن صور جميلات عاريات أو شبه عاريات، مثيرات في وقوفهن أو جلوسهن، يكبّر الصور أمامه على الشاشة، يقصّها، كروب، كي لا يبقي منها سوى فخذين بلا وجه أو شفتَين حمراوين مفتوحتين يكبّرهما ويتأمّلهما بحرارة.

لم يكتفِ بل أراد امتحاناً كاملاً وصريحاً فهاتف الخبير المشهود له بين أصدقائه طالباً منه "خدمة" كان الرجل سعيداً بتلبيتها فتوجّه بالطلب، ولأنّ العالم صغير وبيروت أصغر، إلى صاحب "لوس لاتينوس" دليله في عالم النساء. شدّد عليه أن يختار الأكثر حيوية بينهن في السرير، فأرشده أيّوب إلى الفتاة السمراء ذات العينين الخضراوين التي تقدّم نفسها على أنّ والدها مغربيّ وأمّها إيرانية. يعرف أيّوب أن الزبائن هنا مستعدّون لدفع الضعف إذا كانت الفتاة من بنات جلدتهم وله في ذلك نظرية كاملة يلمّح فيها من باب سفاح المحارم.

وصار الصديق الوسيط إذا سمع تلميحاً إلى أنّ صاحب مطبعة كرم إخوان بات عاجزاً جنسياً بعد تعرّضه للانفجار، يجيب بأن لا خوف إلّا من البحر الهادئ. حاسب عنه، حرّر شيكاً لأيّوب الذي تعهّد بالدفع للفتاة، أراد أن يُشعر عبد الله بالمتعة من دون مقابل ولو في المرّة الأولى على الأقل وكانت بمثابة "هديّة" صداقة له بعد شفائه من جراحاته.

طلب منه عدم الانتظار في ردهة الفندق المطل على البحر بل الصعود مباشرة إلى الغرفة حيث التحقت به الفتاة بعد دقائق وبلغ عبد الله كرم النشوة في الدقائق الأولى لملامسته جسد المرأة التي طمأنته بلهجة مصرية شوّشت نهائياً ما كان أخبر به عن هويّتها الحقيقية وجال في خاطره أنهم وعدوه بواحدة وأعطوه أخرى. قالت إن الأمر يحدث مع الكثيرين من الرجال. نهض عبد الله إلى الحمّام ليغتسل ويعود أكثر إصراراً ويطيل المجامعة حتى إنّ أيّوب أخبر صديقه أن الفتاة تضحك عالياً عندما تتحدّث عنه وتقول إن هذا السمين القصير القامة "أقوى" منكم جميعاً وليس بحاجة إلى من يستثيره، ولو كانت تسعى وراء المتعة لاختارته من بين جميع زبائنها.

لكنّ سلوك الرجل ذي الندبة العميقة في الوجه مع بنات الهوى والذي كان ينتظره سائقه أمام باب الفندق طوال وجوده في الطابق الثالث عشر، لم يكن متوقعاً. فما إن تكرّر انفراده بالفتاة المتعدّدة الجنسيات واللهجات واعتادت هي عليه وبدأت تخبره كيف تقدّمت إلى برنامج تلفزيوني للمواهب واستقدمها إلى بيروت متعهّد للفنّانين كي تظهر في حفل غنائي راقص بمناسبة أعياد رأس السنة فلفتت الأنظار وعُرض عليها البقاء هنا، في شقّة صغيرة مفروشة، مقابل مبالغ من المال لم تستطع رفضها، ترسل منها إلى أمّها المصابة بالبلهارسيا والى شقيقها الصغير، حتى راح يفكّر في البحث عن فتاة غيرها. كان اكتشافه أنّ شريكة سريره امرأة تشكو المرض أو الحاجة أو حتى الميعاد الشهري، كفيلاً بإضعاف رغبته فيها، يريد خليلته المثالية ذات جسد لا ضعف فيه ولا وظائف له سوى توفير اللذة والتمتّع بها،

نظيف، جاهز دائماً ومتناسق. ولم يكن تقاضي الفتاة المبلغ النقدي باليد عند مغادرتها الغرفة قبله تمويهاً يربكه في شيء، فهو أراد أن يحاسبهنّ مباشرة، يشعر بأن رغبة الفتاة في المال تستثير رغبته فيها. مع تمرّسه بهذه الهواية، بدأ يدقق في المواصفات وقد حار أيّوب كيف يرضي هذا الزبون السخيّ، الأسخى بينهم جميعاً، يعرف من هو لكنّه يدّعي أنّه يجهل ذلك، طلباته محدّدة، تصل إلى أيوب عبر الصديق الوسيط في رسائل نصّية، فتارة كان يرغب في الحصول على فتاة لا تتكلم أيّاً من اللغات الشائعة في بيروت، العربية والفرنسية والانكليزية، فظنّ أيّوب أنه يريدها هكذا أن تكتم سرّه، ومرّة أخرى لم يفهم لماذا يريدها أن ترتدي جوارب مشبّكة أو أن تكون فوق سنّ الثلاثين أو سوداء أفريقية إن وجدت.

كان عبد الله كرم يبتعد عن كل ما يذكّره بزوجته، العيون الزرقاء، الشعر الأشقر القصير أو البشرة البيضاء الناعمة. لم يسألها عن علاقاتها الغرامية السابقة لكنه كان متنبّهاً إلى سلوكها كما حدث في عشاء قدامى مدرسته عندما قرعت كأسها مرّات متتالية مع أحد أصدقائه ونهضت من مكانها لتتهامس معه قبل ان ينفجرا ضاحكين أو في مباراة السكرابل حيث تابعها كيف اختارت الجلوس في جوار الرجل الوحيد الآخر المشارك غيره، وفي المطبعة مع هذا المصحّح الشابّ الذي يلاحقها بنظراته كيفما تحرّكت وهي لا تقصّر في مبادلته النظرات. ولمّا أبلغته سكرتيرته أن المصحّح هذا سأل عنه، استدعى فريد أبو شَعر إلى مكتبه وسأله عمّا يريد فارتجل هذا الأخير ما كان يفكّر في القيام به منذ اختفت مخطوطته ليلاً وظهرت مطبوعةً في ليل آخر:

- دليل الهاتف الذي أعمل في هذه الأيام على تصحيحه سميك وثقيل، مئات ومئات الصفحات لا يمكنني حملها إلى البيت، هل تسمح لي بالبقاء هنا بعد الدوام فأكمل عملي عليه؟

وافق من دون تدقيق. لا يعرف شيئاً عن هذا الشاب الذي وظّفه على عجل فاستفاض في الحديث معه وسأله إن كان عازباً أو متزوّجاً، وعن مسقط رأسه ومكان سكنه. جاءت أجوبة فريد مقتضبة فتذكّر عبد الله كرم أن الشابّ عندما زاره في المرّة الأولى كان يحمل معه مخطوطة أو دفتراً ما يسعى إلى طباعته ونشره فطرح عليه السؤال المعهود:

- ماذا تكتب في هذه الأيام؟

- أكتب، قال، ولم يجد ما يضيفه ثم صحّح لنفسه من دون سؤال:

- لا، لا أكتب، توقفت عن الكتابة.

لم يتراجع عبد الله، أراد التأكد إن كان مصحّح العربية هذا أبله أم متّزناً فراح يطرح عليه أسئلة من هنا وهناك فقط كي يجعله يتكلّم:

- هل تحمل شهادة جامعية؟

- لا أؤمن بالشهادات لكنّي أحمل دبلوماً في الألسنية قارنت فيه بين كتاب "دلائل الإعجاز" لعبد القاهر الجرجاني وكتاب "دروس في الألسنية العامّة" لفردينان دو سوسور.

فتح عبد الله على نفسه باباً لا يعرف منه الكثير فعاد إلى أسئلة أكثر عمومية:

- متى كنت تكتب، أين كنت تكتب؟

٢٠

يكتب فريد أبو شَعر واقفاً. سمع يوماً أن الواقف يبقى متيقّظاً فوقف. لا يكتب من خمول بل من اتّقاد حواسه. يحلو له تصوّر نفسه يشتعل وهو يخطّ بقلمه المفضّل بالحبر السائل، "المون بلان" الفضّي. ورثه عن والده الذي تلقّاه بدوره هديّة من سليمان أبو شَعر تشجيعاً لنسيبه حليم بعد أن أظهر في شبابه فضولاً عابراً تجاه الكتب والكتّاب. لكن والد فريد كان يهيم في عالم آخر فلم يُخرج هذا القلم الثمين من علبته إلّا عندما وقّع به على سجلّ الكنيسة هو وعروسه وشاهداه يوم زفافه، وعلى كمبيالات المرابين وفوائدهم المقتطعة سلفاً عندما داهمته حاجة ماسّة للمال كي يستأجر صالونه، "شي حليم"، في فرن الشبّاك، ويؤثّثه بكرسيّي حلاقة دوّارَين ومرايا كبيرة. مات شابّاً وترك القلم لأصغر أبنائه.

ألّف فريد، التلميذ الابتدائي، أوّل كلام على هواه في الصف الرابع في حصّة مدرّس العربية الذي كان يكثر من تمارين "تركيب الجمل" حول كلمات من أيّ صنف. بدأ بكلمة تفّاحة وكان جلّ ما يبتغيه من الصغار أن يركّبوا فعلاً وفاعلاً ومفعولاً به حول هذه الثمرة المألوفة،

"أكل الولد التفاحة"، أو للمتجلّين من بينهم صياغة أطول، "خرج آدم من الفردوس لأنّه أكل التفاحة"، فإذا بفريد يفاجئه ويفاجئ رفاق صفّه عندما وقف وقال بنبرة شاعرية:

- الأرض تفّاحة حمراء تمشي الهوينا!

رفع المدرّس يده مشيراً على التلامذة بالصمت كأن حدثاً جللاً وقع للتوّ في قاعة الصفّ لا يجوز التعكير عليه، ليسأل الصغير عن عمره وعمّا إن كان تلقّى دروساً خصوصية من قبل، وعندما وصل في استجوابه إلى اسم عائلته تنفّس المدرّس الصعداء وهزّ رأسه مطمئناً إلى أنه وجد في انتساب الصبيّ إلى آل أبو شَعر تفسيراً جينيّاً كافياً لتمكّنه من اللغة العربية ولشاعريته المبكرة.

يكتب فوق، في ضيعته حيث تصله وهو مبحر في البحث عن عباراته أصوات انفجار قذائف مدفعية خلف سلسلة الجبال، معركة في الداخل السوري تحتدم ليلاً ويبقى قتلاها مرميّين أيّاماً في العراء كما تنقل وسائل الإعلام في اليوم التالي. يكتب واقفاً ويضع أوراقه وقلمه فوق مقرأة كنيسة القرية التي وافق الكاهن على إعارته إيّاها خارج أيّام الآحاد والصيف، نفسها المنضدة التي يوضع عليها كتاب القدّاس أو السنكسار، سيَر القدّيسين الشهداء، مفتوحاً حتى عندما لا يقترب منها قارئ. يُخرجها فريد إلى الشرفة ويقف خلفها قبالة غابة العرعر الصغيرة على السفح المقابل حيث تُسمع طلقات متفرقة من بنادق الصيد عندما يستريح فيها رفّ من طيور الفرّي أو التدرّج المسافرة. يقصد القرية لهذا الغرض، ينصرف فيها يومين أو ثلاثة إلى الكتابة صبحاً وقبل أن يأكل وغروباً حتى يخذله

ضوء النهار. جاء إلى هنا عندما فشل في إيجاد ناشر لكتابه ولم تُعرض عليه سوى وظيفة مصحّح، وقف قبالة معبد باخوس البعيد وغابة العرعر، ومن أجل استعادة بعض ثقته بنفسه ألقى مقاطع من نصوصه في الفراغ بصوت عالٍ أثار نباح كلب في الجوار واستعاد فريد في مداواته لمعنويّاته كيف أجلسه جدّه يوماً في حضنه على هذه الشرفة نفسها التي كانت غارقة بأزهار الغاردينيا كما يذكرها في طفولته، وراح يرقّصه فوق فخذه معلناً أن الدنيا "تربّي" نابغة كلّ مئة عام، أخرجت جبران خليل جبران في مطلع القرن العشرين "وسيأتي قريباً دور هذا الصبيّ".

يكتب باللون الأزرق، لا يتخلّى عن "المون بلان"، يملأه حبراً مرتين في اليوم، يشعر بأن القلم يحتفظ بأثر من الذين توالوا على الكتابة به، وبقدر ما كان يصرّ على فرادته وخصوصية أسلوبه وأنّه غير مدين لأحد، كان متشبّثاً بهذا القلم الذي أمسكت به أكثر من يد من آل أبو شَعر. يحتفظ بمخزون لا بأس به من محابر "باركر" التي لم تعد متوفرة في المكتبات وريشتين احتياطيتين لرأس القلم وجدهما صدفة. يكتب بخطّ جميل مائل، يرخي الريشة صعوداً ويشدّها نزولاً. وكان الصغار من أبناء أشقّائه إذا صودف وجودهم في القرية يتلصّصون عليه ضاحكين ويتابعونه كيف يمرّر نشّافة الحبر عدّة مرّات بعد كلّ سطر يكتبه. لا يشطب، ينتظر أن تحضره الكلمات، يغربلها وينتقيها، يعيد الجملة في ذهنه ويعيد ثمّ يغمض عينيه ويغوص في أعماق نفسه، يلقيها عالياً قبل أن يدوّنها بتمهّل وانضباط. يتفادى الخطأ قدر الإمكان لكنه إذا ارتكب واحداً أو

سالت من "المون بلان" نقاط حبر زائدة بقّعت الورقة كان يمزّقها ويعيد الكتابة.

يكتب واقفاً ويقرأ واقفاً، قرأ الكتاب المقدس بترجمة الشيخ إبراهيم اليازجي من سفر التكوين إلى رؤيا يوحنّا، صمّم على التهام كلّ ما أرسله إليه قبل وفاته يوسف أبو شَعر الذي سدّد عنه أقساط المدرسة، صندوق من الكتب التي كان لديه منها أكثر من نسخة أحضرها زوج المرأة التي خدمته طوال حياته. الجاحظ، **المحاسن والأضداد**، كتاب **أخبار الأعيان في جبل لبنان**، ولمّا وضع أمامه على المنضدة **كتاب المواقف ويليه كتاب المخاطبات** لمحمّد بن عبد الجبّار بن حسن النفري وقرأ المقدّمة التي تعرّف به، "إنه القبض على تفتّح الذات على الوجود الداخلي الصرف الذي تكتنزه منذ الأزل، إنّه انكشاف مخبوءات الذات والوجود وعوالمها أمام الذات نفسها"، أطربه الوجود الداخلي الأزلي الصرف هذا. تحمّس للقراءة، فتح صفحة كيفما اتفق: "يقول الله لعبده خلقتك على صورتي واحداً فرداً سميعاً بصيراً متكلماً وجعلتك لتجليات أسمائي ومحلّاً لعنايتي، أنت منظري لا ستور مسدلة بيني وبينك، أنت جليسي لا حدود بيني وبينك، يا عبد ليس بيني وبينك بين، أنت أقرب إليّ من نفسك، أنا أقرب إليك من نطقك ..." فشعر بالحاجة الملحّة إلى الكتابة من دون أن تحضره فكرة بعينها، رغبة لا تقاوم سيطرت عليه فأحسّ بأنّه ممتلئ ويكاد يفيض. يشعر بأن الكلام مخزون في داخله، وُلد معه أو كان موجوداً قبله، على الدوام، ينتظر فقط الالتقاء به وليس عليه هو سوى الاهتداء إلى هذا الكلام

وعدم خيانته، أن يصبر فقط حتى يخرج إلى العلن في مخاض يكون عسيراً في بعض الأحيان. وكانت نوبات من الوحي تأتيه ليلاً، يجلس في سريره ويتلمّس قلماً من حواليه ويدوّن أينما كان، على منديل ورقيّ أو على كفّ يده عندما لا يجد ما يكتب عليه، في عتمة غرفة نومه، العبارة التي كانت تلحّ عليه وتؤرّقه على أن ينزلها بشكلها النهائي في ضوء النهار.

وصل إلى النهاية عندما تضاءلت هبّات الكتابة، أفرغ جلّ ما عنده كأنه بلّغ واستراح فبدأ يراجع ما أنجزه، يقرأ عالياً كي يضبط إيقاع الجمل، يوزّع ارتفاعها وسقوطها، يتردّد طويلاً أمام نعتَين متتاليين، يسمح لنفسه بافتتاح بعض الجمل بالفاعل بدل الفعل ويركّب جملاً اسمية وباعتماد عبارات من كلمة واحدة قبل أن يعيد الخاتمة ويعيد حتى يصل إلى إيقاع يطربه. جمع الأوراق المتفرّقة التي كتب عليها على شكل دفتر وجلّدها بالأحمر. حمله معه إلى بيروت، دار به على دور النشر واحدةً واحدةً بعد أن استرشد للعثور عليها بدليل نقابة الطابعين والناشرين التي تأسّست عام ١٩٣٤. وصار يضع مسوّدته فوق الطاولة الصغيرة بجانب سريره ليلاً ولا يخرج إلاّ وقد تأبّطها حتى حصل له ما حصل.

لكن في ليلة مضطربة عاد فيها من "لوس لاتينوس" وقد أفرط في الشرب على غير عادته رأى فريد نفسه في الحلم يقصد القرية وحده ويجمع بعض أغصان اللزّاب اليابسة فيصنع بها محرقة كتلك التي كان يرقص حولها صغيراً مع رفاق قريته في يوم عيد الربّ، ويرمي كتابه الأحمر فيها وينتظر حتى يتحوّل رماداً، يرتاح منه كأنّه لم يكتبه،

كأنّه لم يكن، يحرقه وهو يسمع صوتاً أليفاً يقول "والله ما أحرقتك حتى كدت أحترق بك".

لكنه استفاق صباح اليوم التالي هادئاً ولم يبق له من حلمه هذا سوى ذكرى غامضة.

٢١

عادوا في منتصف النهار هذه المرّة، قبل وقفة الغداء، ثلاثة عناصر جدد من مكتب مكافحة الجرائم المالية، شابّة ببدلة عسكرية مرقّطة، الوحيدة التي تحمل سلاحاً ظاهراً، مسدّس غلوك ١٧ على خصرها، ورجلان بثياب مدنية عديمة الأناقة. صغار القامة جميعهم أو هكذا بدوا لمن رآهم يدخلون من باب مطبعة "كرم إخوان" مواكبين رجلاً ضخماً أشقر. أجنبيّ أرسلته منظمة الانتربول من مقرّها الرئيسي في مدينة ليون الفرنسية حاملاً معه نماذج لفئة العشرين يورو التي يطغى عليها اللون الأزرق والصادرة باسم دولة فنلندا وعلى قفاها رسم تخطيطي يذكّر بنوافذ كاتدرائيات القرون الوسطى كما على غيرها من أبواب أو جسور ترمز إلى الانفتاح والتعاون بين الشعوب.

وكان هذا الفصل الطويل قد بدأ بعيداً وراء البحار يوم ألقى عنصران متخفّيان من كتيبة مكافحة الشغب والمخدّرات البرازيلية القبض على خيسوس جيلبرتو من مواليد مونتيفيديو الملقّب "أناكوندا" عند أطراف "مدينة الربّ" في ضواحي الصفيح لريو دي جانيرو. برّحوه ضرباً في المركز كالعادة خصوصاً بعدما اكتشفوا العدد الكبير

من مذكّرات التوقيف الصادرة بحقّه فاعترف إضافة إلى اتجاره بالكوكايين الذي ضبطوا منه كمّية لا بأس بها في جيب تحت مقعد درّاجته النارية أنه يُدخل المال إلى البرازيل عن طريق الحدود البريّة مع الأوروغواي. قامت المباحث بالتحقيق هناك مع من وشى بهم من الأقوى نفوذاً منه فانتهى بهم الأمر بما يشبه الصفقة مع المدّعي العام إلى الاعتراف بأن البضاعة تصل من غامبيا على ساحل الأطلسي موزّعة داخل أبواب ومحرّكات سيارات مرسيدس ألمانية مستعملة تُشحن عبر إحدى طرق تجارة العبيد البحرية التاريخية نحو أميركا اللاتينية. يتسلّمونها وتعرف الشرطة في مونتيفيديو أنّهم قادرون على إيداع المال في بنوك بالتواطؤ مع موظّفين يرشونهم أو من خلال صرّافين صغار يلزمهم الوقت لزرعها في رزم العملة وإعادة شحنها إلى أوروبا أو إلى مختلف أنحاء العالم. وفي بانجول الهادئة المنسيّة على الضفة المقابلة تبيّن أنّ البضاعة تصل إلى المطار بصورة عادية، في حقائب يسجّلها مسافرون شرعيون لا يزعجهم أحد، توضع في عنبر الطائرة ويتسلّمونها عند الهبوط. هكذا استمرّ البحث شهوراً ووضع الضبّاط في مركز الانتربول الإقليمي في الأرجنتين خريطة مجسّمة شاملة لأربع قارّات مع أسماء من اعتقلوا ومن لا يزالون فارّين وشكّوا فيها أعلاماً صغيرة ملوّنة تدلّ على المدن التي تنشط فيها هذه الشبكة المعولمة كما صنعوا عنها فيلماً بالأبعاد الثلاثة حتى وصلوا إلى الاسم السحري للمصدر: بيروت.

أمّا في ٢٠، شارع سونمانستراس في فرانكفورت فقد انكبّ خبراء الطباعة في المصرف المركزي الأوروبي على رياضتهم المفضّلة أي

تلمّس الورق والتأكد من سطحه النافر وأطرافه الحادة والصرير الذي يُسمع من جراء العبث به باليد. وجدوا شريط المغنطة فعّالاً يسمح للعملة بالمرور بسهولة عبر العدّادات، ورأوا عند تعريضها للضوء صورة أوروبا بطلة الميتولوجيا التي قيل إن الإله زوس تقمّص في هيئة ثور جميل أبيض امتطته الفتاة عند شاطئ صور فهرب بها. وجدوا فيها شريط الأمان والتطابق الذي يكاد يكون تاماً بين الوجه والقفا. في الملمس والنظر كانت تلك النماذج إنجازاً رائعاً، أمّا ضعفها فكان في الإمالة حيث لم تكن الألوان تتغيّر عند اللعب بانحنائها وتغيير زوايا النظر إليها، ولم يجدوا الحروف الطباعية المتناهية في الصغر التي لا يمكن رؤيتها إلا تحت المجهر. حاز هذا النموذج "الفنلندي" إعجاب الخبراء لكونه اخترق عدداً كبيراً من معايير السلامة الأساسية الخمسة عشر فتأكدت لديهم القناعة وكتبوا في تقريرهم أن من صنّعها لا بدّ من أنه استخدم مطبعة رقميّة من الجيل الأحدث، من صناعة ألمانية أو سويسرية تحديداً.

كان ذلك كافياً لحصر الشكّ في بعض العناوين في بيروت، التي دُهمت في الصباح الباكر في وقت واحد تقريباً وصودرت موادّ وعيّنات عشوائية منها، لكن استعراض القوة واحتلال المطابع لنصف نهار لم يؤدِّ حينها إلى وضع اليد على أدلّة مفيدة. هذا ما أُبلغ به عبد الله كرم بعد ظهر اليوم الذي حصلت فيه المداهمة الأولى فلم يقلق وادّعى جهاراً أمام من سأله من الاصدقاء أنّ "المطبعة محميّة" في إيحاء غامض بأن قوّة سياسية أو ربّما عسكرية نافذة تتكفّل الدفاع عنه. وكانت الإشارة الإعلامية الوحيدة إلى ما حدث، مربّع صغير

في الصفحات الداخلية لصحيفة "البلاد" المعروفة بأخبارها المثيرة ينقل أنّ تحقيقاً "دوليّاً" يجري قد يؤدّي إلى اكتشاف تورّط مؤسّسة "عريقة" في "أعمال غير قانونية". اكتفى خبير المعلوماتية اللبناني العائد لتوّه من دورة في لندن حول الجرائم الإلكترونية بالدخول إلى ملفّات الحواسيب حيث اكتشف عقوداً طباعية وصور نساء عاريات ووقع حتى على تدوين مختصر ليوميّات أحد الموظّفين لفته فيه كلام عن تمييز في المعاملة بين الرجال والنساء في المطبعة لمصلحة النساء إضافة إلى ملاحظة مفادها "أن شيئاً ما يحدث في هذه المطبعة ليلاً لأنني أكون عادة آخر من يغادر وعندما أعود في الصباح أجد أشياء صغيرة تغيّرت، لا ينتبه إليها أحد لكنّي متأكد منها"، كما تمكن من قراءة غالبية الرسائل المتبادلة في برنامج "أوتلوك إكسبرس" ولفته بينها وصف لجمال زوجة صاحب المطبعة وكيف "يتوقف العمل تقريباً في المطبعة عندما تمرّ بين الآلات والمكاتب" كما تاه الخبير في متابعة غراميات وخلافات عائلية وعقارية وتهديدات برفع دعاوى قضائية.

نامت المسألة وكادت تُنسى تماماً لو لم تستدركها البيروقراطية الأمنية الدوليّة التي - وإن تأخّرت كعادتها - لم تتوانَ عن إرسال إخطارات إضافية من هلسنكي وبرلين وصلت إلى حاكم البنك المركزي اللبناني الذي أبلغ رئيس الحكومة ووزير المالية أنّ الموضوع يهدّد مكانة البلد وتصنيفه بين الدول في سجلّ الأمانة الماليّة وطالب الإنتربول بإرسال محققين فوقع الاختيار على الرجل الذي يُنسب إليه كشف الجرائم المالية الأكثر تعقيداً ومنها التعرّف

إلى هويّة "العرّاب" الأكبر في مرسيليا وجنوب فرنسا والإيقاع به. العملاق بالبزّة البيضاء النقيّة والفوطة الزرقاء الخارجة من جيب سترته الذي تابعه من خلف مكتبه فريد أبو شَعر، كما الآخرون من العاملين، وهو ينقل نظراته الثاقبة في موجودات مطبعة "كرم إخوان"، متّجهاً مع موكبه نحو آلة الهايدلبرغ XL 162، المتّهمة الرئيسية بصناعة أوراق العملة. توقّف يتأمّل دورة العمل فيها، يقترب من الواقفين عليها، يتسلّق الدرج إلى طابقها الثاني ويدور حولها يطرح على مشغّليها أسئلة يترجمون معناها بعضهم لبعض ويتفحّص نموذجاً ممّا كانت تخرجه من الصفحات الملوّنة وصور عارضات الأزياء على ورق الكوشيه الفاخر. أطال الفريق وقوفه هناك في آخر الردهة فعاد فريد إلى مراجعة نصّ الإعلان العربي عن هواتف "أبّل"، (آيفون—٥)، المحمولة الجديدة، تطبيقاتها وسعة ذاكراتها ودقة كاميراتها، فلم ينتبه إلى المحققين إلّا وقد أحاطوا به. دخلوا دائرته القريبة وانكبوا عليه والأجنبي بحاسّة كلب الصيد العتيق المدرّب يرمق سطح مكتبه ويمدّ يده لينشل بخفة لا مبرّر لها النسخة المطبوعة من كتابه الموضوعة على يساره والتي ما عادت تفارقه كما لم يكن يفارقه دفتر مسوّدته الأحمر قبل ذلك. نهض فريد بحدّة يردّ الاعتداء عليه محاولاً انتزاع كتابه من بين يدي المحقق الغريب فاعترضته الشرطية قائلة:

- معنا أمر بالمصادرة!

- مصادرة ماذا؟

كان سؤال فريد صارخاً يائساً ممّا ينهال عليه من فصول.

- نبحث عن أدلّة...
- لكن هذا كتاب شعر!

هو نفسه ادّعى الشعر هذه المرة تبخيساً لقيمة كتابه وهو ينظر إلى الخبير يتحسّس ملمس سطح أوراق الكتاب وسماكتها وعلامات الانتصار ترتسم على وجهه كأنه عثر على مبتغاه من دون كبير عناء في اليوم الأول لوصوله إلى بيروت وبعد ربع ساعة على دخوله مطبعة "كرم إخوان".

غادر المحققون فتابعت بيرسيفون من نافذتها، وبعد أن أبلغتها فلور بالمداهمة الثانية وهي ترتجف، "البوليس هنا مدام"، وفلور تخشى دائماً الشرطة لأسباب تتعلق بتجديد إقامتها واحتمال ترحيلها إلى بلادها، تابعت ساكنة الطابق العلوي سيارة الفورد إكسبلورر السوداء الرباعية الدفع تنزل على مهل الطريق الضيّق في اتّجاه الشارع العام والمحقق الأشقر الجالس إلى يمين السائق يحمل بين يديه كتاب فريد أبو شَعر، هديّتها للمصحّح والصيد الوحيد للمداهمة الثانية.

٢٢

من يوم عادا من شهر العسل، من سالزبورغ إلى حيّ الجمّيزة، ألحّت عليها حماتها أن تخمّر فوق عتبة الباب قبل دخولها وانتظر عبد الله وهو يرفع زوجته بصعوبة إلى أعلى كي يعثر أحدهم على قطعة نقدية، وجدها السائق في قعر جيبه في النهاية، للصقها على العجين جلباً للحظ، فيما والده لطفي يتذمّر من زوجته وعادات قريتها التي أنزلتها معها إلى بيروت، منذ تمضيتها الليلة الأولى هنا، عبد الله يشخر، تدفعه بيدها كي ينقلب من كتف إلى أخرى فتتوقف موسيقاه ولا يأتيها النوم وهي تنظر إلى خيال شجرة يؤرجح الهواء ظلّ أغصانها الرفيعة في سقف الغرفة، كان هناك ما لم يعد يروق بيرسيفون ملكي في هذا المكان. زيّنته، أعجب به كلّ من رآه لكن نفسها انقلبت عليه.

لم تعد تتحمّل ضجيج الملاهي والموسيقى الصاخبة في الشوارع الليلية المجاورة ولا أزيز المحرّكات الصارخ، سيّارات يقودها مجانين السرعة بعد منتصف الليل على جادة الاستقلال إلى الجهة الشرقية. ثم بدأ هذا الارتجاج المنبعث من آلة الطباعة الجديدة، هزّة عميقة تنتقل عبر جدران الحجر وتصل إلى فوق ولا تنفع معها كرات

"كييس" التي باتت بيرسيفون تضعها في أذنيها قبل النوم، مع الشعور الدائم بأن الدنيا تتحرّك تحت، ليل نهار أحياناً. وجاء البعوض مع حلول فصل الربيع. منه الطائر يطنّ قرب الأذن وقد يلجها ومنه ما لا يُرى بالعين المجرّدة، تحكّ جلدها وتتورّم وتجرح نفسها وتقول إن أشجار الجاكارندا هي السبب، تجلب البرغش من آخر الدنيا. تشعل قضبان البخور والأقراص الطاردة ليل نهار، حتى جُهّز البيت بمجموعة من المصائد الكهربائية تفرقع أصواتها الحادّة كلما علقت على قضبانها حشرة.

لكن أكثر ما شغلها كان رائحة الجياد. تتحدّث مع صديقتها، بالفرنسية الصباحية:

- لا، لست على ما يرام...
- لماذا؟
- تلك الرائحة!
- أخبرتني أنها زالت.
- ليست رائحة الدهان يا سارة... رائحة الخيل.
- أيّ خيل؟
- ألم أخبرك أبداً أننا نسكن في إسطبل!؟

يستنشق عبد الله عميقاً في الأرجاء ويستبعد استمرار آثار من هذا القبيل بعد عشرات السنين على انتقال الجياد إلى سهل البقاع:

- ربما رائحة الحبر.

تُشرك فلور:

- ألا تشتمّين الحصان؟

فتجيبها إن كان الطقس ربيعاً مثلاً:

- لا، أشمّ الياسمين!

لا تعرف تلك القادمة حديثاً من جزيرتها البعيدة إن كان عليها إرضاء السيدة بالقول إنّها شمّت ريح هذا الحيوان الكريهة المعشّشة في زوايا المطبعة وفي البيت العلوي، خصوصاً في النهارات الرطبة. سكتت بيرسيفون عن البعوض وعن الجياد، بعد أن كاد لطفي، والد زوجها، يأخذ تلميحاتها على محمل الإهانة لمنزل والدته وأشجارها. تكتفي بإشعال عيدان البخور، يرميها عبد الله، لا يتحمّل رائحتها، فتعيد إشعالها بمجرّد أن يدير ظهره للخروج.

وصارت تخرج هي أيضاً منذ استأنف عبد الله حياته العادية. لبّت دعوة زملائها خرّيجي أكاديمية الفنون الجميلة فشاركت معهم في معرض "ذاكرة بيروت" وعنوانه الفرعي "الهويّات والحرائق" في صالة العرض الشاسعة التي أقيمت فوق جبل نفايات العاصمة على شاطئ البحر.

يوم الافتتاح، عرّفتها صديقة لها إلى رجل أنيق يشرب الشمبانيا بكثرة، يجدّد كأسه الفارغة كلما مرّ نادل بجانبه. عرّف عن نفسه بأنّه محامٍ بالاستئناف ولم يتوقف عن ردّ شعره الذهبي العبيّ الأملس إلى الوراء وهو يرمي السلام والمزاح بالصوت العالي على معارف له في كلّ ركن. رافقها على اللوحات الزيتية والصفحات الأولى من جرائد قديمة أرّخت لمجازر مشهودة وعلى هيكل سيّارة متفحّمة أسندت فوقها مظلّة بألوان العلم اللبناني البيضاء والحمراء النضرة. توقفا أمام ما يشبه حلبة للملاكمة يتوسّطها كرسيّ اعتراف وفي زواياها

متاريس مشيّدة بأكياس حقيقية من الرمل تخرج من فتحاتها رشاشات كلاشنيكوف بلاستيكية، بينما تتدلّى من السقف أقنعة ضاحكة باكية، كما كانت تُعرض على الجدار وعلى مدار الساعة مشاهد تسجيلية تتوالى فيها صور الأطفال العابثين والمعارك المستعرة.

كانت أسئلة المحامي مفاجئة ومباشرة:

– عجباً، لماذا لست شقراء خفيفة تقتني عشرين نوعاً من النظارات الشمسية!

– وكيف عرفت ذلك؟

يمسك يدها من دون استئذان:

– لأنك لا تطلين أظافرك...

ابتسمت فأكمل القيام بدور الدليل، يشير إلى العمائم المنشورة وسط الحلبة بملاقط خشبية على حبل طويل:

– البيضاء لعموم رجال الدين الشيعة والسوداء لمن يرجع نسبهم إلى الإمام عليّ بن أبي طالب...

يشرح لها عن تقليد الطرابيش الحمراء التركيّة التي يُلفّ حولها قماش أبيض ويعتمرها مشايخ أهل السنّة والجماعة وصولاً إلى طابيات الكهنة الموارنة السوداء بعشرين طاقاً التي لم يعد يوجد من يخيطها واختلاف ما يلبسه على رؤوسهم عقّال الدروز ومراجعهم كلّ حسب مرتبته في العلم. حبال غسيل أرادها صاحب التجهيز المسمّى "حروب غير أهلية"، علّقت عليها عباءات من كل لون وبطرشيل وعصيّ وتيجان وثياب القدّاس بالألوان الذهبية.

لكنه يعود إليها، في لحظة لم تتوقعها:

- لماذا سمّوك بيرسيفون؟

- إنه اسم جدّتي لأمّي.

- جدّتك يونانية أم إيطالية؟

- من أثينا.

- وهل ما يزال أهلك يصومون يوم الثلاثاء ولا يحلق والدك ذقنه حداداً على سقوط القسطنطينية؟

- حُكي لي ذلك عن جدّي، أمّي فقط أرثوذوكسية ووالدي كاثوليكي وزوجي ماروني، عمّتي تزوّجت بمسلم وأخي بمسلمة... نحن في وسط "الهويّات والحرائق"!

- لكن لا خاتم في إصبعك.

- كي لا أفوّت على نفسي فرصة لقاء مثل هذا!

ضحكا وتناول الرجل كأس شمبانيا جديدة قبل أن يتوقف من جديد أمام جدار تزيّنه لوحة كبيرة تبدو من بعيد بلون واحد. اقترب يفكّ جاذبيتها، أطال تأمّله ثمّ اقترب أكثر ليقرأ التوقيع في زاويتها السفلى واستدار كأنه لُسع نحو رفيقته التي بقيت على مسافة منه:

- هذه أنتِ، بيرسيفون؟

أومأت بالإيجاب.

أصرّ عليها زملاء المعهد أن تشارك بتجهيز من وحي الهويّات والحرائق فاكتفت بلوحة أكملت بها تدرّجات اللون الزهري الذي غطّى جدران بيتها. مساحة من المادّة السميكة لم ترسم فوقها بل أخرجت منها كلمات نافرة متفرّقة استطاع المحامي وهو يميل برأسه ليلحق الحروف أن يقرأ منها بصوت عالٍ "وما هتفوا إلّا، الفتنة،

سوف ينقلبون، الاعتدال...".

- لم تخبريني أنك رسّامة.
- لست رسّامة.
- وتعرفين العربية؟
- لا أفهم معنى هذه الكلمات بل أحبّ سماعها.

نسخَتْها كما كتبها فريد أبو شعر في دفتره الأحمر.

أكملا دورتهما في المعرض إلى جناح "ذاكرات طويلة" حيث كانت معروضة قوائم أسماء القرى التي اندثرت في الحرب العالمية الأولى مع صور فوتوغرافية لجيوش ببزّاتها المختلفة تعاقبت في بيروت، ووثائق أصلية تصف أحوال البلاد. لفتت انتباه بيرسيفون مشاهدات دبلوماسي أميركي كانت بلاده ما تزال على الحياد في بداية الحرب الكبرى سجّلها في رسالة بالإنكليزية بخطّ اليد وبعث بها إلى وزارة الخارجية في واشنطن:

"... أثناء مرورنا في بيروت كان الخبز عزيزاً وإذا وجد فأسمر بل مائلاً إلى الخضرة مرّاً، لا ينقضي يوم إلّا تُشاهد في الشوارع والأزقّة نساء وأطفال بعيون غائرة يبحثون في النفايات عن قشر الليمون أو العظام قبل أن يتمدّدوا على طرف الطرقات موتى من جوع وقد حُفرت لهم حفرة كبيرة في جوار إسطبلات للخيل قريبة من مرفأ المدينة دُفن فيها هؤلاء النازحون من القرى الجبلية إلى بيروت ومن ثم مهّدت الأرض فوقها حين انتهت الحرب وزُرعت فوقها الأشجار".

عند انتهاء المعرض استرجعت بيرسيفون لوحتها وعلّقتها على جدار غرفة النوم، مقابل سريرها.

٢٣

كان أكثر التعليقات لؤماً ما ساقه صاحب مطبعة "الأنوار" نفسه في بداية اجتماع مجلس نقابة المطابع حين أبدى بلهجة جديّة إعجابه بدقة الصنعة عند "كرم إخوان":

- فنّانون!

قال وهو ينفث دخان سيجاره الصباحي مضيفاً أن اليورو عندهم يساوي ثلاثين سنتاً وهذه من النسب الأكثر ارتفاعاً في العالم. همس آخرون أن الوشاية بهم جاءت من داخل المطبعة. ولم يكن ممكناً تبيّن حقيقة مشاعر زملاء المهنة هؤلاء عندما أقفل النقيب الموضوع بالتحسّر أنه ليس سهلاً تقبّل إقفال مطبعة عمرها مئة عام قبل أن ينتقل إلى بنود الاجتماع الأخرى.

المهدّدون في عملهم بسبب خطر الإقفال هم أربعة عشر مصمّماً، مصمّمة واحدة منهم فقط لن تهلع لأن وظيفة في مكان آخر تنتظرها وهي تتردّد في قبولها، أحد عشر مشغّلاً لآلات الطباعة، ثلاثة منهم قاربوا سنّ التقاعد، خمسة منتجين فنّيين، ثلاثة مصمّمي ماكيت، خطّاطان، الرجل وابنه الذي تدرّب على يده، خمسة موضّبين،

أربعة مجلّدين ومذهّبين، مصوّران، محاسبان، عمّال مستودع وناقلو البضاعة، تنظيفات، سكرتاريا، اثنان وستون ذكراً بينهم ستة وأربعون متزوجون وثلاثة مطلّقين وثلاثون أنثى منهن تسع متزوجات فقط، أي إن لطفي كرم لم يكن يبالغ كثيراً عندما طلب موعداً من وزير الداخلية وهو من الحزب الذي طالما أيّده آل كرم في الانتخابات واشتكى أمامه بأن مئة عائلة مهدّدة بلقمة عيشها وبأن ضابطاً برتبة عقيد في فرع الجرائم المالية، همس له أنه درزيّ، يتحامل عليهم وقال إنه إذا أراد مالاً نعطيه مالاً لكن فليرحنا.

يتباهى لطفي من جهة أخرى بأن عائلته حققت الوحدة الوطنية فتجد عندها موارنة وأرثوذوكس وأرمن وسنّة وشيعة، حتى إنه جاء زمن في شارع عبد الوهّاب الانكليزي كان عدد المسلمين يفوق عدد المسيحيين بين العاملين في المطبعة. تخصّص المسلمون في البداية حصرياً في قسم الحروف، وصلوا بين المكتوب والمطبوع فلم يوظّف آل كرم خطّاطاً إلّا جاء من البسطا أو من حيّ بيضون وامتهنوا حفر الحروف وصهرها وصفّها وتركيب صفحاتها وكلّ ما يمتّ للكتابة بصلة.

– تأخرتم ثلاثة قرون حتى قبلتم بالطباعة وقرناً إضافيّاً لطباعة القرآن!

هكذا يعاتب لطفي كرم المعلم أنيس الحلواني الواقف أمامه كممثل لأمّة المسلمين جمعاء. يروي له من بعدها كيف شحن أحد رجال الدين الموارنة عام ١٦٠٠ مطبعة جاء بها سرّاً من إيطاليا ليطبع عليها كتاباً واحداً، ويرفع لطفي إصبعه ويكرّر:

- كتاباً واحداً!

كتاب المزامير بصفحتين، سرياني وكرشوني. لم تبق منه نسخة، هناك فقط وصف لصفحة الكتاب الأولى:

أرزة وفي ظلّها بجعة ونبع ماء وسنبلتان من القمح مع صليب وقلنسوة...

لم يكن المعلم أنيس يعرف كيف يشاطر لطفي كرم إعجابه بفعلة المطران سركيس الرزّي الذي دفع في مدينة روما ثمن الآلات وصكّ الحروف ذهباً من جيبه الخاص وأبحر بها وحمّلها على ظهور البغال مسيرة أيّام إلى دير مار أنطونيوس في أعالي جبال لبنان الشمالية. اعترضه جنود والي طرابلس العثماني لكن بعد تفحّص حمولته سمحوا له بمتابعة المسير لأنهم كانوا ينظرون إلى هذا النوع من الآلات لأول مرة وآخر مرّة في حياتهم. كما أن أنيس لم يكن يشعر شخصياً بأيّ ذنب يعود إلى قرار السلطان بايزيد في عام ١٤٨٥ ومن بعده سليم الأول الذي انقلب على والده وقضى على جميع إخوته وأبنائهم، بتحريم الطباعة بالتركية والعربية. لا أنيس ولا أمثاله الذين عملوا في تركيب السطور والصفحات وتنشّقوا لسنوات طويلة المزيج الذي اخترعه غوتنبرغ الألماني نفسه في القرن الخامس عشر ولم يدخل عليه أحد تعديلاً يذكر مذّاك، سبعون في المئة من الرصاص وخمسة وعشرون في المئة من حجر الكحل وخمسة في المئة من القصدير. أكلوا نثاره عندما كانوا في تعجّلهم يمسكون الحروف بين شفاههم أو يتقاعسون عن غسل أيديهم عندما كانوا ينتقلون من أمام مصفّة الحروف إلى مائدة الإفطار. يولدون بيضاً فتسودّ أصابعهم

بداية ثم تتحوّل سحنتهم إلى رمادية لامعة مع الأيّام فيموت أحدهم من سرطان الرئة ويعاني آخر من عوارض التعرّض لمادّة الرصاص بالرغم من النصيحة المبكرة المقدّمة من قسّ إنجيلي ذي لحية بيضاء طويلة وعينين زرقاوين، لعمّال المطبعة الأميركية، بضرورة شرب قنّينة من الحليب كلّ يوم تفادياً للتسمّم.

ثمّ جاء عمّال الطباعة الموارنة، نزلوا من جبالهم وكانوا يجيدون تشغيل الآلات ويعرفون دقائقها. طليعتهم رجل طرق باب مطبعة "كرم إخوان" في جوار مدرسة الحكمة. لم يكن في هندامه ولهجته وغلاظة أصابع يدَيه ما يوحي بتصديق ما عرّف به عن نفسه، "معلّم أوفست". كان أشبه بالعاملين في قطاف التفاح أواخر الصيف أو في صناعة سلال القصب، لكنهم جرّبوه من باب الحاجة فجلس إلى الآلة كأنّه غادرها للتوّ وبدأ يرصف السطور والصفحات بسهولة ومهارة عالية وبالحدّ الأدنى من الأخطاء. قبل بأجر معقول واكتشف زملاؤه صوته الجميل فصاروا يطلبون منه أن يغنّي مواويل العتابا ليسلّيهم وهم يعملون. ويوم غادر المطبعة أحد العاملين في خياطة الكتب اقترح الرجل الإتيان بشاب من قريته، فنّان كما قال عنه بالتخريم والتوضيب والتذهيب والتجليد. جاء من بعدها بقريب آخر امتدح مهارته وتبيّن فعلاً أنه خبير في صيانة الآلات على اختلافها، وكانوا جميعهم مثابرين يعملون بضمير ولا يتغيّبون يوماً فتوافدوا إلى مطبعة "كرم إخوان" واحداً تلو الآخر، عزوة، الأخ يأتي بأخيه أو بجاره والخال يوصي بابن أخته. تكاثروا وفاحت معهم رائحة القرية، وكانوا إذا تحادثوا بسرعة يصعب على الآخرين فهم ما يقولونه.

نزلوا جميعاً من قرية واحدة في أحد سفوح قضاء كسروان كان قد افتتح فيها رهبان مريميّون مطبعة كبيرة تعدّ كتب الصلاة بمختلف اللغات لتوزيعها في جميع بلدان الشرق الأوسط على الطوائف التي تدين بالولاء لروما، فتعلّم جميع ذكور القرية فنون الطباعة وباتت موردهم الوحيد.

لكن والد لطفي كرم بقي يفضّل المسلمين من مواليد بيروت، يقول إنهم "مُرضيين" لا يكثرون من المطالب كما هؤلاء النازحون الجدد من قريتهم للسكن في شقق ضيّقة، الذين يحضرون إلى العمل حاملين معهم "زوّادة"، وجبة الغداء من البيض المسلوق والجبن خشية هدر أجورهم في المطاعم.

بقوا غرباء عن المدينة، لا أصدقاء لهم فيها، لكن عندما اشتعلت الجبهات في الحرب حمل كثيرون منهم السلاح وراحوا يصلون الليل بالنهار فيأتون صباحاً من حراستهم في متاريس الوسط التجاري إلى العمل في المطبعة مباشرة وقد نُسب لبعضهم ردّ هجمات تسلّل ليلاً أو إرداء قنّاص كان متسلّطاً على حيّ الناصرة، أفعال خطرة لم يتباهوا بها يوماً ولا كان يمكن تصديقها بالنظر إلى انضباطهم وتفانيهم في العمل.

يفاخرون فقط بأنّ رجلاً من عندهم، مجرّد بيطار من بلدة ريفون، أعلن قيام أول جمهورية في الشرق ونصر الفلاحين وطرد المشايخ الإقطاعيين. وفي مناسبة إضراب لعمّال المطابع مورست ضغوط كبيرة على النقابة لفكّه، طبع هؤلاء الحرفيّون من أبناء الفلاحين بياناً سرّاً ووزّعوه على رفاقهم شحذاً للهمم، استعادوا فيه قسم عامّية

انطلياس عام ١٨٤٠ من أن "دروز ونصارى ومتاولة وإسلام" تعاهدوا بأن يكون بينهم "القول واحداً" ومن خان من الدروز يخرج من الشركة وتكون نساؤه طالقة ومن تراجع من النصارى "لا يكون له موتة على دين المسيح". خاف منهم لطفي لأنهم أقرباء متضامنون إذا قرّروا التوقف عن العمل يشلّون المطبعة ساعة يشاؤون فتوقف عن توظيف أقاربهم الوافدين من جديد إلى بيروت ولم يشفع لهم لديه أن تكون زوجته لا تخفي سعادتها لأنها منحدرة من قرية مجاورة لتلك التي جاؤوا منها وأخذته إليها مرّة واحدة ولم تتمكّن من إقناعه بمرافقتها إلى تلك النواحي بعدها.

عندما التقى لطفي كرم فريد أبو شَعر للمرّة الأولى وحده في المطبعة بعد مداهمة الشرطة وبعد عودة فريد تائهاً من المديريّة العامّة لقوى الأمن الداخلي، ظنّ أنّه من سلالتهم، من بقايا القرويين عمّال المطابع هؤلاء، فلّاح عالي النبرة يحكي كلاماً "أكبر" منه. أخبروه أنّ المحققين في مداهمتهم الثانية صادروا كتابه من أمامه وتلاسنوا معه ثمّ انصرفوا فلم يبدُ متفاجئاً بل ارتسمت على وجهه ابتسامة ساخرة ودار يبحث عن أنيس الحلواني.

٢٤

شيطان أزرق يسكن كتابة فريد أبو شَعر. سُرق دفتره ليلاً وأعيد إليه في أجمل حلّة ليلاً قبل أن يصادره محقّق هولندي بثياب مدنيّة في وضح النهار. أبلغ أمّه في اليوم التالي أن لا تنتظر إيابه ولا تقلق وقرّر السهر في المطبعة.

انصرف الجميع، بقي هو والحارس الليلي الذي دخل ليتأكّد من خلوّ المكان. منتعلاً حذاءً رياضياً، ظهر فجأة، لم يُسمع له حسّ ويسمّونه أبو علي.

– لم يبلّغني أحد أنّك ستعمل في الليل!

تجاهله فريد فطلب منه الحارس أن يردّ الباب الكبير وراءه عند المغادرة فيقفل تلقائيّاً. يسكن أبو علي وحيداً في شقّته الصغيرة في جوار المطبعة ويسهر أمام التلفاز.

أضاء فريد مصباح مكتبه. كان المكان خالياً إلّا من صورة مؤسِّس المطبعة بالأبيض والأسود وشاربيه المعقوفين ينظر إليه كالعادة في النهار، جلس قبالته منذ اليوم الأول لقدومه إلى هنا. فتح دليل الهاتف وغاص إلى حيث كان قد توقّف نهاراً بين أسماء العائلات بالتسلسل

الأبجدي، الأخطاء قليلة لكنّه مضطرّ إلى التدقيق في كلّ كلمة بينما أصوات البعوض الهائج ليلاً وأصوات مراوح التهوية تتصاعد مع خفوت الضجيج الخارجي. تابع أعمدة من الأسماء لا تنتهي، يرفع رأسه عنها فلا يصله ما يوحي بحدوث اختلال في رتابة المكان. تقفّى الأخطاء حتّى تعبت عيناه فكبا، القلم الأحمر في يده وذقنه مندلقة على صدره. يعرف النوم جالساً إذ تغلبه القيلولة بعد غداء ثقيل. لم يعرف كم دامت غفوته عندما أيقظته صدمة رنّانة كأنّها ضربة صنج في كاتدرائيّة مهيبة لم يتبيّن إن كانت حصلت حوله في المطبعة أم خرجت من أعماق نفسه، فظنّ للحظة أن ما توقّع حصوله سيحصل. حسّن جلوسه، أنصت وانتظر فلم تصله سوى موسيقى الحيّ الليليّة، عاد إلى دليله مصمّماً على البقاء هنا حتى طلوع الضوء. شرد في أسماء العائلات اللبنانية فغفا من جديد، أسند خدّه على يده وسرح حتّى انزلق كوعه تحت ثقل رأسه فارتطم وجهه بسطح المكتب. صرخ من الألم الذي أبقاه مستيقظاً حتى أنهى الأسماء التي تبدأ بحرف الراء في الساعة الواحدة بعد منتصف الليل. لن يبدأ بحرف جديد، ظنّ أن لا شيء سيحدث، فكّر في جمع أوراقه والعودة إلى البيت، كان تعباً وقد زال وجعه فجاءت غفوته الأخيرة أكثر أناقة. أمسك ذقنه بقبضة يده اليسرى فبقي وجهه مستقيماً والقلم بين إبهام وسبّابة يده اليمنى المتّكئة على صفحات دليل الهاتف أمامه.

وهكذا لمّا فتحت بيرسيفون باب المطبخ الموصل إلى المطبعة بعد خروجها إلى الشرفة حيث شعرت ببرودة الهواء للمرّة الأولى منذ أشهر ونزلت بضع درجات في ليل أرقها، ظهر لها صاحب المسوّدة

في وضعه التأمّلي هذا كمن يدوّن صور خياله كما تحضره تباعاً أو كأنّه بحاجبيه المعقوفين يصغي إلى صوت يهبط عليه يسجّل أقواله بأمانة. لم تفترضه نائماً من حيث رأته لأنّ جلوسه عادي وجذعه مستقيم. تقدّمت في العتمة على رؤوس أصابعها نحو دائرة النور المحيطة به كهالة، متوقّعة أن ينتبه إلى وجودها في أيّ لحظة. لم يتحرّك، اقتربت، رأت عينيه مغمضتين، نائم، أطالت تأمّل فمه وكتفيه العريضتين حتّى أيقظته، أيقظته بالنظر إليه مليّاً. رآها وشهق فرفعت سبّابتها إلى شفتَيها مشيرة عليه بأن يصمت. كأنّ أيّ كلام يتفوّه به سينبّه الحارس الليلي أو سيفسد لقاءهما.

صحا، رتّب ربطة عنقه، وقف على مهل، أمسك بزرّ سترته وتردّد في تبكيله قبل ان يستدير حول المكتب. لا تحيد عيناه عنها، يرميها بتلك النظرة التي وُلدت معه، لا يرفّ له جفن وكأنه إذا غفل ثانية واحدة عنها، إذا انقطع الخيط بينهما فسيستيقظان ويزول السحر. مدّ يده من دون أن ينظر وأطفأ الضوء لتغرق ردهة المطبعة في العتمة. طوّقها بذراعيه فالتصقت به وأغمضت عينيها، اشتمّ فيها رائحة النوم، تعانقا طويلاً في العتمة لا يسمعان سوى أنفاسهما. لم يقبّلها، لم تقبّله، كانا كالواقفَين في حلم طال حتى كسره صوت منبّه سيّارة في الخارج فانحنى فريد ليحملها، قاومت لكنّه كان حازماً فاستسلمت لقوّته وشبكت يديها حول عنقه فمشى بها باتّجاه آلة الهايدلبرغ XL 162.

كان قد خطّط لوجهته هذه لو فاز بها ليلاً، حلم يقظته منذ التقى بها في مكتب زوجها يوم دخوله المطبعة للمرّة الأولى وما انفكّ

مذّاك يراجعه. اختار أمكنة عديدة تجمعهما، فندق صديقه أيّوب، بيته في فرن الشباك، في غرفة نومه يوم تغيب والدته وحتى منزل العائلة في القرية، فوق، رغم صعوبة هذا الاحتمال. افترض عرضاً أن يلتقيا هنا بين الآلات فانتبه إلى أريكة يرتاح عليها سائقو الطابعة بعد وقوفهم الطويل.

خلوة مستورة خلف جدار الآلة الكبيرة حملها إليها وهو يُمسك أطرافه عن الارتجاف من الإثارة فأكمل تفاصيل حلمه بها، لقاء جسديهما، يحتضنها فتتوغّل فيه. يودّ لو لم يكن الممرّ بين آلات الطباعة ضيّقاً أن يدور بها على مدى ذراعيه راقصاً قبل أن يُنزلها بتأنٍّ على المقعد، كالغائبة المنتشية تستلقي وتستقبل انحناءته فوقها ويداه القويّتان ترفعان وجهها نحو وجهه فيروح يعبث بعنقها تقبيلاً. كانا في شبه غيبوبة بين الأرق والنوم، يتشابكان بكثير من الإثارة وكثير من الحنان، همس وقُبل في كلّ مكان. بين تنهيدتين، رفع قميص نومها وأجلسها في حضنه فدام التصاقهما ودخوله بها في رغبة لم تكتمل بملامسة عري الجسدَين، وقتاً كان يصعب على أيّ منهما تقديره.

بيرسيفون هي التي قطعته. فجأة وضعت كفّيها في صدر فريد وأبعدته عنها، أفلتت منه وانتصبت واقفة كأنها أدركت للتوّ أين هي وماذا تفعل، نظرت حولها تتأكّد من فراغ المطبعة من الإنس وردّت ثوب نومها عليها. بقي فريد جالساً على الأريكة مسترخياً مدهوشاً بما حصل لهما فأسرعت هي على رؤوس أصابعها إلى مكتبه لتنتعل خفّيها وتمرّ بجانبه من جديد، هاربة، تضع يدها على فمها وتقول بالفرنسية كلاماً بين النوم واليقظة عن المكان ورائحة المكان.

لم يفهم كالعادة. حاول الكلام، الاستفهام، لكنّها فرّت صعوداً عبر درج الحجر.

لملم نفسه، وقف عائداً إلى مكتبه حيث بقي لدقائق مسترجعاً جلوسه لحظة ظهورها المفاجئ، ترك دليل الهاتف مفتوحاً حيث توقف عن التصحيح وخرج. ردّ باب المطبعة وراءه. كان الجوّ منعشاً وأذان الفجر يطلع ضعيفاً من مذياع في غرفة الحارس الذي تبيّن لاحقاً أنه لم ينم وسهر واقفاً خلف النافذة ينتظر خروجه. سمع المصحّح الكاتب هرّتين تتبادلان الخرمشات. رمى نظرة إلى فوق، إلى النافذة وتوجّه إلى بيت أمّه سيراً على الأقدام. كان يصفّر فرحاً مع جهجهة الضوء في شوارع بيروت، يسبح فوق موجة من الحبور، يتنشّق ما بقي في ثيابه من رائحة المرأة ويكرّر اسميهما كتعويذة، فريد وبيرسيفون. لا يحبّ اسمه هو، قريب ورتيب، إذا تزوّج وأنجب ولداً فسيسمّيه أدونيس، لا شيء أصدق من الميتولوجيا. المدينة تستيقظ على مهل، يردّد مقطعاً زجليّاً حفظه غيباً عند عبوره في جوار كليّة الطبّ الفرنسية ويقول مطلعه:

تهنّى يا شعر فيّي تهنّى،
أنا البلبل سمع صوتي تا غنّى...

يبتسم في وجه المبكرين إلى أشغالهم الصغيرة من عمّال بلدية بيروت أو العائدين متعبي الوجوه من سهر طويل. كان قد قرّر تحمّل جوعه حتى وصوله إلى مطبخ أمّه لكنّه لما اقترب من البيت رأى مطعماً صغيراً يعرفه في أول شارع الصليب الأحمر يفتح بابه فجراً

للمبكرين، انتظر حتى حضّر صاحبه الفول الساخن فقدّم له كالعادة صحناً طلب الإكثار من زيت الزيتون وحامض الليمون فيه. أطيب ما يؤكل فجراً ويُطعِم يديه حتى الكوع بلقم خبز كبيرة وبصل وقرون من الفليفلة الخضراء الحارة. هدأت أفكاره بعدها فطاب له النوم مع اشتداد حماوة شمس النهار.

٢٥

دهمت شرطة مكافحة الجرائم المالية برئاسة العقيد حاطوم المطبعة مرّتين متتاليتين والأمر لم يكن جديداً، فقد اعتادت "كرم إخوان" الزيارات العسكرية. قبل مئة عام وبعد فتح أبوابها بوقت قصير دخلها من دون إذن ولا موعد ضابط يُدعى ألكسندر فردينان ماري دو بارسيفال على رأس رهط من الجنود الفرنسيين. خاف فؤاد كرم ألّا يُكتب له الهناء طويلاً في مهنته الجديدة، مخططاً في سرّه لدعوة النقيب إلى كباريه "التباريس" المجاور وتقديمه إلى الفتيات كسباً لودّه، ونادماً مرّة جديدة لأنه لم يختر السفر إلى الاسكندرية. كان رئيس الدائرة الجغرافية في "قوات المشرق" مشغولاً بأسراره الحربية، سحب خرائط تفصيلية لقيادة الأركان وترسيمات إدارية وإحصاءات سكانية للدول الخمس المزمع إنشاؤها في بلاد العلويّين وفي كلّ من دمشق وحلب مع دولة للدروز في حوران بالإضافة إلى دولة لبنان الكبير التي استدعى أوّل حاكم لها فؤاد كرم إلى السرايا الصغيرة لتأنيبه. كانت صحيفة "المعرض" التي تطبع عنده قد نشرت رسم كلب ينبح في أسفل صفحتها الأولى من دون أيّ تعليق حتى

سرت افتراضات فتلميحات فتأكيدات وصلت إلى آذان الفرنسيين بأنه يرمز إلى الحاكم ليون كايلا الذي لم يدعُ فؤاد للجلوس بل صرخ في وجهه كلاماً بالفرنسية يهدّده بالإقفال ويتّهمه بنكران الجميل.

- كان يجب أن نترككم تحت نير الأتراك...

كذلك دهم جنود الانتداب المطبعة في طريق الشام لمصادرة صحيفة "البرق" لأن صاحبها الأخطل الصغير الذي كان يحرّرها وحده، رثى فيها ملك العراق صديق الإنكليز فيصل بن الحسين على الصفحة الأولى بالقول:

لبسَتْ بعدَك السوادَ العواصمُ
واستقلّت لك الدموعَ المآتمُ.

وهذا ما اعتبره الفرنسيون تحدّياً لهيبتهم يستوجب العقاب.

وفي الحرب العالمية الثانية أمر المسيو جان هيللو بمصادرة البيانات الداعية للإفراج عن السياسيّين المعتقلين في قلعة راشيا والمطالبين بالاستقلال كما فرض الرقابة المسبقة على الصحف لكنّه كان يطلب الاطلاع على الافتتاحية التي غالباً ما كان يبقى مكانها أبيض إلى يسار الصفحة الأولى من "الأوريان". بعد جلاء القوات الأجنبية، نشطت شرطة الأخلاق اللبنانية الجديدة في البحث عن صور نساء عاريات نُمي إلى مديرها أنها تُطبع لدى "كرم إخوان" ثمّ بدأ "المكتب الثاني" كما كانت تُسمّى المخابرات العسكرية بالتدخّل في الصغيرة والكبيرة وكان اختصاص جهاز الأمن العام شؤون الأديان والطوائف فاستدعى مديره صاحب المطبعة وبعد

مقدّمة أعلن فيها أنه شخصياً مع حرّية النقد وصولاً إلى الإلحاد، نقل له استنكار رجال دين مسيحيين إقدامه على طبع آلاف النسخ من الكتاب المقدّس كما يريده شهود يهوه وقيل إن فيه تحويراً للعقيدة المسيحية. كان متطوّعون من العصبة يدورون به على البيوت ويوزّعونه مجّاناً حتى صارت بعض العائلات المتزمّتة تلصق على باب شقتها صورة العذراء مريم وعبارة: "لا تقرع الجرس إن كنت من شهود يهوه". أبلغه بالمناسبة نفسها غضب البطريرك الماروني من طباعة بحث تاريخي يقدّم صاحبه البروتستانتي براهين على أن المسيح عاش في جنوب غرب المملكة العربية السعودية الحالية بناءً على تطابق في أسماء الأمكنة الواردة في الكتاب المقدّس وأنه كان له أشقّاء ذكور وإناث، ساخراً من عقيدة الحبل بلا دنس. وكانت الورطة الكبرى في طبع كتاب لم يدرِ لطفي كرم مدى خطورته. حضر رجل مهذّب ومرتّب وطلب طباعة مخطوطة بعنوان **رسائل الحكمة** على حسابه فأحدث خضّة في حينه كادت تودي به هو والمؤلف إلى السجن إذ تبيّن أنّه يكشف للمرة الأولى على الملأ أسرار العقيدة الدرزية الباطنية. تكرّر الأمر بعدها مع كتاب يذمّ صحابة الرسول.

حدث ذلك كله في زمن جميل لاحت فيه الآمال الوطنية حتى هُزمت الجيوش العربية في حرب الأيّام الستة واحتلّت إسرائيل المزيد من الأراضي العربية فحمل الفلسطينيون السلاح من كلّ نوع وخرجوا من مخيّمات اللاجئين وانقسموا فصائل متنافسة بأسماء متشابهة تهوى جميعها طبع البيانات وصور الشهداء المزّينة بأبيات شعر لسميح القاسم ومحمود درويش. ضجّت بيروت بلافتات

تدعو إلى رفض الحلّ السلمي مع العدوّ وإلى استقلال الصحراء الغربية ووادي الذهب وأخرى لتحرير إريتريا من حكم الإمبراطور هيلاسيلاسي، وصوّرت فتاة بيروتية يهودية المنشأ فيلماً وثائقياً بعنوان "لدينا الموت كلّه كي ننام" يبدأ بأغنية

ساعة التحرير دقّت برّا يا استعمار،
ساعة التحرير دقّت بين عُمان وظُفار.

كذلك سارت تظاهرة للمطالبة باسترداد الجزر الإماراتية الثلاث من الهيمنة الإيرانية، ووُزّعت بيانات ومقالات تبشّر بحتمية سقوط الطغمة المالية الكمبرادورية اللبنانية تحت ضربات تحالف العمّال ومزارعي التبغ والمقاومة الفلسطينية. مواكبة لهذا البرنامج الكبير كانت تُطبع مؤلفات كيم إيل سونغ وتُعطى من دون مقابل، وتناقش مقولات لينين حول الدولة والثورة بورع تفسير الكتب المقدّسة، وتباع بكثرة أشرطة يغنّي فيها الشيخ إمام "يا مصر قومي وشدّي الحيل"، بينما كان يقف شاعر آتٍ من قرية فقيرة في جنوب لبنان على منبر إحدى الجامعات، يصيح أمام حشد هائج من الطلّاب:

بيروت يا بنت الحديد الصلب
يا بنك الدماء الآسيويّة
يا سفّاحة من ألف مجهول الهويّة.

انفجرت شحنة ناسفة عند باب مطبعة آل كرم ليلاً وكانت بمثابة تحذير تلاه تهديد هاتفي بتدميرها بالكامل إذا أكملت إصدار ديوان

لشاعر عراقي هارب من بلاده جاء ليصحّح كتابه فوجده لطفي كرم رثّ الثياب، ربّما لم يستحمّ منذ أشهر، وكانت قصائده التي يقول فيها أبياتاً من نوع

إنّهم يطلقون النار، آه، على الربيع،
سيذوب ما جمعوه من مال حرام كالجليد

في إشارة إلى النظام الديكتاتوري هناك تصل إلى بغداد بقدرة قادر. وُجد بعد أيّام مطعوناً بسكين في قلبه وقد نزف دمه حتى الموت ولم تُعرف ظروف اغتياله لأن المحققين لم يجدوا آثاراً للخلع أو للدخول عنوة إلى غرفته الرثّة لجهة حيّ الروشة.

اشتعلت الحرب الأهلية وشاع التوقيف على الهويّة فخُطف اثنان من العاملين لدى "كرم إخوان" مقيمان في بيروت الغربية وأطلق سراحهما بعد وساطة كبيرة فانقطع المسلمون عن المجيء إلى المطبعة في حيّ الجمّيزة المسيحي، حيث بقي المعلم أنيس وحده ينام في المطبعة بسبب الحاجة الماسّة إليه قبل أن "يُهرَّب" إلى البسطة للاجتماع بعائلته والبقاء هناك حتى وضعت الحرب أوزارها. سقط أحد عمّال المستودع قتيلاً برصاص القنص وكان في طريقه إلى العمل في المطبعة، وتوقفت الطباعة قبل أن تعود وتتأقلم مع أحوال الحرب فصارت الميليشيات المسلّحة أهم الزبائن يكبّر لها لطفي كرم تفاصيل خرائط المنطقة المقابلة لتحديد "إحداثيّات" الأهداف المطلوب قصفها بالمدفعية، يقف على طباعتها عنصر ممّن يسمّون أنفسهم "سلاح الإشارة" ليضمن عدم تسريبها، يصدرون

مجلة مكتوبة بالعربية لكن بالحرف اللاتيني كان يُعاد تصحيحها عشر مرات يدبّجون فيها قصائد في مديح بلاد الأرز، يصنعون فيها لأنفسهم نسباً يرقى إلى الذين أعطوا الحرف والأرجوان إلى العالم واختُطفت "ابنتهم" من حاضرة صور لتؤسِّس أوروبا. يطبع لهم لطفي كرم مجّاناً صور شهدائهم المظللة برسم الأرزة وعبارة "مات ليحيا لبنان" فيؤمّنون له بالمقابل استيراد الورق من دون رسوم جمركية، وفي يوم كان يجري فيه إنزال حمولة من إحدى البواخر وقعت على لطفي من الرافعة رزمة ورق ضخمة سحقت رجله فصار بعدها يحمل العصا كي يتمكن من المسير.

رغم هذا الحادث اعتقد آل كرم أنهم نجوا من الحرب الأهلية بأقل الخسائر قبل أن تنفجر قذيفة مدفعية ربّما تكون من القذائف العشر الأخيرة التي أطلقت في سماء المدينة عشيّة إبرام الاتّفاق النهائي الذي يوزّع السلطة بين الطوائف، انفجرت ليلاً في المطبعة وتلاها حريق تمكن الجيران في هلعهم لاحتمال امتداده إلى بيوتهم من محاصرته وإخماده. انتهت الحرب بتدمير سبع مطابع في بيروت وضواحيها ونهب اثنتي عشرة وإقفال عدد مماثل وتقادم آلات ومعدّات غالبيتها بحيث عجز أصحابها عن تجديدها فدخل مجال الطباعة وافدون جدد كما تسلّق إلى المراكز السياسية الكبيرة أمراء حرب أبعدوا الزعماء التقليديين. "مطبعة كرم إخوان، ١٩٠٨" كانت من القلة القليلة التي بقيت على قيد الحياة.

٢٦

لم يحتج جوب فان دو كليرك إلى أكثر من مجهر من مختبر الأدلّة الجنائيّة في المديرية العامّة لقوى الأمن الداخلي ولسائل بنفسجي استخدم منه نقطتين لا أكثر على قصاصة صغيرة ليؤكد المؤكّد، أي إنه عثر على الورق المطلوب والمطابق.

كتب تقريره على نسختَين، واحدة رفعها إلى المدّعي العام اللبناني والثانية أرسلها بالبريد الإلكتروني إلى منظمة الأنتربول وانتظر في بهو فندق "لو غبريال" ورود التعليمات من مدينة ليون. يتابع حركة النزلاء والمارّة في الشارع من خلف الزجاج، رجل بدين يلبس الثوب الأبيض الطويل والكوفية العربية يسبق زوجته المنقّبة بالأسود في الدخول من باب الفندق الدوّار، يكلّمها عالياً من دون أن يلتفت إليها. أربعيني يعتمر قبّعة أميركيّة سوداء، غارق في مقعد جلدي وفي حاسوبه "الأبّل" النحيف. شاب ينزّه كلباً ضخماً يخيف راهبتين شابّتين كانتا تسرعان في الاتّجاه المعاكس.

ثمّ ينتقل ليتأمّل بين يديه الصفحات التي طبعها المعلم أنيس الحلواني بأدوات جدّه عبد الحميد نزولاً عند رغبة من السيدة

بيرسيفون ملكي. ما افترضه مجرّد تزيين لصفحة الغلاف كان في الواقع هو عنوان الديوان، رسمة واحدة في وسط الصفحة الأولى، كلمة "الكتاب" كما استقرّ على تسميته فريد أبو شَعر في نهايةِ الأمر، وكما خطّها عمر البازرباشي على ورقة مستقلة. مثلّث استُخدمت فيه الألف المائلة ضلعاً وظهْر الكاف ضلعاً ثانياً والباء قاعدة، وقد وُضّب باقي العناصر داخل هذه الخيمة، اللام والتاء ونقطة الباء التي أسقطت فوق خطّ حرفها العمودي لا تحته مع نقطتَي التاء سابحتَين داخل المثلّث من دون إهمال كسرة الكاف وفتحة التاء والسكون الموزّعة في فضاء الصفحة.

أمّا اسم المؤلف فكان منساباً ومتتابعاً، كُتب بخط مورّق مع تظليل خفيف. وكان المعلم أنيس، إخفاءً لآثار المهمّة التي ينفّذها بدقّة، قد طلب من البازرباشي أن يخطّ له بحرف الثلث، ضمن إطار، أربع كلمات شائعة هي الخديعة والغرام وبيروت والكتاب، كلّ كلمة على ورقة مستقلة بقياس الـA4. كما طلب منه أن يخطّ بالحرف الكوفي وبحجم أصغر قائمة بأسماء العاملين في مطبعة كرم إخوان أورد بينها تمويهاً اسم عمر البازرباشي نفسه واسمه هو، أنيس الحلواني، واسم المصحّح فريد أبو شَعر. وكان الخطّاط قد اعتاد منذ دخوله المطبعة هذا النوع من الطلبات ولم يعد يسأل حتى عن وجهة استعمالها.

لم ينتبه جوب فان دو كليرك وهو يفتح الصفحات في أيّ اتّجاه تُقرأ سطور اللغة التي يتأمّل حروفها وقد ثقل رأسه قليلاً بفعل كؤوس النبيذ الأبيض اللبناني الثلاث التي احتساها مع الغداء، إلّا عندما أدرك أن الأحرف الاستهلالية للمقاطع تَرِد دائماً لجهة اليمين، فراح

يقلّب الأوراق في هذا الاتّجاه. يتوقّف عند هذه المربّعات المزخرفة، العين المتجمّعة على نفسها والتي تذكّر بكأس اسكولاب والأفعى الملتفّة حوله كما تظهر على أبواب الصيدليات، أو الفاء الممدّدة على ظهرها، نصف أوداليسك ونصف فتاة سمكة مع ذيلها المزهر بنفسجاً وأعشاباً في كلّ اتّجاه، والجيم التي تمطّ رجلها إلى أعلى فتتفرّع كعنكبوت تصنع رمزاً هيروغليفياً يستحيل تفكيكه.

تمرّ فتاة بكامل أناقتها تمشي كأنها فوق منصّة الأزياء وترمق العملاق الهولندي الأزرق العينين بنظرة اهتمام فيستعيد ما قيل له عن حبّ الحياة وعن المخاطر التي تحيط ببيروت. يتمنّى أن تطول إقامته هنا بعد أن بدأت مفاجآته فور نزوله من الطائرة. كان ما يزال وسط زحمة السير في سيارة الشرطة التي أقلّته من المطار وشغّل الدركي سائقها منبّه الطوارئ فيها من دون سبب، عندما تلقّى على هاتفه المحمول رسالة نصيّة من هاتف رقمه محجوب. معلومة دقيقة كُتبت بالفرنسية:

"اقصِد مطبعة كرم إخوان في حيّ الأشرفية شرق بيروت تجد هناك مصحّحاً للغة العربية. صادر كتاب الشعر من أمامه فتجد ما تبحث عنه من إثبات".

رقم هاتفه مدوّن على أمر المهمّة الذي أبلغ السلطات المحليّة قدومه إلى بيروت. اشتمّ رائحة المكيدة في الرسالة النصيّة وقبلها، قرّر التريّث في تجريم الأشخاص قبل التأكّد التامّ واعترافهم الصريح. طلب من الشرطية المرافقة له أن تساعده في اليوم التالي في المداهمة وفور دخولهم ردهة مطبعة كرم إخوان همست بإنكليزيتها التي

اختيرت بسببها لمساعدته بأن صاحب ربطة العنق الحمراء الفاقعة، هناك إلى اليمين، هو مصحّح اللغة العربية وأنّ أمامه بالفعل كتاباً. مشوا إلى الآلة الكبيرة ثمّ التفوا واقتربوا فجأة، لمس الهولندي ورق إحدى الصفحات وحملها كلّها.

يذكر جوب فان دو كليرك جيّداً وجه المصحّح المروّع في تلك اللحظة، كيف وقف بطوله معترضاً كمن يردّ طعنة في القلب، يداه ممدودتان إلى الأمام باتّجاه المحقق المبتعد نحو المدخل وعيناه تقدحان ناراً قبل ان يسقط جالساً يائساً لا يفهم ما يحدث له. كان منظره وسلوكه العفوي البريء دليلاً أمام المحقق على احتمال التلاعب بالتحقيق وإرساله خلف فرضيات خاطئة.

يعود الهولندي المتثائب إلى تأمّل الكتاب بحلّته الأنيقة النادرة، حروف متشابكة متعانقة تمطّ أطرافها إلى أعلى، حروف خطّ الثلث التي حفرها وصبّها عبد الحميد الحلواني في اندفاعة شبابه بعد أن قال له المستر بيرسون خلال عمله مع الأميركيين: نحن جئناكم بالمطبعة وأنتم عليكم تعريبها. حروف منوّنة ومحرّكة بالكامل، تحيط بها الفراشات والفواصل السابحة والحروف المنمنمة. كلمات تتقدّم كأنّها محمولة على هودج من الإشارات. ولأنّ زينتها لا تكفي، زُنّرت كلّ صفحة من الصفحات بإطار من الجهات الأربع ما قلّص المساحة المستخدمة وأعطى الكلمات المطبوعة فيها مزيداً من الأهمّية، هوامش عريضة تتراقص في داخلها الطيور والقيثارات السماوية والملائكة الصغار إضافة إلى أكاليل من ورق الغار.

أعطى الحلواني كلّ ما في حوزته لإرضاء السيدة بيرسيفون،

سارع إليها فور إنجاز النسخة التي أرضته، تصفحتها بمسرّة ظاهرة وهي تسرق نظرة إلى أنيس كأنها لم تتوقّع من صديق العائلة الأمين كلّ هذا الإتقان والأناقة. نظرت مباشرة في عينيه وسألته إن كان قد أخبر زوجها أو والده بما فعل فهزّ رأسه نافياً، وإن كان طبع نسخة واحدة فقط فهزّ رأسه بالإيجاب. كان ورفاقه في حيّ البسطة في صغرهم لا يعتبرون إيماءة الرأس اعترافاً أو إنكاراً ما لم يرافقها كلام.

أراد أنيس أن يخلّد ذكرى جدّه عبد الحميد. لم يعتقد أن فرصة أخرى سوف تسنح له فاستعان بكل ما حفظته جدّته أم مصطفى في مطبخها تحت مراطبين المربّيات والمكدوس، المزيّنات بين المقاطع أو تلك التي تختم الفصول، مستطيلات ودوائر متداخلة، ورود متفتحة وتلك الرسمة النهائية الرائعة لملاك عارٍ، طفل يطلق من قوسه سهماً ويجلس على عرش من النبات المبعثر بانتظام يميناً ويساراً.

نهض جوب فان دو كليرك عن مقعد الردهة الوثير يتسكّع في متجر الكحول والمكتبة المجاورة للفندق. في المساء أخبره العقيد رئيس مكتب مكافحة الجرائم المالية حول طاولة مرصوفة بصحون المازة اللبنانية أن أصحاب مطبعة كرم إخوان أناس مرموقون ولهم علاقات جيّدة مع أهل الحلّ والربط في البلاد وأن المحققين اللبنانيّين لم يعثروا عندهم على أدلّة لا في المحفوظات ولا في الحواسيب. كان دو كليرك يفكّر في أمر آخر:

– من يقرأ المراسلات بيني وبينكم، من يمكنه أن يعرف رقم هاتفي هنا؟

لم يشأ إخباره بالرسالة النصيّة الغريبة.

- لا أدري، لكن يطلب منا البعض رقم هاتف المحققين لتزويدهم بمعلومات خاصّة.

لم يقتنع الهولندي بجهل العقيد الذي بدا محرجاً وانتقل إلى موضوع آخر فذكر له أنّ شاباً يعمل في المطبعة نفسها قصده في مكتبه ليطالبه بمخطوطة يقول إنّ عناصر المكتب صادروها. أثبتت المصادفة لجوب فان دو كليرك مرّة إضافية أن أمراً يحدث من خلف ظهره فسأل:

- طالبك بمخطوطة أم بكتاب مطبوع؟

- أذكر أنه تحدّث عن دفتر غلافه أحمر وصفحاته مكتوبة بخطّ اليد.

تبادل الرجلان أوصاف الشاب وخصوصاً حاجبيه المرفوعين فتأكدا من أنهما يتحدّثان عن الشخص نفسه واتفقا على استدعائه لاستجوابه معاً ولو أن جوب كان يشعر بأن رئيس دائرة مكافحة الجرائم المالية لا يشاركه كلّ ما في حوزته من معلومات.

٢٧

كان حسين الصادق قد اتّصل هاتفياً بالمطبعة للمرّة الأولى قبل زواج عبد الله، أرسل طاقماً من البورسلين المرسوم باليد، هديّة عند عقد القران، زار المكتب وفي يده خاتم فضّة في وسطه حجر من الزبرجد الأخضر ويتدلى من عنقه سلسال في طرفه سيف. بدأ بإبلاغ لطفي كرم ونجله تحيّات والده، صديقهما القديم. أقفلوا الباب كي لا يقاطعهم أحد، كال المديح طويلاً لعراقتهم في الطباعة هم المشهود لهم لا فقط في لبنان بل في العالم العربي. شكراه فأخرج من جيبه مفتاح "يو أس بي" وضربه على الطاولة وقال بصوته النحيل:

لكنّ مطبعتكم على حافة الإفلاس، إنها خسارة كبيرة للبنان، ديونكم في المصارف بالملايين وبالدولار الأميركي وهذا هو الحلّ! لدى الحاج أبو حسين الكثير من الأصدقاء لكنه يحبّكم ويفضّلكم على الجميع.

حاولا الاعتراض فأكمل غير مبالٍ:

- لا تنكروا، تعرفون أن لدينا مصادرنا العليمة...

يعرفان الرجل الذي لم يقصد مدرسة في حياته، أمضى طفولته

يساعد في زراعة التبغ قبل أن يهاجر يافعاً إلى ساحل العاج فأوصلته صداقة الصدفة مع ضابط قاد التمرّد في شمال البلاد إلى الاتجار بالالماس بين أفريقيا وسوق أمستردام. جاء إليهم في خلال عطلة يمضيها في لبنان وكان يريد طباعة **نهج البلاغة** للإمام عليّ طباعة قيل له أنْ لا أحد قادر على إنجازها بأناقة أفضل من "كرم إخوان" فأوصى على ثلاثمئة نسخة مع تجليد فاخر بالمخمل لكي يهديها على التوالي إلى كلّ معارفه وزبائنه وأقاربه. عاد مرّة أخرى لتجليد عشر نسخ من **بحار الأنوار** لمحمد باقر المجلسي بأجزائه الأربعين كاملة، كان مرحاً ضخم الجثة وعالي الصوت، سمعا بأنه متورّط في أعمال التهريب وباتت له علاقات سياسيّة جديدة نافذة تحميه من أيّ ملاحقة.

أدخل عبد الله المفتاح في حاسوب المكتب أمامه وأشار من بعدها على والده بالاقتراب للنظر إلى صورة العشرين يورو وجهاً وقفا. كان صمت طويل تخلله تأمّل في الفوائد والمخاطر قطعه حسين الصادق بالقول:

تشاوروا على مهل ونلتقي في الأسبوع المقبل. وأضاف برهاناً على سعة اطّلاعه:

- على كلّ حال، لديكم خبرتكم في ذلك...

كان ذلك تلميحاً لما حدث قبل أربعين عاماً ولم يكن الشاب قد وُلد بعد، "خبرة" دامت أسابيع معدودة. يوم حُمل السلاح ونُصبت المدافع وانقسمت العاصمة شطرَين خطرت لبعضهم فكرة إغراق بيروت الغربية بالعملة المزوّرة لأن الحرب عندما تستعر تخاض بجميع أنواع الأسلحة كما قال. أقنعوا لطفي كرم بتقليد فئة

المئة ليرة الزرقاء، غابة الأرز من جهة وقصر بيت الدين من الجهة الأخرى. تخيّلوا خصومهم في الجهة المقابلة من العاصمة يتخبّطون وسط فيض من أوراق عملة بلا قيمة تضرب "اقتصادهم" وتوقع البلبلة في صفوفهم فتضعف مقاومتهم. طبعوا بالتعاون مع رسّام حمولة أكياس عديدة من العملة غير المُقنعة لا يعرفون كيف ومن أين يبدأون بتصريفها حتى وفّقوا بجماعة مسلّحة طلبت منهم شحنة رهنت مقابلها أواني وتماثيل قالت إنها فينيقية ليتبيّن لاحقاً أنّها مقلّدة بدورها ولا قيمة لها. نجحت الجماعة في فترات الهدوء النسبي بين جولات القتال في تسريب بعض الاوراق إلى هنا وهناك لكن مفعولها كان محدوداً جداً خصوصاً أن اكتشافها كان سهلاً بسبب ملمسها الخشن وقد "عاد" القسم الأكبر منها إلى المنطقة الشرقية التي انطلقت منها. انتشر الخبر فصادرت الميليشيات باقي العملة من مطبعة الجمّيزة وحذّرت لطفي كرم من التمادي في هذه الممارسات من دون أن ينسّق مع القيادة وانتهى الموضوع.

عاد حسين الصادق وتصرّف كأنه متأكّد من موافقتهما فأخرج من جيبه صفحة ممزقة من كاتالوغ عليه اسم ومواصفات وصورة الهايدلبرغ XL 162.

- تستوردون هذه الآلة بالتحديد ونحن نعفيها لكم من الرسوم الجمركية...

اقترح عليهما اتّفاقاً مالياً حرّر لهما بموجبه في نهاية الجلسة شيكاً بأربعمئة ألف دولار أميركي مساهمة في المشروع على أن يتدبّر آل كرم باقي المبلغ الكبير على أن يجري حساب لاحق على كل

المصاريف. أصيب عبد الله بتفجير بيروت فتوقف كلّ شيء بانتظار تعافيه ووصول آلة الطباعة الجديدة. عاد حسين بعد ستة أشهر، نظر مليّاً إلى الجرح في وجه عبد الله، طلب سرداً تفصيلياً لما حصل معه وسبب وجوده على مقربة من الانفجار ووصف للعمليات الجراحية التي خضع لها واطمأنّ على حاله الصحيّة الراهنة ثم دخلوا في التفاصيل:

- من يبقى في المطبعة ليلاً؟
- لا أحد... سوى الحارس.
- من هو الحارس؟
- عراقي.
- عراقي هنا؟
- شخص مستقيم، مسيحي سرياني مهجّر من نواحي الموصل، له زوجة وولد.

لم يرتح حسين لمواصفات الحارس الليلي:

- تصرفونه ونأتي نحن برجل صاحب خبرة وأمين، عازب ويسكن وحده.
- وماذا نفعل بهذا المسكين وعائلته؟
- لا يمكننا المجازفة.

اتفقوا على أن تعمل الآلة نهاراً كأنها جزء من المطبعة، ومرة واحدة في الأسبوع، أصرّ حسين على ذلك من دون أن يفصح عن السبب، مرة واحدة فقط، يحضر شخصان يشغّلان الآلة ليلاً ولا يتركان وراءهما أدنى أثر.

سأله لطفي:

- وهل يعرفان الهايدلبرغ؟

- تدرّبا عليها في ألمانيا، أرسلناهما خصيصاً.

أجاب الشاب من دون مزيد من الإيضاح مثيراً إعجاب سامعيه ومتسائلاً عن فريق العمل من الجهة المقابلة:

- نحن والمعلم أنيس فقط...

نفر الرجل من جديد:

- من هو هذا المعلّم أنيس؟

- أنيس الحلواني.

- من أين؟

- من بيروت.

- أيّ بيروت؟

- من البسطة.

تأكدت خشيته:

- لو أردنا إشراك مسلمين في هذه القضية لما قصدناكم. على كلّ حال أنتم مسؤولون عن سلامة المكان وسريّة العمل.

طمأناه:

- تربّى أنيس الحلواني عندنا، والده عمل في مطبعتنا وجدّه، نحن نكفله!

برهن أنيس كم هو مفيد من بداية الطريق، خاف عند إطلاعه على المشروع ثم تقبّله كمنفّذ غير مسؤول لأوامر أصحاب المطبعة كما هو فاعل في سائر الشؤون ولمعت عيناه حين طرحت مسألة الورق

الملائم لطباعة العملة:

- دعوني أهتمّ بالموضوع!

يوم قرّر المصرف المركزي تجديد فئات العملة وطبعها في لبنان أطلق مناقصة عجز عن فضّ عروضها بسبب ضغوط سياسية وتهديدات ورغبات في تقاسم المغانم ليعيد تلزيمها كما جرت العادة حتى يومها إلى شركة توماس دو لارو البريطانية. كانت إحدى المطابع في بيروت متأكدة من رسوّ المناقصة عليها فسارعت إلى شراء أطنان من الورق الخاص بصنع العملة بقيت في مستودعها وتذكّر أنيس أنها عُرضت بعد ذلك للبيع بأقلّ من كلفتها. نقلها بشاحنة أنزلت حمولتها في القبو الأخير حيث أخفاها في الفسحة داخل الجدار. درج بنّاؤو العقد الحجر على توفير مخبأ في كلّ بنيان يرفعونه وقيل أمام أنيس إن مخبأ المطبعة هذا كان يُستخدم مخزناً للأسلحة. إنه سرّه هو ولطفي كرم، حتى عبد الله لا يعرف بوجوده، وبات أنيس مسؤولاً عنه. كلما حضر الخبيران الليليان كان يحرص على الدخول إلى القبو الأخير وحده ويخرج لهما كمّية الورق المطلوبة فقط.

لم تكن الصعوبة في الطباعة عن صورة رقمية بل في دمج معايير السلامة في الورق والطباعة المتوازية على الوجهين، ما استلزم محاولات طويلة للتحسين التدريجي وصولاً إلى تلك الليلة الحاسمة التي أمضاها لطفي وأنيس وحسين وهم يقارنون العملات غير مصدّقين. رفعوا ورقتهم عشرات المرّات إلى الضوء ليتأكدوا من خطوطها المائية ويثنوا على دقّتها وتوقيع حاكم المصرف المركزي الأوروبي عليها ورقمها المتسلسل الوهمي وخريطة أوروبا وشريطها الممغنط.

اكتمل الإعداد والتنظيم فنشبت ما سُمّيت حرب تموز، غارات طيران إسرائيلية لا تُحصى وإطلاق صواريخ في كلّ اتّجاه، مئات القتلى وتدمير جميع الجسور وهجرة عشرات الآلاف من منازلهم، فتراخت رقابة الدولة وانطلقت أولى شحنات اليورو الفنلندي من مرفأ بيروت بانتظار إعادة افتتاح المطار في فصل الخريف. عندها جُنِّد مسافرون وهميّون لحمل الحقائب إلى أفريقيا وإرسالها من هناك بحراً أو جوّاً إلى حيث يمكن بيعها لمروّجين محترفين. كانت العائدات توزّع بنسبة الربع لمطبعة كرم والربع لآل الصادق والنصف للطرف الخفيّ الذي يهتمّ بتأمين الطرق والنقل والتوزيع وجني الأرباح بعملة حقيقية.

٢٨

أيقظته أمّه عند الظهر. لن ينزل إلى مسرح فعلته، قد ينتبه الجميع إلى أنّه يوجّه جلوسه خلف مكتبه نحو درج الحجر بانتظار نزول بيرسيفون إلى المطبعة. كان يرغب في التحدّث عنها، لفظ اسمها بصوت مسموع، لن يجد سبيلاً لاستحضار سيرتها مع أمّه التي ستنصحه عند أيّ إشارة منه إلى النساء بالزواج بدل التلهّي هنا وهناك، أسرع مع أول الغروب إلى "لوس لاتينوس".

كان الراديو في سيّارة الأجرة ينقل أخبار الاشتباكات المسلّحة من محيط جامعة بيروت العربية. السائق ينافس المذيع ويغطّي على صوته مستنكراً متحسّراً على أوضاع البلد، لم يلتقط فريد من هذا البثّ سوى أصوات الرشاشات الثقيلة التي تلاها انقطاع صوت الإذاعة المفاجئ وجزم السائق بأنّ رصاص المعركة هو الذي أسكت المراسل الواقف في مكان الاشتباك وربما أصاب منه مقتلاً. ترجّل فريد من سيارة الأجرة والسائق ما يزال ينتظر استئناف النقل الإذاعي المباشر من شوارع القتال.

فور دخوله الملهى طلب أبو شَعر من وسيم، خادم البار الذي تدور

الأقاويل حول ذكوريته، أن يقدّم له سيجارة راح يسحب منها بشغف المغرمين الجدد المبتدئين بالتدخين. لم يتأخر أيّوب في الوصول فأجلسه قبالته، أمسكه من يديه، منعه من الاهتمام بالملهى الذي اقتربت ساعة فتح بابه أو حتى من الردّ على هاتفه المحمول، أبلغه وعيناه ترقصان أن ليس لديه أحد يستمع إليه غيره وأنه إن لم يحكِ فسينفجر.

- ماذا حدث لك؟
- امرأة.
- أنت أيضاً؟
- أمضيت ليلة لم أعش مثلها...

هو المقلّ الذي ينحت تعابيره كأنّ هناك من يسمعها ويدوّنها مباشرة في دفتر البلاغة الأزلي، راح يفيض كلاماً أمام صديقه. جعله الغرام ثرثاراً يستعيد بالتعابير وحتى بالإشارات ما حدث معه في الليلة الماضية من أوّلها. ثم كأنّ الوصف الشفهي لا يكفي ورسم قوام المرأة الساحر بحركات الأصابع في الهواء لا يفي بالغرض، أخرج قلم التصحيح الأحمر فظنّ أيّوب أن صديقه سيصوّر عشيقته على الورق، لكنه مع التهدّج العاطفي في صوته وخفضه كمن يفشي سرّاً، خطط على قائمة الطعام أمامه موقع المطبعة والطريق الصاعد إليها وأشجار الجاكارندا والدرج الواصل بين الطابقين. وضع علامة فوق النقطة التي اعتقد أنّهما التقيا فيها وحدث فيها ما يكتفي فريد أبو شَعر بالتلميح إليه بحركة من يده وابتسامة حنونة غامضة. يستعيد حدثاً يخشى أنه لن يتكرّر، أخبر أيّوب عن العتمة والأصوات ودليل الهاتف

وظهورها المفاجئ كالخارجة من حلمه، بيضاء... تردّد وقال إنها تشبه كتابه الضائع فأضحك سامعه واستفاض غير مبالٍ، غير مصدّق. يتذكّر رائحتها بشهقة عميقة وإغماضة من عينيه ويتحسّس طعمها بين لسانه وشفتَيه، لا يجد وصفاً لنعومة جلدها إلّا بأن يداعب براحة يده اليمنى ظهر يده اليسرى للإيحاء به، ليصل بعد ما بدت كأنها مقدمات إلى ما فتح من أجله يديه وغرّب بعينيه وسمّاه مستعيداً لمرة لهجته الاحتفالية:

– هذا السرّ البهيج في عينيها، هذه الدعوة الطافرة من وجهها كيفما التقت نظراتنا!

كان منطلقاً لا يتوقف كأنّه عائد من حلم فاق تصوّره. قال إنّها آنيته من الكريستال الفاخر، خبزه الساخن، وإنّ ما بينهما لم يحتج ولا يحتاج إلى الكلام، إنه لم يفهم شيئاً من القليل الذي تبادلاه لأنها تحكي الفرنسية وبلهجة رشيقة تعصى مفرداتها عليه لكنها تسحره وتلهبه. لم يسكت حتى قاطعه أيوب بحشريته المتزايدة:

– طيب، من هي؟

– زوجة صاحب المطبعة.

صفّر أيوب من المفاجأة وقهقه عالياً من سرعة توالي الأفكار في رأسه.

– سأرسل إلى زوجها لونا صديقتك في المرّة المقبلة فتتعادلان...

أخبر أيوب عن المداهمات وما حصل له مع هذا الرجل الطويل ذي العينين الزرقاوين الذي لم يجد في كلّ هذه المطبعة الفسيحة وآلاتها ووثائقها سوى أن يسطو على كتابه، لم يقرأ فيه بل راح يلمس

أوراقه، يسمع صوت جعلكتها بين أصابعه وكادت مرافقته الشرطية تشهر سلاحها عليه، كتابه الذي يفرّ من بين يديه كأنّ فيه طاقة لا يعرف سرّها. مازحه أيوب:

- تعادل. فقدت الكتاب وكسبت المرأة!

ثمّ سأله عن سبب المداهمات وعمّا يحدث في المطبعة فأجابه فريد الذي عاد إلى سحر ليلته خلف آلة الهايدلبرغ سبيدماستر XL 162، بشعرٍ لامرئ القيس يحكي عن "غزال صاد قلبي ونفر"، وظهرت لونا في باب المكان.

لمست خدّ فريد، داعبت شعره، نادته شاعرها الجميل وقالت وهي تقلّده برفع حاجبيها ومطّ شفتيها إنها تفضّله عندما يكون عابساً جديّاً. اسمها الحقيقي روكسانا، أيّوب سمّاها لونا، يعطيهنّ دائماً أسماءً سهلة من مقطعَين فقط. جاءت من مولدافيا في رحلة لطيران الشرق الأوسط من بوخارست برفقة عشر فتيات، دفعة واحدة، أكبر صفقة قام بها أيّوب في تاريخه بالمهنة، توزّعن بعدها على الملاهي، احتفظ لنفسه بأربعٍ من بينهن لونا. كانت طفولتها فقيرة، تذهب إلى المدرسة سيراً على الأقدام من مزرعة والدها الصغيرة التي يعمل فيها وحده في مولدافيا، يداوي حزنه على وفاة زوجته بقيادة جرّاره القديم الذي ينفث الدخان الأسود من قسطل العوادم المرتفع في الهواء مثل مدخنة الباخرة، حتى عجز عن تربية أولاده الأربعة فباع أرضه وحجر على نفسه في البيت يشرب الفودكا الرخيصة ويبكي من دون سبب. فرّت روكسانا إلى المدينة، تسجّلت في معهد للفنون نهاراً وراحت تخدم في المطاعم ليلاً حتى التقت هذا اللبناني اللبق،

أيّوب، يعرف كيف يعامل الفتيات، يسخو عليهنّ في المطاعم، عرض عليها العمل في بيروت بعبارات صريحة. أنت سيّدة نفسك، قال، تجالسين الزبائن، يشربون ولا تشربين، وإن كنت اليوم عذراء تعودين إلى هنا، إلى بلدك، عذراء إن شئت.

لم تكن عذراء، بعد أسبوع على وصولها إلى العاصمة الرومانية، رافقت صديقة لها إلى سهرة موسيقى ورقص، فتغامز رفاق الشلّة على الريفيّة الوافدة حديثاً وسكبوا لها الكؤوس فلم تقاوم أوّل عرض بالصعود إلى غرفة النوم في الطابق العلوي حيث تركت بقعة دم على الشراشف ودمعتي فرح وحزن معاً على المخدّة عند الصحوة من سكرتها.

في بيروت لا تسكر، تواعد البعض، تجمع المال ولم تقرّر بعد ماذا ستفعل به. تحوّل أيوب إلى ما يشبه شقيقها الأكبر، استغلّ وصولها وانشغالها مع فريد كي ينصرف إلى إدارة الملهى الذي بدأ روّاده بالتوافد. جلست لونا بجوار "شاعرها" لكنها ما لبثت أن تركته ملبّية دعوة رجلَين دخلا وهما يتحادثان عن اشتباكات العاصمة وعدد القتلى وكيف أنّ أرقام الضحايا تبدأ بسيطة في الإعلام ثمّ تتضخّم تدريجاً.

- ستصل إلى عشرين قتيلاً عدا الجرحى!

قال أحدهما بينما نادى الثاني لونا باسمها. يعرفان أن الشاب الذي تقف بجانبه ليس زبوناً قادراً على تحمّل أعبائها. لم يشعر فريد أبو شَعر بالغيرة هذه المرّة، لا يحقّ له الغيرة التي كانت تلامسه كلما وجد لونا جالسة مع رجل وينتبه من سلوكه إلى أنها واعدته للقاء

خارج دوام العمل، في إحدى غرف الفندق. أحسّ فريد في ذلك المساء بأنه عاجز عن خيانة بيرسيفون ملكي التي أغمض عينيه كي يتنشّق رائحتها، عطر الأميرة الخارجة من نومها.

٢٩

استُنفد كلّ شيء بينها وبين عبد الله من البداية، في الأسبوع الموسيقي على طول نهر الدانوب الذي أراداه بمثابة شهر عسل لهما والذي اختارت بيرسيفون جميع تفاصيله مع مكتب السفريات. في ليلة يوم الاثنين الحميمة الأولى في غرفة فندق "كورنثيا أوتيل"، بودابست، كان عبد الله بليداً يصرّ على إطفاء الأنوار جميعها وردّ الستائر فأصابه شدّ عضلي مؤلم في كتفه وهو ينقلب من جهة إلى أخرى. استعادت يوم الثلاثاء شيئاً من معنويّاتها مع الأوركسترا السيمفونية المجرية التي عزفت سوناتاً لبيلا بارتوك وفالس "أوراق الصباح" ليوهان شتراوس في قصر بودافار، وحاول عبد الله في المساء التعويض بجهد لاهث ومضاعف في السرير، ادّعى بعدها الحاجة الماسّة إلى النوم في اليوم التالي فور عودتهما من سهرة مع موسيقى دفورجاك في قاعة الفيلهارمونيك كونسرت في براتيسلافا. رافقها متذمّراً يوم الخميس إلى عرض "زفاف فيغارو" في صالة أوبرا فيينا وتركها عند عودتهما تصعد وحدها إلى غرفة الفندق ليجلس في مقعد الجلد الوثير في بهو الاستقبال يحلّ شبكة الكلمات المتقاطعة التي يؤلّفها ميشال لاكلو في

مجلة "لو فيغارو ماغازين" التي تزوّد بأعداد منها. لم يوقظها عندما وافاها بعد منتصف الليل، أحسّت بقدومه لكنّها فضّلت تصنّع النوم بدل التعرّض لمزاجيته في السرير فذهبت وحدها صباح يوم الأحد لحضور قدّاس بيتهوفن الاحتفالي، وهناك وبينما كانت تنظر في وجوه رجال وسيمين يصغون بخشوع داخل كاتدرائية سالزبورغ، تأكّدت من أن زواجها بعبد الله كرم لم يكن أفضل ما حدث لها. عادا بعد ظهر يوم الاثنين إلى بيروت في صمت مهيب.

دبّت فيه الحماسة قليلاً عندما أخبرته أنّها حامل فصار يحتضنها كأب، يمسك يدها ويلامس شعرها حتى على مرأى من الآخرين. ظهر بطنها وأخبرهما الطبيب أنها تنتظر طفلتين توأمين فابتعد عنها من جديد، يقول تارة إنّه مصاب بالرشح ولا يريد لها العدوى أو تارة أخرى إنّ هموم المطبعة وديونها تنهك قواه. أدارت له ظهرها، شغلها الحبل عنه لأشهر ثمّ وضعها حادث الانفجار أمام احتمال موته الوشيك الذي قرأته في اليومين الأوّلين على وجوه الأطبّاء والممرّضات. بقيت مشاعرها تضطرب حتى عندما ارتفع الأمل في نجاته، عبد الله الراقد في غيبوبته يمسك بخيط حياتها حتى بدأت نقاهته واستقرّ في البيت في غرفة الضيوف.

قال الطبيب إنّه مطمئنّ إلى تعافيه لكنّه طلب من زوجته اختباره "في السرير" كما قال فدخلت عليه بيرسيفون، خلسة، في ليلة بدأت فيها نوبات أرقها. كان يشخر قليلاً ويغطّ عميقاً، تسللت على مهل إلى الفراش وراحت تقترب منه ببطء، لامسته من الخلف فتحرّك ولما حاولت تطويقه بذراعيها انتفض كأنّ أفعى لسعته وصرخ في

نومه كلاماً غاضباً غير مفهوم. استيقظ وأدرك ما يحدث فجلس على السرير وأدار لها ظهره خجلاً من سلوكه.

غادرت الغرفة وبقيت أسيرة إصاباته، وجهه المشوّه، رأسه المفتوح وكتفه المحشوّة حديداً. ظنّت أنّه يخجل من مظهره فلا يقترب منها، يكتفي بالتحديق إليها من بعيد، تراه في المرآة، عندما يكونان وحدهما في البيت، تلمحه في إحدى المرايا التي ركّبتها في كل مكان، يختلس إليها نظرات غريبة، بين الحشرية والشهوة. كأنّه لا يعرفها، كأنّها لا تعرفه، كأنّه فوجئ بوجودها هنا، يكتشفها جالسة تسرّح شعرها نصف عارية، يمرّ خلفها صدفة أو يتعمّد ذلك. صارت مقتنعة بأنّه يفتح عليها باب غرفة النوم كل يوم، يشقّه قليلاً قبل أن ينزل في الصباح إلى مكتبه، ينظر إليها ممدّدة في السرير، مرتخية في غفوتها الصباحية. ركّب بعد ذلك كاميرات المراقبة في المطبعة وأصرّ على وضع واحدة في غرفة الجلوس كشفاً لسرقة أو أيّ احتمال، كما قال. كانت بيرسيفون تغطّيها بخرقة سوداء فينزعها عبد الله، تخرج من غرفتها عارية الكتفين بقميص النوم الشفّاف، ولا تعرف إن كان عليها النظر إلى الكاميرا أو تجاهلها.

تشفق على عبد الله الراغب والعاجز كما حسبته وتبتسم عندما تلمّح لها حماتها بأنّ العائلة بحاجة إلى "صبيّ". لا ترى درباً للخروج، تعلّم ابنتيها الموسيقى والرسوم المتحرّكة، هالتان سوداوان بدأتا ترتسمان حول عينيها تخفيهما بمرهم صباحي، ليلها معركة، تأرق وتشتكي من الروائح والبعوض ولا تشارك شكواها مع أحد،

تقرأ في ساعات فراغها الطويلة عن الجرائم، تمرّنت على فكّ ألغازها، تلتقط بسرعة الإشارات المؤدّية إلى المشتبه فيه. بقيت هكذا معلّقة حتى انفتحت أمامها كوّة في الجدار.

بدأ ذلك يوم دخل الشاب صاحب الدفتر الأحمر إلى مكتبه وسألت عنه في النادي وقيل لها إنه غائب. كرّرتها وفق تسلسل سهل، تسأله أين سيذهب بعد دوامه في المطبعة، ثمّ تتّصل هاتفيّاً إلأى هناك فلا تجده. صارت تتسلّى بمطاردته متحمّسة لفكرة أنّه يكذب، راغبة بشدّة في أن تمسكه بالجرم المشهود. مع تعافيه تغيّرت مواعيده، تبدّل إيقاع يومه، يتأخر في المساء، يغيب عن المطبعة في ساعات العمل، تستعين بسابين ونيكول كي تتكلما معه فتتّصل بهاتفه فتجده مقفلاً، فتحت عينيها على هندامه، وجدت أنّه باتت له رائحة عطر هو الذي تجاوز خفره وأفصح مرّة أنه يفضّل الجسد على طبيعته، عطر تعرفه، "فارنهايت" من كريستيان ديور. نسي هاتفه على طاولة صغيرة في الصالون، أخذته، تفحّصته بسرعة، وجدت والابتسامة على وجهها في فهرسه أسماء إناث، نانيت، فريدا، وأماكن غريبة، "غولدن شور"، "لوس لاتينوس"، رسائل نصيّة كأنّها مشفّرة، مواعيد غامضة، وتثبّتت ظنونها عندما صعد ملهوفاً ليسترجع هاتفه.

هي في المقابل استرجعت قابليّتها، عادت إلى غداء البويابيس يوم الخميس، تذكّرت صديقات انقطعت عنهنّ طويلاً، اكتشفت أنّه يلتقي نساءً فتأكدت أنّه تعافى، فرحت باكتشافها، لا تريده عاجزاً، تتحرّر من أسره ومن شفقتها عليه.

استفاقت بعد ليلة المطبعة الصاخبة على صوت نيكول تشكو باكية من أن سابين سرقت منها شريط شعرها وفلور تراضيها لكن بيرسيفون عادت لتجمع ركبتَيها على صدرها وتنام حتى الظهر. ولما استيقظت وجلست في السرير على عادتها، تأكّدت من أنّ رائحة الليل زالت ورأت الحبر على أصابع يدها اليمنى كأنها غطستها في محبرة، جاءت بها من عتمة الليلة السابقة بين الآلات الملوّثة حبراً وتركت منها آثاراً سوداء متفرّقة فوق المخدة. أمام المرآة اكتشفت ايضاً وهي تغسل يديها بقعتين زرقاوتين صغيرتين حول عنقها، عضّتين من آثار شهوات الليل. رفعت كتفيها غير مبالية، استحمّت، أمضت ساعة كاملة تلوّن بعناية أظافر يديها ورجليها. جرّبت منديلاً أسود ربطته بأناقة كي يخفي البقع ويلائم كذلك فستان الكتّان الأحمر الرقيق المفتوح على الظهر والذي لم تجد قبل هذا النهار طاقة كافية لارتدائه. لبسته لنفسها واسترخت على كنبتها المعتادة تقرأ في **ضباب فوق جسر تولبياك**، تدخّن بشغف وتسند كوعها إلى حديد الشرفة. لم يرنّ هاتفها ولم تطلب أحداً.

تناولا طعام الغداء معاً، شرب دودول النبيذ على غير عادته ظهراً، أكلت بيرسيفون بشهيّة طبق فلور المفضّل، ثمار البحر على طريقة جزر الأنتيل، ثمّ ادّعت الشعور بالحرّ فنزعت المنديل الأسود ولو بانت البقعتان الزرقاوان حول عنقها. قال عبد الله فقط إنّ فستانها جميل وإنّه لم يشاهدها ترتديه من قبل فقالت إنها في الواقع المرّة الأولى التي تلبس فيها هذا الفستان الذي اشترته في رحلة شهر العسل. بعد الغداء دخلت غرفتها، نظرت في مرآتها، أعجبها وجهها،

صافٍ ومرتاح، كما اختفت بقعتا الليل عن عنقها. قرّرت ما كانت قد أحجمت عن فعله حتى ذلك اليوم، تسليم نفسها لاختصاصية في التجميل، تحمّل الأقنعة المغذّية للجلد، مراقبة الحمية، الأكل والرياضة وكلّ ما يلزم.

٣٠

لم توقف المداهمة الأولى العمل خصوصاً بعدما تواردت الأخبار بعد ظهر ذلك اليوم أن زيارة الشرطة شملت مطابع أخرى في بيروت ولم تكن محصورة بـ"كرم إخوان" وحدها. استمرّ خبيرا الهايدلبرغ المكلّفان من آل الصادق بالحضور في الساعة الحادية عشرة من ليل كلّ خميس فيستقبلهما المعلم أنيس. هما أيضاً يأتيان بأحذية رياضية، لا يبتسمان، يحمل كلّ منهما حقيبة ظهر فيها لوازمه ويعملان بصمت مجتهدين وإذا تشاورا فبصوت خافت. لم يعرف أنيس اسم أيّ منهما بسبب اقتصادهما في الكلام، لم يسألاه سؤالاً شخصيّاً واحداً، يُحضر لهما الورق من مخبئه بعد وصولهما فيما يقومان ببرمجة الآلة كي تلفظ لساعات طرحات العملة الأوروبية مطبوعة وجهاً وقفا فتبقى عملية قصّها وتوضيبها ومحو برنامج طباعتها من ذاكرة الآلة وإرجاع أرقام العدّادات إلى حيث وجداها كي لا يكتشف العاملون عليها نهاراً أنّ الهايدلبرغ اشتغلت ليلاً. عند الفجر يحمّلان العملة في خمسين رزمة من مئة ألف يورو الرزمة الواحدة في الشاحنة الصغيرة التي يوقفانها بمحاذاة الباب الخارجي

حيث يسهر الحارس الليلي فيودّعانه بالقبلات ويتوجّهان إليه باسم "الأخ وجيه"، كان ذلك انفعالهما الوحيد طوال سهرة العمل، قبل أن ينطلقا لتسليم حمولتهما إلى أيادٍ أخرى تعرف كيف تسفّرها فلا يبقى أثر للعمليّة الليليّة في المطبعة ولا يبقى من العملة أثر في لبنان.

عبد الله بدوره لم يتوقف لا بل أصيب بما يشبه الزوغان. أولع بالنبيذ وراح يجمع كلّ ما يتيسّر له من زجاجات شاتو لافيت روتشيلد من كلّ الأعمار، تفاوض على شراء مهرين عربيّين أصيلين من مالكهما البريطاني أملاً بتجديد تراث عائلة جدّته. حاول شراء سكوت زوجته في عيد ميلادها فأهدى إليها من عند مجوهرات شوبّار خاتماً قال إن ألماسته مستخرجة من مناجم الهند القديمة مع ياقوتة حمراء ساطعة على شكل قلب من وادي موغوك مركّبة على هيكل من الذهب الوردي. إقتنى سيارة بورش باناميرا توربوS كان يقودها، وسائقه جالس إلى جانبه، بسرعة جنونية عند عودته فجراً من كازينو لبنان حيث أوصله حبّه لألعاب الميسر فجلس في البداية أمام ماكينات الحظّ ومن هناك تدرّج إلى طاولة البلاك جاك وصولاً إلى الروليت الكلاسيكية التي حاول في سكرة المديح الدائم لعبقريّته توقّع احتمالاتها فثابر على الطاولة نفسها ولفت انتباه اللاعبين بكيفيّة توزيع رهاناته لكنه لم يكن يقترب من معادلة رابحة حتى تكون الإدارة بدّلت ضارب الكرة فتنهار حساباته ليبدأ من جديد.

كان عبد الله في تماديه يسابق موعداً ما، خاتمة لم تتأخّر كثيراً إذ بدأ الجدّ مع المداهمة الثانية ومع ظهور المحقق الدولي. كثيرون في المطبعة لم ينتبهوا إلى الكتاب الذي صادره بسرعة عن طاولة أبو

شَعر ولم يدركوا فحوى هذه الزيارة الخاطفة. لكن آل الصادق فهموا الرسالة: مهما بقوا في الظلّ وعُنوا بالتفاصيل يعرفون أن الأنتربول والبوليس الأوروبي مصرّان على اكتشاف الشبكة وتفكيكها، وأن المصرف المركزي في لبنان أحيط علماً بالمسألة ولا يمكن السلطات أن تتهاون مع سمعة البلد المالية. لا يكشف حسين الصادق مصادره لكنّه لا يخطئ.

– دوام الحال من المحال.

قال بحكمة العجائز مضيفاً:

– لم يجدوا ممسكاً علينا، خرجنا من دون إصابات. سنوقف الطباعة الليلية ونوقف برامج التغطية الطباعية بأسماء شركات مستعارة، التي لم تعد من ورائها فائدة وسننتظر التطوّرات.

أي إن أبو حسين سينتقل إلى أعمال أخرى، إلى تجارة الماس أو السلاح. لن يبقى من مخلفات آل الصادق في المطبعة سوى الحارس الليلي الذي حافظ على يقظته الأمنية وحشريّته الزائدة ليكون شاهداً على عودة الأمور إلى طبيعتها. وقد أكمل مهمّته بأن أبلغ حسين الصادق بمشاهداته الليليّة في المطبعة فهاتف هذا الأخير لطفي كرم يعطيه التفاصيل.

يميل لطفي أيضاً إلى الشكّ في حدوث وشاية داخلية، ولا يركن إلى زوجة ابنه. جلس في مقعد الجلد وراح يخبط عصاه بعصبيّة بأرض المكتب منتظراً خروج موظفة طال نقاشها مع عبد الله ليسأله من دون مواربة:

– هل أخبرت زوجتك بما نفعله هنا؟

نفى عبد الله وذكّره بأنها المرّة الثالثة التي يطرح عليه فيها نفس السؤال، فصعّد لطفي من لهجته:

– طيّب، كيف تعرف هي أننا نلتقي ليلاً مع رجل صوته مثل صوت النساء، هل تنزل إلى المطبعة في الليل، هل يبقى هذا الباب اللعين مفتوحاً طوال الوقت بين تحت وفوق؟

ارتفع صوت لطفي تدريجاً، تلعثم عبد الله في الجواب، وسكت والده عند دخول رجل أنيق الملبس يحمل ملفّاً. أخرج الرجل أوراقاً وقدّمها إلى عبد الله فسأل لطفي عن فحواها:

– تجديد عقد التأمين على آلة الهايدلبرغ وعلى المطبعة والبيت مع شركة "مديترانيان إنشورنس كومباني"، صاحبها سليم ملكي، شقيق بيرسو.

قالها كأنه يردّ على اتّهامات والده.

بعد خروج عميل التأمين، طالب لطفي كرم عبد الله بإطلاعه على العقد فغرق في قراءة تفاصيله وطالب بتصوير نسخة عنه يحملها معه قبل أن يستأنف سلسلة أسئلته:

– ولماذا كانت زوجتك تصرخ بعدما دخلت الشرطة إلى هنا في المرّة الأولى؟

– كانت تريد ان تعرف لماذا يداهموننا، صارت عصبيّة في الأيام الأخيرة.

– ولذلك كسرت كرة الزجاج، ومشيت أنا على بقاياها!

وبعد صمت وجيز رمى لطفي حجره:

– ولماذا لا تطلّقان؟ أعرف محامياً ماهراً متمرّساً في قضايا

المحكمة الروحية يقول إنّ إبطال الزواج صار ممكناً عند الموارنة.

بدت المفاجأة على وجه عبد الله من اقتراح والده:

- نطلّق؟ لماذا؟ أنا أحبّ زوجتي.

نفى ما يُحكى عن خلافه مع بيرسيفون.

- إن كنتما متّفقين فلمَ لا تنجبان صبيّاً؟

وأشار بيده إلى صورة جدّه، مؤسِّس المطبعة في صدر الباحة. شاربان دقيقان وقبّعة أميركية. لم يحظ بعد بمن يُسمّى على اسمه.

دخل لطفي في "صلب" الموضوع:

- هناك شخص لا يُفترض أن يبقى في المطبعة ليلاً، بقي يعمل وحده حتى طلوع الفجر...

- المصحّح؟ طلب منّي إذناً للعمل ليلاً على إكمال التدقيق في دليل الهاتف.

- هذا الشاب المرفوع الحاجبين؟

- نعم.

- من وظّفه، أنت؟

- كنّا بحاجة إلى مصحّح وحضر في الوقت المناسب.

- لم يعجبني، وجدته هنا بعد المداهمة الأولى، كان وحده في المطبعة أيضاً وقال إنّه ذهب إلى المديرية العامة للأمن الداخلي، كان يشكو أنه أضاع مخطوطة ثمينة في نظره، والآن يمضي الليل في المطبعة؟

بقي ما جاء لطفي كرم ليبلغ ابنه به عالقاً في حلقه لا يجد تلميحاً كافياً إليه، فسأله عندما همّ بالانصراف:

- بقي هنا كي يصحح؟
- هكذا طلب منّي.
- راجع أفلام الكاميرا ليلة أمس للتأكد ممّا كان يفعله.
- لماذا؟
- أبو علي، الحارس، قال إنّ تصرّفه لم يعجبه.

وكرّر عليه:

- راقب تسجيلات الليل، راجع الكاميرات، لا تنسَ.

كان هذا أقصى ما يمكن للطفي أن يوحي به إلى ابنه. وبينه وبين نفسه كال الشتائم لهذا المصحّح الذي اعتقد أنّه نازل من القرية نفسها التي جاء منها العمّال الموارنة الذين تخلّصنا منهم، وختم بسؤال طرحه على نفسه وهو يخرج من باب المكتب:

- من أين وصل إلينا هذا الرجل؟

وأضاف:

- سيدفع الثمن في كلّ حال!

٣١

ساور فريد الشكّ باكراً حول أهله. في الثامنة من عمره، اصطحبه أحد رفاق ساحة الكنيسة إلى زيارة جدّته في غرفة واطئة معتمة، تعطيه مالاً صباح الأحد إن تركها تشبعه تقبيلاً. سألته عن اسم رفيقه واسم والده واسم جدّه حتى وجدت ضالتها في تقاطع أسماء أهل القرية وتكرّرها، فتوجّهت إلى فريد بين الجزم والسؤال:

- آه، أنتم الجلَبْ!؟

لم يفهم قصدها على الفور، أحسّ بالإهانة وبقيت تعاوده هذه العبارة كلما امتُدحت العائلة على مسمعه أو إذا سُئل مثلاً عن قرابته مع فلان من آل أبو شَعر فيكتفي فريد بالقول إن حاملي الاسم كثر ومنتشرون في دنيا الله الواسعة. تذكّر كل ذلك من جديد في جنازة والده وهو جالس في الصف الأمامي إلى جانب شقيقَيه في يوم بارد، يصغون إلى الكاهن الذي لم يجد في عظته ما يربط به بين الحلّاق الرجالي المتواضع في فرن الشبّاك وبين مآثر أفراد عائلته في الوطن والمهجر.

عاد فريد إلى أصل شكوكه ففتح **تاج العروس** وقرأ: "الجَلَبُ: ما

جُلِبَ مِنْ خَيْلٍ وغَيْرِهَا كالإِبِلِ والغَنَم والمَتَاعِ والسَّبْي"، وانتقل منه إلى **لسان العرب** وحتى إلى **مختار الصحاح** فاتّضحت له صورة القطيع، قطيع ماعز تُلحق به في الطريق "رؤوس" ضالة أو مشتراة من رعاة آخرين، ربما تكون هذه الرؤوس جدّه ووالده.

استنطق أمّه فكرّت أجوبتها حادّة عالية النبرة خلافاً لطبعها الهانئ، نفت ما يشاع من أكاذيب وأخرجت له أخباراً لم يسمعها من قبل. عمٌّ قديم يملك نصف أراضي القرية تزوّج مرّتين، تُوفّيت زوجتاه قبل بلوغ أجله ولم يُرزق بولد فانتقل كلّ شيء إلى أقاربه الذين تنازعوا طويلاً وحاول بعضهم حرمان "جدّ والدك" من حصّته باختراع قصص حوله كما اعترضوا على إدراج اسمه في سجلّ النفوس مع آل أبو شَعر عندما أجرى الفرنسيون الإحصاء السكّاني. حصل بعد نزاع طويل على "بيتنا" في القرية فقط، والأرض المحيطة به. يعرف والده حليم ويعرف قليلاً جدّه سعيد الذي كان يُجلسه في حضنه على شرفة البيت، يكسّر له الجوز ويقشّره بأصابعه الغليظة ويتنبّأ له بالعبقريّة، سألها عن اسم والد جدّه هذا فقالت إنها لا تعرفه وختمت بدعوته إلى الإقلاع عن التوغّل في هذه "التواريخ القديمة".

سكت عن أصله وفصله حتى أخبره أستاذ تاريخ لبنان الحديث في الجامعة أنه عثر على سيرة بخطّ اليد لآل أبو شَعر وأعطاه توصية مكتوبة حملها فريد إلى "معهد الآداب الشرقية" حيث استقبله راهب يسوعي يتكلم همساً قاده إلى طابق سفلي. اجتازا ردهة كانت تؤوي المطبعة اليسوعية القديمة فسأله فريد إن كانت آلاتها ما تزال محفوظة لديهم فأخبره أنّه درس الموضوع عن كثب وتأكّد من بعض

المراسلات من أنّ الجنود الأتراك صادروا المطبعة وأرسلوها إلى دمشق وأنه عثر من جهته على دفتر يوميّات لراهب سوري يروي في صفحة يتيمة أنه حُكي عن نقل المطبعة الكاثوليكية إلى دمشق لكنّ ذلك لم يحصل، انتظرناها ولم تصل. يسوعيّ المكتبة الشرقية يشكّ في أنّ المطبعة غادرت بيروت، أخبره عمّال سابقون فيها أنّهم عثروا على بعض آلاتها تعمل في إحدى مطابع بيروت وأن الرهبان لم يهتمّوا كثيراً بالبحث عنها إذ وصلتهم تبرّعات من مدينة ليون لشراء مطبعة جديدة.

أجلسه إلى طاولة ووضع أمامه مخطوطة آل أبو شَعر بكتابة دقيقة بقي فريد يومين متتاليين يقلّب صفحاتها بعناية بحثاً عن الاسم المفقود فكانت المفاجأة أنّه لم يقع في شجرة العائلة على اسم جدّه سعيد كي يرتقي منه إلى والد هذا الأخير. رُسمت السلالة على ورقة مزدوجة طويت داخل الدفتر، على شكل شجرة عبيّة تحمل كلّ ورقة من أوراقها أسماء الرجال فقط. بدأت عربيّة قحّاً في جذعها القديم في اليمن، قعدان وجهجاه وقيس ثم راحت الاسماء تنهل من التوراة يوسف وإبراهيم وموسى وأيّوب ومن قدّيسين محليين في قرى جبل لبنان أمثال ارسانيوس وطوبيا وزخيا وصولاً إلى الشائع مثل رامي وشادي وحتى دجو ودايف.

خاب ظنّه وتمنّى في قرارة نفسه أن لا ترى هذه المخطوطة النور على هيئة كتاب لكنّه استمرّ في قراءة أخبارهم مثل انتخاب مانويل أحد أبناء العائلة محافظاً لمدينة ساوباولو، وفوز شابّ آخر بميدالية رياضية في الخمسينيّات، حتى وصل في نهاية المخطوطة إلى فصل

قال المؤلف إنّه دوّنه على ورقة مستقلة وسيبتّ أمر ضمّها إلى الكتاب يوم تجد مخطوطته طريقاً إلى النشر كما يؤكّد أن جميع تفاصيلها منقولة عن والد مؤلف السيرة الذي أخبره إيّاها وطلب منه كتم السرّ. لكنّه للأمانة التاريخية وتوخّياً للحقيقة وشهادة على ما قاساه أهل جبل لبنان من جوع وعذاب في الحرب الكبرى سيدوّن هذه القصّة بأسلوب إنشائي يسهّل قراءتها وفي كلّ الأحوال لم يأت في تدوينها على أسماء العلم فترك أبطالها مُغفلين. كان في المقدّمة ما يكفي من الإثارة كي تجعل فريد يقرأها وينقلها بخطّ يده على أحد دفاتره.

مفاد الرواية أنّه مع غروب شمس أحد نهارات تشرين الذهبية وصلت إلى البلدة امرأة ناتئة العظام من فرط الهزال تجرّ وراءها صبيّاً حافي القدمين يلبس خرقة لا لون لها وعيناه تخرجان من محجريهما. كانا قادمَين من قرية صغيرة في متصرّفية جبل لبنان، اختارت المرأة السير شرقاً للبحث عن الطعام بعدما سمعت أن الحصار في سهل البقاع أقلّ قساوة. تبيّن أنّ الأم وابنها صمدا بسبب عثورهما بأعجوبة في سفح ناء على شجرة من تفاح الجبل تثمر في الخريف فاقتاتا بحبّها الحامض الصغير حتى وصلا إلى أعلى منازل البلدة لجهة الغرب. أطعمهما أهل البيت وكسَوهما وأسكنوهما في القبو شفقة ورحمة، لكنّ الإقامة لم تطل بالمرأة فوجدتها صاحبة البيت بعد يومين تلفظ أنفاسها ممسكة بيد ابنها وتُوفيت كأنّها سلّمت الأمانة واستراحت. يبدو أنّ مستضيفيهما، وكانوا أصحاب ثقافة وأخلاق، اكتفوا بالتعرّف إلى اسم المرأة واسم ابنها وتفادياً لإحراجها لم يسألاها عن عائلتها ولا عن المكان الذي قدمت منه ففارقت الحياة تاركة

ولداً في الرابعة من عمره لم يعرف سوى التأتأة ببعض الكلمات غير المفيدة. مع الزمن والرعاية عادت إلى الولد صحّته واختلط مع أبناء البيت وقصد معهم المدرسة في مدينة زحلة حيث تسجّل باسم عائلته الجديدة، أبو شَعر.

بعد أشهر على انتهاء الحرب وانتشار الجيش الفرنسي في البقاع، مرّ بالبلدة رجل على ظهر بغل يبيع البهارات التي سبقته روائحها، توقف في ظلّ سنديانة الساحة حيث تقاطر بعض الزبائن فسألهم عن امرأة وابنها مرّا من هنا في سنوات الجوع. لم يفصح عن علاقته أو قرابته بهما خوفاً من تحمّل هذا الوزر لكنّ أهل البيت الذين استقبلوهما أحبّوا الصبيّ ولم يتخلّوا عنه لا بل حمّلوه اسم عائلتهم. المهمّ أن البائع أخبر أهل البلدة أنّ القرية التي جاءت منها هذه المرأة باتت مهجورة تماماً ولم يرجع إليها أحد من القلّة القليلة الباقية على قيد الحياة من سكّانها. ثمّ توسّع في أخبار المرأة فقال إنها اتّفقت مع زوجها على أن يشردا كلّ في طريق فأخذت الصبيّ وذهبت شرقاً فيما اصطحب زوجها صبيّاً آخر وفتاة ونزل بهما إلى بيروت، وأنهم تسكّعوا في الشوارع يستعطون لكنهم لم يصمدوا فقضوا جوعاً ودُفنوا مع أعداد كبيرة أخرى من المشرّدين، حُفرت لهم حفرة واسعة في مكان قريب من إسطبلات للخيل ورُموا فيها كما وُجدوا في الطرقات من دون تنظيف أو كفن، هكذا بعضهم فوق بعض. أكمل صاحب البغل سيره فخرج من البلدة ولم يشاهده أحد من بعدها، كما لم يوضح ما يربطه بهذه العائلة أو هذه القرية التي أبادها الجوع. أمّا الصبيّ فترعرع في كنف العائلة التي آوته وأضيف اسمه إلى أسماء

أبنائها وقد تزوّج ورُزق ابناً وحيداً وورث بيتاً يقيم فيه ولم يُعرف أصله واسم أمّه أو عائلته.

اعتقد فريد أبو شَعر أنّه حصل على كلّ ما يمكن أن يعرفه ويودّ أن يعرفه عن ماضيه.

٣٢

أقفل عبد الله باب المكتب من الداخل بعد انصراف العاملين في المطبعة وبدأ مراجعة تسجيلات الأيّام السابقة. أدرك أنّ أمامه ساعات ليلية طويلة ثابتة، عتمة ونقاط ضوء مبعثرة. تقدّم في شريط التسجيل وتقدّم حتى ظهر أمامه المصباح مضاءً، باهراً، يرسم دائرة حول مكتب مصحّح اللغة العربية المنكبّ كما وعد فوق رزمة سميكة من البروفات. تقدّم، سرّع، الليل طويل ولا شيء في المشهد سوى الجالس يدير ظهره للكاميرا ولا حركة سوى بيده اليمنى الممسكة بالقلم، ويحار عبد الله كيف يكمل المتابعة فهو عثر على مشهد المصحّح لكنه لا يعرف عمّا يبحث.

حسين الصادق هو الذي أصرّ على تركيب نظام المراقبة الدائم والمتكامل. كاميرا عند المدخل الخارجي مسلّطة على الطريق الصاعد من شارع المطاعم والملاهي إلى المطبعة، التي تبيّن عندها أنّها بحاجة إلى إضاءة ليلية، كاميرا في حديقة الجاكارندا لا تحدث في دائرتها تحرّكات تُذكر، قيل فقط إنها قد تسجّل تسلّلاً بغرض السرقة إن حصل، واحدة في القبو الأخير رُكّبت في غياب المعلم

أنيس الذي فور علمه بها همس في أذن عبد الله سبباً وجيهاً يبرّر اعتراضه على وجودها هناك فاستُدعي خبير الصيانة لإزالتها، واحدة تغطّي آلة الهايدلبرغ الجديدة وكلّ ما يدور حولها، اثنتان موزّعتان في البهو بين الآلات والموظفين، واحدة عند مدخل البيت مثبتة على تمثال فينوس العارية وترصد تحرّكات فلور عندما تخرج للتبضّع، وأخيرة في قاعة الجلوس نجمها كلب البيشون المالطي نائماً على الأريكة أو سابين ونيكول منبطحتان أرضاً تتضاربان بأقلام التلوين عندما لا تكون أمّهما جالسة تحاول القراءة. اتّفقوا على إطفاء جهاز المراقبة بالكامل ليل الخميس فقط عند قدوم خبيري آل الصادق للعمل على آلة الهايدلبرغ، وذلك تحسّباً لوقوع التسجيلات في أيدٍ غريبة. وكان هذا التدبير صائباً لأنّ المحققين صادروا في مداهمتهم الأولى التسجيلات جميعها وكلّفوا بالتحقّق منها عنصراً في مكتب مكافحة الجرائم المالية انكبّ على مراجعتها بانتباه وتدقيق بداية الأمر لكنّه إذ أدرك حجم المهمّة، آلاف الساعات، صار يشاهد مقتطفات عشوائية منها بعدما أدرك أنّه يبحث عن حدث، طباعة عملة أوروبيّة مزوّرة، لا يعرف، على كلّ حال، كيف يستدلّ إليه إن حصل أمامه على الشاشة فعلاً، فآلات الطباعة كما تصوّرها الكاميرات تعمل بروتينها ويقوم العاملون حولها بأدوارهم المرسومة يومياً وآلات التصوير بعيدة بحيث لا يمكن تمييز ما تجري طباعته، فكتب تقريراً بهذا المعنى تحاشى فيه القول إنه لم يشاهد جميع الأشرطة وأبعد في الوقت نفسه الشبهات عن مطبعة آل كرم.

تسلّى عبد الله فور تركيب الكاميرات بمتابعة كلّ ما يتحرّك من

حوله، الداخلين، الثرثارين، النساء، يعرف من هو الشخص المتّجه إلى زيارته في مكتبه فيستعدّ له ويسأل عن سبب مجيء مسلّم البيتزا مرّتين متتاليتين فيخبرنه أنّ الفتاتين أصرّت كلّ منهما على الحصول على واحدة كاملة فاضطرّ إلى العودة. استنفدت اللعبة أغراضها، فمع مرور الأيّام أدرك العاملون في المطبعة أنّ الكاميرات تصوّرهم على مدار الساعة، وتذمّرت السيدة صاحبة الاستشهادات الأدبيّة من أنّ الكاميرا موجّهة عليها شخصياً وتربكها في عملها. بات سلوك الجميع منضبطاً وعند وقوع شيء ما أرضاً أو حصول جدال حام كان هناك دائماً من ينظر إلى الكاميرا كأنه ينتظر ردّ فعل من يجلس وراءها. صاروا ينتبهون إلى سلوكهم والى أحاديثهم لأن الكثيرين منهم كانوا متأكدين من وجود ميكروفونات تنقل الصوت مع الصورة.

في البداية حاول استرجاع ما سجّله النظام في غيابه فوجد المهمّة مستحيلة فتوقف حتّى عن النظر إلى الشاشة أمامه التي تنقسم مربّعات وفق الطلب، تنقل زوايا الكاميرات جميعها دفعة واحدة، وصارت الموظفة التي يستدعيها إلى جانبه لمراجعة شأن ما إذا ما استرقت النظر إلى الشاشة تكتشف أن حقل الكاميرا التي تصوّر ما يحدث في غرفة الجلوس في بيته يحتلّها كاملة.

فقدت الكاميرات إثارتها لكن ها هو والده يعيده إليها، إلى الشابّ المصحّح يُعمل من وقت لآخر قلمه في الأوراق أمامه ويعود إلى ثباته حتى إنّ رأسه كان ينحني إلى الأمام وتتوقف ذراعه عن الحركة كأنّه ينام جالساً. سرّع المشهد الرتيب حتى ظهر فجأة شخص جديد. إنها بيرسو، دخلت دائرة الضوء حاملة خفّيها بيدها. استفاق عبد

الله، تأكّد من جديد من أنه وحده في المكتب، خفق قلبه وهو يضع يداً على فمه وسبابة على كبسة التوقف. لكنّه تابع ثمّ أوقف وأعاد التسجيل إلى الخلف كي لا يفوته شيء. كانت واثقة من فعلتها، هي بادرت إلى النزول ليلاً لموافاته بناءً على موعد سابق ربما، اتّفق معها قبل أن يطلب إذناً بالبقاء ليلاً في المطبعة، تقف أمامه، لا يحرّك ساكناً، تحدّق به وتبتسم، يتحرّك كأنه يستيقظ، تُبعد عرمة الملفات فيسقط بعضها أرضاً وتسحب أوراق دليل الهاتف نحوها في حركة دعابة مفادها أنّ دوام التصحيح انتهى. نهض أبو شَعر عن كرسيّه واستدار حول المكتب متوجّهاً نحوها وهي تنظر في عينيه مأخوذة فأظلمت الشاشة أمام عبد الله فجأة. أرجع التسجيل إلى الوراء، لم يفهم كيف انطفأ الضوء. كان يمكن، مع ما بقي من بصيص، متابعة ما يحدث بينهما كمن يشاهد فصلاً من فصول خيال الظلّ، جسدان متلاصقان يتكسّر انعكاسهما فوق آلة التجليد وقطّاعة الورق وصولاً إلى جدار الحجر حتى اختفى الظلاّن بطريقة ما وعادت الشاشة إلى عتمتها الليلية المعهودة. واصل المراجعة، سرّع التسجيل لاهثاً لكنّ الأسود بقي طاغياً حتى طلوع الفجر وتسرّبه إلى داخل المطبعة وفي تسريع أخير، طلع النهار وبدأ العاملون بالوصول إلى نوبتهم الصباحية.

لم يتردّد عبد الله كرم في ردّة فعله.

سجّل الدقائق القليلة التي تظهر فيها بيرسيفون وهي تتقدّم من مكتب الجالس قبالتها الذي لم يستدر كي يرى عبد الله وجهه. حفظ المشهد على مفتاح يو أس بي الذي يحوي تسجيلات مواضيعه الأكثر خصوصية، تقارير الأطبّاء حول عملياته الجراحية المتعدّدة،

نتائج فحوصه الطبّية الدورية، وثائق التحويلات المالية التي تلقّاها أسبوعياً من شركة "الصادق للمعادن" في ساحل العاج خلال السنتين الماضيتين، صور فوتوغرافية لابنتيه نيكول وسابين في جميع مراحل طفولتهما وصولاً إلى ركوبهما الدرّاجة الهوائيّة، العشرين يورو الشرعية وتلك التي تصنعها آلة الهايدلبرغ، صور رقمية عالية الدقّة لرجال ونساء العائلة منذ بداية القرن العشرين وللّوحات الزيتية والمنحوتات التي يمتلكها في بيته، وقائمة مرمّزة بالفتيات اللواتي التقاهنّ مقابل المال مع تقييم أداء كلّ منهنّ بلغة خاصّة لا يفهمها غيره.

محا كلّ ما هو محفوظ لديه من تسجيلات لآلات التصوير الثماني، قرّر أن يطلب في اليوم التالي من عامل الصيانة الكهربائية في المطبعة نزع نظام المراقبة بالكامل ورمي الكاميرات في المستودع، سيتحدّث مع والده بشأن هذا المصحّح، سيأسف على غيابه لأنّه يقوم كما يشهد الجميع بعمل ممتاز لا تُسجّل عليه أدنى ملاحظة وسيبدأ من الغد بالبحث عن بديل له. ربّما يكون وجده فقد زاره شاب جامعي قبل أيّام قال إنّه أنهى إجازته باللغة العربية بدرجة ممتازة، يعرض خدماته لكنّه لم يعجبه لأنه يغمز طوال الوقت بعينه ويثرثر من دون توقف وقال من دون سؤال إنه ليس كغيره جاهلاً بالعمل على الحاسوب كأنّه يلمّح إلى فريد أبو شَعر. قد يضطرّ عبد الله إلى الاستعانة به، سجّل رقم هاتفه على المفكرة.

أعاد مفتاح اليو أس بي إلى مخبئه، شدّ بإبهاميه حمّالة سرواله إلى الأمام، لاحت له بيرسو من جديد كما رآها على الغداء، للمرّة

الأولى منذ زمن طويل، كما يحبّ النساء، مثيرة بفستانها الأحمر وربطة عنقها السوداء.

استحمّ في المساء، وضع عطراً خفيفاً، انتظر مصغياً كي تدخل إلى غرفتها وصبر حتى تغرق في غفوتها الأولى، خرج بثياب النوم إلى قاعة الجلوس، شقّ باب غرفتها، لم تتحرّك فدخل عليها وتوجّه إلى السرير في حالة إثارة وقلبه يدق بقوّة أكثر من المعتاد كأنّه في أوّل غزوة نسائيّة له.

٣٣

عاد فريد أبو شَعر في اليوم التالي، سرق نظرة إلى نافذة بيرسيفون، مرّ أمام مكتب عبد الله فلم يتوقف ولم يلتفت. لا يخاف المواجهة، مستعدّ لتحمّل أيّ عاقبة، توقّع شجاراً واتهامات ليس لديه الكلام المناسب للردّ عليها، صراخاً على مسمع الجميع وافتضاحاً لكلّ مستور. يشعر بأنّ أيّامه في هذا المكان باتت معدودة، كتبت المرأة على لوحها الأخضر عبارة لم ترفقها باسم قائلها، "الحبّ صيد على علوّ شاهق"، استدارت نحوه عند دخوله فظنّ أنّها تنظر في اتّجاهه وأنّها عرفت بما حدث. انتظر المواجهة الكبرى مع حامل العصا، العجوز المتربّص بالصغيرة والكبيرة، ولم يتوقّع أن يحضر رجلان من قوى الأمن الداخلي يطلبان منه مرافقتهما بينما كان منحنياً فوق بروفات المجلّة التي تأخّر في تصحيحها، "بيروت في الليل" وعناوينها، جاكي تشوّه وجهها بعملية تجميل فاشلة وتتوقف عن الغناء، عراك بين الزوجة والعشيقة في أحد المطاعم الفاخرة... سأل الشرطيّين عن السبب فأخرج أحدهما مذكّرة إحضار بحقّ فريد حليم أبو شَعر، مواليد ١٩٨٠...

- هذا أنت أليس كذلك؟

... للاستماع إليه كشاهد في المديرية العامّة للأمن الداخلي.

لم يعثر على مخالفة ارتكبها سوى ما حصل ليلاً مع بيرسيفون، ادّعى الدركيّان جهلهما بما يُنسب إليه فحافظا على صمت مطبق طوال الطريق، وسط زحمة السير.

في المديرية، التقى رجلين يعرفهما، العقيد حاطوم مدير المكتب والمحقق الأجنبي الطويل القامة. دار الحوار بالإنكليزية الممكنة مع جوب فان دي كليرك:

- هل تعرف لماذا استدعيناك؟

- كلا.

بدا فريد صادقاً.

- ما هذا؟

- هذا كتابي، هل انتهيتم منه؟

قالها بلهفة.

- لا، ليس بعد.

أجاب الهولندي ساخراً وأخرج ورقة العشرين يورو، وضعها على الكتاب ودفعهما باتّجاه فريد.

- تفحّص!

ظنّ فريد أنّه أمام مزاح جديد فأمسك بالكتاب يتأكّد من أن صفحاته هي نفسها لكن دو كليرك سارع إلى استرجاع الكتاب وورقة العملة وأوضح الأمر بجليّته:

- اسمع، هناك شكوك قويّة تحوم حول عدد من المطابع في

بيروت بتزوير العملة الأوروبية الموحّدة في طبعتها الجديدة من فئة العشرين يورو وإدخالها ضمن شبكة توزيع باتّجاه أفريقيا وأميركا اللاتينية وأخيراً إلى إحدى دول آسيا الوسطى كما علمنا وحتى إلى أفغانستان، وقد دُهمت جميع المطابع القادرة على هذا النوع من الطباعة المتطوّرة فلم يُعثر على أدلّة حتى وقعنا بالصدفة على كتابك هذا.

تدخّل العقيد اللبناني:

- زاد انتباهنا إليك منذ مجيئك إلى هنا تطالب بدفترك، ألا تتذكّر؟

هناك من استوطن حياة فريد أبو شَعر، من يعبث بها من دون استئذان منه كأنّها مشاع، بدأ كلّ شيء من لحظة دخوله إلى مطبعة "كرم إخوان" في هذا اليوم الذي كانت تغيب فيه الشمس بين مآذن الجامع الأزرق الكبير.

- وما علاقة دفتري وكتابي بتزوير اليورو؟ لا أعرف عن الطباعة شيئاً، جئت إلى المطبعة بالصدفة، وعلى كلّ حال أنا مجرّد مصحّح للّغة العربية...

- نعم، لكنّ كتابك هذا مطبوع على ورق حراري موديل TP ٢٥٠ غراماج ١٢٠ مصنوع من ربع كتّان وثلاثة أرباع قطن مطابق لمعايير الوزن والصلابة المثالية يمكن لمسه وتقليبه آلاف المرات قبل أن يبدأ بالاضمحلال.

كان فريد قد انتبه إلى أنّ ورق كتابه سميك ولا يُستخدم عادة في صناعة الكتب.

- ألا تفهم؟ إنّه ورق اليورو نفسه، هناك وسائل اليوم لمعرفة مكوّنات الورق بدقة تامة!

قال الهولندي بحدّة وهو يدفع له من جديد بورقة العشرين يورو الفنلندية التي دارت العالم لتعود إلى بيروت في محفظته.

تلمّسها فريد بدوره ومدّ يده الأخرى باتّجاه الكتاب أمام جوب فان دو كليرك وراح يقارن بالملمس ورقة اليورو وورقة الكتاب، ثمّ تطلّع إلى وجه المحقق كالنازل في قفص المصعد ينظر من زجاج الباب إلى الواقفين في أحد الطوابق التي لا يتوقف المصعد عندها لتحميلهم.

كان مستعدّاً للمواجهة ودفع الثمن ردّاً على اعتقاده الساذج بأنهم جلبوه لسؤاله عمّا يدور بينه وبين زوجة صاحب المطبعة، وقد حضّر كلاماً عن حريّة البالغين في التصرّف بحياتهم ومقتطفات من نشيد الأناشيد حول المرأة والحبّ، لكنّه بدل ذلك وجد نفسه تحت وابل من الأسئلة بلهجة الاستجواب الجافّ راح العقيد يدوّن إجاباته عنها أمامه في دفتر الإفادات:

- أين طبعت كتابك؟
- لم أطبعه.
- هل لديك نسخ أخرى منه؟
- كلا، لديّ هذه النسخة فقط فأخذتموها.
- من طبعه؟
- لا أعرف، وجدته ذات صباح على مكتبي.

تبادل الرجلان النظرات.

- من أين جاؤوا بالنص؟
- سرقوا المخطوطة ليلاً، نسيتها على مكتبي، بين أوراقي.
- هل تعتقد أنّها طبعت لدى كرم إخوان؟
- لا أعرف.
- هل تعاملت مع هذه الحروف والزخارف الطباعية في المطبعة؟
- وظيفتي مراجعة كلّ شيء قبل طباعته ولم أقع على خطّ الثلث هذا، فهو لم يعد يُستعمل في طباعة الكتب منذ زمن طويل، إنّه أجمل الخطوط العربية وأصعبها كتابة وطباعة.
- أنت تضلّل التحقيق، تؤلّف لنا حكايات...

كان العقيد اللبناني قاسياً في حكمه فانفعل فريد:

- أنا لا أضلّل أحداً وسأخبركم قصّتي من بدايتها. تخرّجت من الجامعة ومعي إجازة في اللغة العربية وآدابها ومخطوطة كلّفتني أيّاماً وسهراً رفضها الناشرون تباعاً كأنّهم عقدوا اتفاقاً في ما بينهم. زرت ما يقارب عشرين منهم، لم يتكبّد أيّ منهم مشقّة تصفّحها وقراءة سطر واحد فيها حتّى وصلت إلى هذه المطبعة، وجدت اسمها في دليل نقابة الناشرين لأنّ أصحابها يملكون رخصة قديمة بالنشر أيضاً. رفض صاحبها بدوره إصدار الكتاب فتحوّلت فيها إلى مصحّح وأشعر كلّ يوم بأنّ الجميع يتغامزون عليّ، يعتقدون أنّي خفيف العقل، لا يهمّني رأيهم بي على كلّ حال، إنّهم موظفون تافهون، صحيح أنهم يتعاطون بالحرف لكنهم ليسوا جديرين به، يعاملونه بالعدد، بالوزن، بالمال، ينتمون زوراً إلى بلد صدّر الأبجديّة إلى العالم ذات يوم. إنهم يلوّثون الكلمة، لكنّي أسدي لهم خدمة لأنهم لم يجدوا

مصحّحاً أفضل منّي. رأوني ممسكاً بدفتري لا أتخلّى عنه لأنّه جزء منّي فانتظروا كي أنساه ليسرقوه ويسخروا منّي، لكنّي وجدته بعد فترة بسحر ساحر مطبوعاً بأجمل حلّة على المكتب أمامي، هناك من يحنو عليّ بسبب دعوات أمّي...

– لكن أين باقي النسخ؟

– لم تصلني سوى هذه فجئتم وصادرتموها بعد أيّام. حتى ساعة حضوري إلى هنا كنت أفكّر أن يداً خفيّة تلاحق أوراقي بسبب ما هو مكتوب فيها.

قاطعه دو كليرك بالسؤال:

– وما هو مكتوب فيها؟ لم يسعفني أحد هنا في معرفة ماذا يحتوي هذا الكتاب.

وأضاف مرحاً:

– آمل أنّك لا تتكلم فيه على تزوير العملة.

فكان جواب أبو شَعر أكثر غموضاً:

– أضناني هذا الكتاب حتى أنهيته، لا أعرف ماذا يحتوي.

– أنت أيضاً؟

حرّك فريد يديه في أكثر من اتجاه:

لا أجد العبارة كي أختصره بها، لا بالإنكليزية ولا بالعربية. أفكّر أنّ يدي كانت تكتب، وأنّ ى صوتاً ليس منّي يملي عليّ، وكلما قرأت فيه أجد فيه جديداً كأنّ هذا الصوت يعود وينزل فيه إضافات. وإن كتابي ستتّسع معانيه حتى وهو محجوز معكم...

كان العقيد والمحقق الهولندي يتبادلان نظرات واضحة المعنى

بينما أبو شَعر يبتعد مسترسلاً:

... فيه روح من كتبوا قبلي، أبو حيّان التوحيدي، عبد القادر الجيلاني "باز الله الأشهب"، مار افرام السرياني الملقّب بكنّارة الروح القدس وغيرهم كثيرون لكنه في الوقت نفسه كتابي أنا ولا يشبه أحداً غيري.

قاطعه العقيد حاطوم بالسؤال إن كان لديه ما يفيد به التحقيق غير هذه الترّهات التي يستحيل تصديقها، ولما لم يسمع منه جواباً قال:

- ستُتّهم بكتم معلومات وبتضليل التحقيق.
- هل أحصل على كتابي؟
- للأسف، كلا.

أجابه المحقق الهولندي.

إنّه من الأدلّة الثبوتية وسيسافر معي غداً في الطائرة إلى أمستردام ومن هناك إلى مدينة ليون الفرنسية، أعرف سيّدة من أصل عربي، ربما تكون لبنانية، تعمل مترجمة ويستعين بها قصر الإليزيه كلما استقبل الرئيس الفرنسي زعيماً عربياً لا يعرف الفرنسية، سأطلب منها أن تقرأ لي مقاطع من كتابك.

ثمّ أبلغ العقيد حاطوم إحساسه بأنّ هذا الشاب بريء تماماً وهناك من يحاول إلصاق التهمة به.

أمّا فريد أبو شَعر فافترض أنّ المسألة ستنقضي كلاماً بكلام حتى نادى العقيد عنصرين من الدرك طلب منهما اقتياده إلى نظارة المديرية العامة لقوى الأمن الداخلي بانتظار أن يبتّ أمره قاضي التحقيق.

٣٤

في صباح يوم قارس من خريف عام ١٩١٨، وداخل عربة قطار، على بعد ٦٠ كلم من باريس، في فسحة داخل غابة، قام تسعة رجال، ثلاثة ضباط من البحرية البريطانية وجنرالان فرنسيان وسياسيان ألمانيان مع جنرال وضابط من البحرية، بتوقيع الاتفاق الذي سوف ينهي حرباً دامت أربع سنوات، وقبل الساعة الحادية عشرة ليلاً، موعد وقف المعارك، بدقيقة واحدة، كان المايجور الأميركي هنري غونتر آخر قتيل يسقط عندما أصيب بنيران صديقة كما يقال لأنه لم ينصع لأمر التوقف عند أحد حواجز الحلفاء وكان ثملاً يحتفل على طريقته بنهاية واحدة من أكبر مجازر التاريخ البشري.

قبل ذلك بشهرين لم ينم فؤاد كرم في الليلة التي تسلّل فيها وراء الجنود الأتراك داخل دير القديس يوسف، فقد تسلّطت عليه فكرة أغرته وأخافته وبقي يفصّلها لنفسه حتّى الصباح. الفرنسيون قادمون بين ليلة وضحاها، هذا ما أخبر به الضبّاط في جزيرة أرواد صاحب جريدة "الوفاق" الذي استأجر مركباً حمّله بما اعتقد أنهم بحاجة ماسة إليه، بنات الهوى، وأبحر به إليهم. الإنكليز في طريقهم إلى

الشام، الأتراك سينسحبون ويقال إنّهم بدأوا بحزم حوائجهم. دخل المطبعة مقابل بيته في الصباح، بابها مشرّع، فوجد الآلة الكبيرة تفكّكت قطعاً والكتب جُمعت في صناديق فهام بحثاً عن الرجل الذي كان يرافق الجنود. لم يره في الليل. وصل إلى وادي أبو جميل، إلى المطبعة العبرية الوحيدة في بيروت. سأل المزراحي، صاحبها، عن شخص من آل الحلواني يعمل في المطبعة الكاثوليكية. كانت المهنة محصورة والحلواني بارعاً.

– وكيف لا أعرفه؟ علّمته اللغة العبرية فحفر حروف هذه المطبعة وسبكها وساعدني في تشغيل الآلات.

أشار إليه المزراحي، القصير القامة، بأن مدّ يده إلى أعلى ما يمكنه فوجد فؤاد الحركة مطابقة للرجل الذي كان يرافق الجنود.

التقاه في الطريق إلى منزله في البسطة، عرّفه عن نفسه ومكان إقامته وكيف وجده ودخل فوراً في صلب الموضوع:

– الترك ذاهبون، نسبقهم إلى المطبعة!

أمسك عبد الحميد الحلواني طربوشه الذي كاد يقع من المفاجأة.

– كيف عرفت؟

– أسكن مقابل الدير، رأيتكم ليلاً وسمعتكم.

– لا أريد السفربرلك، سأموت في الطريق.

رفض في البداية، خاف لكن فؤاد أقنعه بأنّها مسألة أيّام معدودة:

– سيكافئنا اليسوعيّون عند عودتهم.

لم يقتنع عبد الحميد الحلواني بالمكافأة فهو يعرف الرهبان عن كثب لكن صفعة الضابط التركي أمام جيرانه في البسطة ما تزال تحفر

في قلبه. قرّر الاختباء حتّى تنفرج.

في اليوم نفسه، استأجر فؤاد كرم عشرة حمّالين من المرفأ كانوا عاطلين عن العمل وتواعد معهم في أوّل المساء. قادهم في طرقات ضيقة التفافية كي تصعب عليهم العودة نهاراً، كان الليل هادئاً فعملوا بصمت، تعاونوا، اثنين اثنين أو حتّى أربعة أربعة، لا يعرفون ماذا ينقلون في عتمة الليل. نظّفوا المكان قبل طلوع الضوء، حمّلوا كلّ شيء، أرشدهم فؤاد إلى منزل شقيقه القريب الذي أمّنه على مفتاحه قبل سفره إلى الإسكندرية فكدّس كلّ الحمولة في داخله وفي البورة الخلفية المحمية من عيون المارّة والجيران.

صباح اليوم التالي، أرسل زوجته وابنهما إلى أهلها. وشاية واحدة من الحمّالين أو من الحلواني أو من شاهد حشريّ في الليل كانت كافية لدفعه إلى الهاوية. مرّ يومان فلم يحدث شيء لكن في مساء اليوم الثالث ذُعر لما سمع وقع سنابك الخيل ورأى من نافذته رهط الجنود والعربات. توغّلوا في الدير ثمّ خرجوا يتشاجرون بالتركية فالتصق فؤاد كرم بجدار غرفة نومه، كانت تلك أطول دقائق في حياته، حتّى سمع أصواتهم وعجلاتهم تبتعد. اكتمل الفرج بعد يومين مع انسحاب الحامية التركية من بيروت.

في السادس من تشرين الأول عام ١٩١٨، نزل الفرنسيّون منتصرين في المرفأ فحاول الأميرال جورج فارناي وأركان حربه التقدّم وسط الحشود المرحّبة لكنهم اضطرّوا إلى العودة إلى بوارجهم بسبب زحمة المستقبلين. في اليوم التالي، نزل اليسوعيّون إلى اليابسة مباشرة بعد نزول الجنود، قفزوا من البارجة وسارعوا إلى

تفقّد أملاكهم فكتب الأب شانسيل رسالة إلى الرئيس العام للرهبنة قال فيها "استرجعنا أغلب ما أودعناه لدى عائلات الجوار وهم من المسيحيّين الأتقياء، المباني سليمة عموماً، أمّا ما طالته أيدي الجنود الأتراك فقد أُتلف أو نُهب مثل مدرسة الطبّ الفرنسيّة والمطبعة الكاثوليكيّة التي صارت أثراً بعد عين بعدما حُمّلت في القطار إلى دمشق".

بينما احتشد أهل بيروت للترحيب بفرقة القنّاصة الأفارقة و"الفيلق السوري" القادم من حيفا وهم يجوبون الشوارع رافعين العلم الفرنسي المثلّث الألوان، سعى عبد الحميد الحلواني وراء فؤاد كرم، لم يتطرّقا إلى فكرة المكافأة من اليسوعيّين بل عقدا اتفاق شرف وهما يدخنّان النرجيلة في مطعم البحري.

الكتمان حتّى عن الزوجات والأقارب والأصحاب.

شراء مطبعة صغيرة توقّف عملها أثناء الحرب واستخدامها ستاراً وذلك بهمّة الحلواني.

يتحمّل فؤاد كرم مسؤوليّة الآلات وسائر المقتنيات ويُقرّ إذا جرى التحقيق معه بأنّ عبد الحميد الحلواني لم يشارك ولم يحضر.

يشغّل الحلواني الآلات التي يعرفها عن ظهر قلب ويتمّ تقاسم المدخول بالتساوي. عُدّل هذا الاتفاق لاحقاً عندما اكتشف الحلواني أنّ تقاسم المدخول يعني تقاسم النفقات وأنّ الأرباح تتأخّر ففضّل الحصول على أجرة شهريّة يكتفي بها.

أخيراً، الانتظار.

وانتظرا.

سلّم آخر والٍ عثماني على بيروت، إسماعيل حقّي بك، ما كان بقي له من سلطة إلى رئيس مجلس بلدية بيروت عمر الداعوق. عادت الحياة إلى دير القديس يوسف وعاد الأب لامبير البلجيكي المحنيّ الظهر يقرأ عند درج الكنيسة في الصباح كأنّ شيئاً لم يكن. أخبر فؤاد أنّه تقدّم للتطوّع في الجيش لكنّهم رفضوه بسبب عاهته، سقط رهبان كثر في المعارك وهو كان يحلم دائماً بالعودة إلى بيروت. صار فؤاد يقصده حتى وصل الكلام بينهما إلى المطبعة. أخبره لامبير أنّ جيران الدير رأوا الجنود الأتراك يأتون ليلاً ومعهم حمّالون وعربات خيل ونقلوا المطبعة إلى محطة القطار ومن هناك إلى دمشق، فأيّد فؤاد كرم الرواية مضيفاً إليها تفاصيل قال إنه شاهدها من نافذة بيته في الجهة المقابلة من الشارع. لم يبدِ الأب لامبير أسفاً كبيراً على فقدان الآلات والمسبكة والحروف بقدر حزنه على خسارة كتب قيّمة ونادرة، الترجمة الإنكليزية لكتاب **ألف ليلة وليلة** في عشرة مجلدات بقلم السير ريتشارد فرنسيس برتون و**مروج الذهب** للمسعودي في طبعة باللغتين العربية والفرنسية ضمن تسعة أجزاء وغيرهما الكثير. لم يكن فؤاد يُكثر من طرح الأسئلة كي لا يثير شكوكاً لدى اليسوعي البلجيكي وبذل في المقابل جهداً كي يحفظ عناوين الكتب التي أسف الأب لامبير على فقدانها ويسرع إلى منزل شقيقه كي يتأكد من وجودها هناك ويخفيها ويخفي ذكرها عن الحلواني.

انتظرا عودة اليسوعيّين إلى ديرهم في حيّ باب توما في دمشق بعد أن أخرج منها الجنرال غورو الأمير فيصل ابن الشريف حسين. وهناك سأل الرهبان أصحاب المطابع، وأوصلتهم سلطات الانتداب

إلى مسؤول محطة القطار حيث يُفترض أنّ الحمولة عبرت فنفى إنزال أيّ مطبعة في محطة دمشق مضيفاً أنه كان ممنوعاً عليه معاينة الحمولات العسكرية. كانت الفرضية الوحيدة الممكنة أنها أكملت رحلتها إلى تركيا وبدأ الرهبان يعدّون لشراء آلات جديدة والبحث عن متموّلين للمساهمة في المشروع الجديد.

بدأ فؤاد كرم وعبد الحميد الحلواني العمل خفية في البداية، كان الحلواني يأتي بالطلبيات ويجري تنفيذها في المخازن التي استأجراها لإيواء المطبعة إلى جانب ملهى التباريس، بقي فؤاد يرتعب كلما قصده ضابط أو موظف في إدارة الانتداب إلى أن انتقل الأب لامبير إلى مصر وأدرك فؤاد أنه لم يعد هناك من طاقم الآباء اليسوعيّين قبل الحرب سوى راهب عجوز واحد غير قادر على استرجاع ما حدث.

عندها رفع فؤاد كرم اللافتة التي ما زال ورثته ينقلونها معهم من مكان إلى آخر ويعلقونها على بابهم، "مطبعة كرم إخوان، ١٩٠٨" كُتبت على صفيحة من النحاس يُعاد تلميعها كلما سوّدتها السنون. أضاف، من باب الوفاء، اسم شقيقه الذي طاب له المقام في الاسكندرية وندرت أخباره وأضاف عشر سنوات على عمر المطبعة للإيحاء فقط بأن عائلته أعرق في المهنة ممّا تتناقله بعض ألسن الحسّاد.

٣٥

كانت بيرسيفون تحمل فروضها التطبيقية في الهندسة الداخلية وتقصد البناية القديمة الطراز في زقاق البلاط حيث يقبل بها نوبار أن تكون الشاهد الوحيد على تمارينه قبل عرضها أمام الجمهور. تسمّيه "درويشي الدوّار"، يلبس ثياباً من تصميمه، يُفرغ الغرفة من كلّ أثاث ويبقي على سجّادة عجمية فاخرة معلّقة في الجدار. يخطو حافي القدمين وينخطف مع موسيقى أم كلثوم، ينساها ترسم على أوراقها جالسة أرضاً. تطيل السهر، تنتظره حتى يتعب من ارتجال تصاميم رقصاته ويجلس إلى جانبها يتصبّب عرّقاً وقلبه ينبض بقوّة. يضع رأسه على كتفها فتسترخي عليه ليضمّها بذراعه ويقول لها بلطف واعتذار:

– بيرسو، أنا لا أحبّ النساء.

رحل نوبار قبل أن يبلغ الثلاثين من عمره، رمى نفسه أو دفعه صديقه من علوّ شاهق، لا يهمّ، مات حبّاً، من فرط حبّه لصديقه أو من تعلّق صديقه به. ذهبت إلى حيث سُجّي في قاعة ملاصقة لكنيسة الأرمن الكاثوليك، لم ترَ كاهناً يصلّي عليه، لم تتحدّث مع أقارب

له أو أصدقاء كانوا هناك ولا يتجاوز عددهم عدد أصابع اليدين، لم تسأل عنه يوماً من أيّ أبوين انحدر، بكته وحدها وصار إحدى أساطيرها.

وهذا الذي ظهر فجأة في المطبعة حاملاً كتابه وفي عينيه نظرات متعالية تخيّلت له حياة تناسبها. أن يكون مزيجاً من رجل دين صارم ورجل شغف جامح، فم الذهب الذي تسحرها لغته ولا تفهمها. لم تحفظ اسمه، قرأته في الصفحة الأولى للمخطوطة وفشلت في تذكّره في ما بعد، ردّدوه على مسمعها ولم يعلق في ذهنها. منذ ليلة المطبعة لم يعد يظهر صباحاً مع الواصلين إلى العمل، تعبر نهاراً في الردهة بين المكاتب فلا تراه، شابّ آخر أمامه حاسوب يضرب على أزراره يجلس مكانه، يتلفت مستكشفاً المكان وشاغليه. أخبرها عبد الله من دون مقدّمات أنّ الشرطة أخذت المصحّح السابق من المطبعة واعتقلته بتهمة تزوير العملة، فعاد إليها فجأة المشهد وهي تنزل للمرّة الأولى إلى المطبعة ليلاً، أنيس ولطفي والشاب صاحب الصوت الغريب، يقرّبون الأوراق من المصباح ويومئون برؤوسهم إيجاباً.

عبد الله المشغول بتردّي أحوال المطبعة وباضطراره لصرف قسم كبير من العاملين وتأخر الأجور وتراكم الدفعات المصرفية غير المسدّدة، عبد الله الذي يشعر بأن لا شيء في الأفق قد يوقف تدحرج مؤسّستهم إلى القعر، يتحيّن الفرصة دائماً كي يخبر زوجته أنّ المصحّح هذا يعيش مع أمّه وقبل أن يأتي إلى المطبعة كان يعطي دروساً خصوصية للتلامذة المقصّرين في صفوفهم وأن والده حلّاق رجالي في ضاحية فرن الشبّاك، يلفظ المهنة واسم الحيّ باستخفاف،

ويضيف أنّ ما يكتبه وما جاء إلى المطبعة كي ينشره منقول من كتابات أقارب له عُرفوا بنبوغهم الأدبي.

لا تفهم بيرسيفون إصرار زوجها على إسماعها هذه التفاصيل وتسأل أنيس كيف دخل الشاب السجن فيرفع عن نفسه التهمة:

– أنا عبد مأمور في هذه المطبعة، اسألي عنه الخواجه لطفي!

تخيّلته واقفاً أمام المحكمة يقرأ في كتابه وشعره منكوش وصارت في أوقات فراغها تخطّ كلماته التي دوّنت منها قائمة على دفتر للرسم، تلعب بها، تحرّك خطوطها ولا تسأل عن معانيها.

لم ينسها المحامي صاحب الشعر الوفير. لا تعرف كيف حصل على رقم هاتفها وبادرها برسالة مُغفلة كناية عن سؤال:

– ما هي الهديّة التي تحلمين بتلقّيها؟

– من السائل؟

– دليل معرض "ذاكرة بيروت".

– تبدو ثريّاً، أَحلم بتمثال المشّاء لجياكوميتي.

وفي رسالة أخرى كتبت له بالتباس مقصود:

– مات غوغول!

– هو "نفس ميتة" على كلّ حال. من هو غوغول؟

رأت فلور البيشون المالطي مرميّاً تحت تمثال فينوس العارية والقيء الممزوج بالدم يخرج من فمه، صرخت فهرعت إليها بيرسيفون التي حمدت الله أنّ نيكول وسابين غائبتان، ستخبرهما أنّ الكلب تاه ولم يعد فتتخيّلان له حياة جديدة في بيوت أناس آخرين فوق أرائك وثيرة ولا تحزنان كثيراً.

كانت تستأنف تمارينها النصيّة المتقطعة في الصباح الباكر مع المحامي، من الشرفة المطلة على البحر، طلبت التنفس خارج بيروت بعد تسمّم الكلب الصغير وهرباً من أحوال المطبعة المتردّية، نهاية أسبوع في الفندق الجبلي المزدان بصور النزلاء من المشاهير، المندوب السامي الكونت دو مارتل، أسمهان، أغاتا كريستي أمام المدخل، أو الرئيس كميل شمعون مع زوجته وولديه. الطفلتان تلعبان بالسكايت في الممرّ بين الطاولات تحت رقابة فلور وهي تقرأ في رواية **وداعاً يا جميلتي**، تشرب القهوة وتكتب على هاتفها إلى مراسلها:

- كل الساعات جارحة لكن هذا الصباح المنير يعيدني إلى الحياة.

وقبل أن يأتيها الجواب يترك عبد الله إفطاره في قاعة الطعام ويخرج إلى الشرفة مسرعاً وهاتفه في يده مفتوح مع محادثه في الطرف الآخر، ويقول لاهثاً:

- اشتعل حريق في المطبعة!

ينظر في البعيد إلى بيروت مضطرباً كأنه يريد أن يرى من هذه المسافة البعيدة الدخان بأمّ العين. تسمع فلور وتطلق صرخة لفتت زبائن الشرفة.

اختفى آل الصادق، لم يبق منهم في المطبعة سوى أبو علي، الحارس الليلي الذي كرّر أمام المحققين الرسميين اللبنانيين وأمام من انتدبتهم شركتا التأمين وإعادة التأمين أنّه لا يعرف كيف اشتعلت الدنيا فجأة وأنّ أصوات الجيران هي التي أيقظته من نومه، وقال

أحدهم إنّه رآه يفرّ نزولاً حتى قبل أن يتصاعد الدخان. قيل كالعادة إنّه احتكاك في الأسلاك الكهربائية في آلة الهايدلبرغ عُزي وفق تقرير الخبير الجنائي إلى خلل في تحميل الطاقة عند الانتقال التلقائي من المولّد الخاصّ بالمطبعة إلى التزوّد من الشبكة العمومية عند الساعة السادسة صباحاً كما يحصل كلّ يوم. وجدت سيّارات الإطفاء صعوبة في الوصول بسبب ضيق الطريق الصاعد إلى المطبعة، ما عجّل بامتداد النار والقضاء على الآلة الحديثة التي تفحّم القسم الأكبر منها وتحوّلت خردة، وطالت النار مخزون الورق في الردهة الكبيرة وعصفت بكل ما اعترض طريقها من أثاث جلدي وماكينات ومكاتب خشبية ووصلت إلى مكتب المدير وذهبت بمقتنياته. خرجت ألسنة اللهب من الباب المؤدّي في أعلى درج الحجر إلى مطبخ البيت العلوي فاندفعت بفعل هبّة ريح مفاجئة وأشعلت الستائر والأسرّة وقماش الكنبات وخزانات الثياب وثياب بيرسيفون وكتبها واسودّت فينوس العارية في فسحة المدخل ولم يسلم من زخارف ومرايا غرفة الجلوس سوى الطاووس أو بالأحرى رأس الطاووس الذي بقي ينظر في المكان بعين متفاجئة وقد احترق نصف ثوبه الملوّن. لم يكن ممكناً معرفة المزيد عن الأسباب لأنّ عبد الله كرم كان قد طلب من معلّم الصيانة نزع آلات التصوير جميعها فلم يبق أثر مسجّل لما حدث في تلك الليلة.

في الصباح، فوجئ الواصلون من العاملين بحجم الكارثة، وكان العمل جارياً للسيطرة على آخر بؤر الحريق، وقف لطفي كرم بجانب أشجار الجاكارندا التي تحوّلت إلى جذوع سوداء، يضرب بعصاه

الأرض أمام حريق بيت والدته والمطبعة التي ورثها عن أبيه وجدّه.

مدّد دودول وبيرسو إقامتهما في فندق الجبل بانتظار العثور على بيت جديد في بيروت، وفي اجتماع مجلس نقابة أصحاب المطابع وقبل أن يلتئم النصاب القانوني للبدء بمناقشة جدول أعمال الجلسة، راح صاحب مطبعة "الأنوار" يطرح الأسئلة "البريئة" التي يعرف أجوبتها عن حريق مطبعة "كرم إخوان".

– المطبعة مؤمّنة؟

– نعم.

– ما هي قيمة البوليصة؟

– سبعة ملايين دولار.

– لدى من؟

– لدى شركة "مديترانيان إنشورنس كومباني" ومغطّاة من "لويدز".

– من صاحبها؟

– سليم ابن جورج ملكي.

– سليم ملكي شقيق زوجة عبد الله كرم، أليس كذلك؟

يسأل بتجاهل العارف ويختم محرّكاً السيجار بين إصبعيه:

– سيحصلون على الحدّ الأقصى من قيمة التأمين، العملية مربحة، ألم أقل لكم إنّ الأشياء في المرآة ليست كما هي في الحقيقة؟

٣٦

دخل فريد أبو شَعر زنزانة المديرية العامة لقوى الأمن الداخلي على رجلين صامتَين، واحد زوّر توقيع قريب له، مغترب في فنزويلا، وباع منزله العائلي في غيابه، وآخر ضُبط في مطار بيروت وفي حوزته مليون حبّة كبتاغون ويرفض الإفصاح عن شركائه في التهريب. أمضى فريد اليوم الأوّل ممدّداً ينظر إلى السقف ويتأمّل في ما حدث له. في اليوم التالي أخبراه قصّتيهما باقتضاب وأُحضر شابّ جديد لم يتأخّر في القيام بالأمر نفسه فروى كيف أطلق النار من مسدّسه الحربي على رجال الدرك الذين جاؤوا لمنعه من إكمال بيته من دون رخصة بناء. جاء دور فريد فابتسم وأسند ظهره إلى الجدار وقال إن كل ما حصل له كان بسبب امرأة. امرأة عجز المصوّرون عن رسمها لفرط ما بهرهم جمالها، ربّتها أمّها صغيرة في الخفاء عن الفضوليين مع شقيقتها في بيت وسط الحقول. ظنّ السجناء أنّهم سيستمعون إلى عملية اختطاف أو إلى جريمة شرف كما يحصل في بعض الأنحاء اللبنانية قبل أن يكمل فريد كيف أن الربيع جاء ومعه الزهور وبينما كانت الفتاة تقطف باقة من النرجس، انشقّت اليابسة وخرجت منها عربة

تجرّها ثمانية جياد زرقاء قاتمة بلون الليل. صفَر مهرّب الكبتاغون غير مصدّق ونظر إلى رفيقيه لكن فريد لم يأبه وقال إنّ شقيقتها هرعت لتحول دون اختطافها على يد حاديس، سيّد الجحيم، وإذا بالجميع يختفون بضربة عصا، بكت شقيقتها وتحوّلت إلى عين ماء، حضر لمطلق النار على قوى الأمن الداخلي تعليق ساخر لكنّه امتنع عن التفوّه به خشية أن يتوقف فريد عن الكلام لأن الموقوفين كانوا قد بدأوا يستسلمون لحكايته. تاهت أمّها خلفها وتركت الأرض بلا ثمر والناس في مجاعة فتدخلت الآلهة لإعادة ابنتها إليها فوافق حاديس رغماً عنه على إرسالها إلى فوق فتوقفت دموع شقيقتها. لكن أحد حرّاس البساتين كشف أنه رأى الفتاة تقطف رمّانة وتأكل منها سبع حبات ومن يأكل من ثمار جهنّم لا يغادرها. تدخّل كبير الآلهة وقرّر أن تمضي الفتاة ستّة أشهر في جهنّم وستة فوق سطح الأرض، وهكذا انقسمت السنة إلى فصول.

سأل مزوّر توقيع قريبه:

- وما اسم هذه الفتاة؟
- بيرسيفون.
- وهل تعرفها؟
- لا أحد يعرفها مثلي.
- وأنت، ماذا فعلت كي تدخل السجن؟
- قالوا إنّي زوّرت ورقة العشرين يورو الفنلندية.

اختلط الهزل بالجدّ، وصار رفاق الزنزانة يطالبونه بحكايات أخرى قتلاً للوقت، وعيّن له شقيقه الأكبر محامياً من أقارب زوجته،

تعهّد بتسديد نفقاته وأخبره أن فريد بريء يعيش فوق غيمة ولم يجمع في حياته مالاً يكفي كي يفتح لنفسه حساباً في البنك. اجتمع به المحامي فوجده غير مدرك تماماً لما يحصل له وأنذره أنه إذا استمرّ في تكرار القول إنّ لعنة ما تطارده بسبب كتاباته وإن التهمة مجرّد ذريعة للسطو على ديوانه فلن يتمكن من مساعدته، وإذا ثبتت عليه التهمة فقد يُسجن لمدة ثلاث سنوات قد تصل إلى خمس إذا اعتبر القاضي أنه يسخر من المحكمة عند التفوّه بهذه الادّعاءات.

اعتقد المحامي أنه لا بدّ يعرف كيف طُبع كتابه ومن طبعه فشكّ في أنه يغطّي على أحد هناك فأخبره أنّ المطبعة احترقت ولم يبق منها الكثير، اشتعلت ليلاً في غياب العاملين فيها وسكّان البيت الذين كانوا في إجازة. أوضح له أنّه يريد إخراجه ممّا تورّط فيه وأن "الجماعة" خرجوا نظيفين من قضيّة تزوير العملة وباحتراق المطبعة لا يبقى أيّ دليل، لا بل سيحقّقون ربحاً إذا حصلوا على تعويضات شركة التأمين ويتمكنون هكذا من صرف العاملين لديهم بسبب خراب وسائل الإنتاج فيُعفى ربّ العمل من دفع كامل التعويضات القانونية.

– أنت ستُصرف من دون تعويض، لكن لماذا عليك أن تتكبّد السجن؟ لم يزرك أحد منهم، لم يسألوا عنك، وإن كانت هناك من جريمة فهم المرتكبون.

دفع المحامي ببراءة موكّله أمام القاضي لكنّه لم ينجح في إطلاق سراحه، وبالرغم من شعور القاضي بأنّ المتهم الماثل أمامه غير مؤهّل لتزوير العملة وتسويقها، اضطرّ إلى الحكم عليه بالسجن ثلاث سنوات.

وجد في السجن نسخة من القرآن فاستعارها وأعاد قراءته واقفاً، كان يقرأ طوال الوقت، أوصى شقيقيه على قائمة من الكتب، يقرأ واقفاً ولا يكتب، ممّا أثار فضول رفاقه في البداية ثم اعتادوا عليه وألفوه وأحبّوه.

خرج فاحتفلت به أمّه بمأدبة من المشاوي والفوارغ وصحون الحمّص واللبنة والكبيس دعت إليها شقيقيه اللذين حاولا استجوابه فأصرّ على إنكاره معرفة أيّ شيء وصار يغيّر الموضوع بالاستفسار عنهما وعن عائلتيهما لكنّه استغلّ ذهاب أمّه إلى المطبخ كي تأتي بالمزيد من الصحون ليرفع كأس العرق ويضربه بكأسي شقيقيه، يشربون نخباً ويسألهما فجأة:

- وهل يشي ابن حليم أبو شَعر بامرأة؟

حدّق إليه شقيقاه غير مصدّقين.

- ... وجميلة لم ترَ مثلها عين؟

في اليوم التالي، دخلت عليه أمّه في غرفة النوم حاملة دفتره، مسوّدته التي باخ لون غلافها فانفعل فريد وراح يتأكّد من صفحاتها فرحاً.

- دقّ الباب في الصباح الباكر رجل أصابع يديه سوداء، يقول إنه يحبّك ويعرفك من المطبعة، أعطاني دفترك هذا وقال إنك بريء، لكنّك لا يجب أن تتحرّش بنساء الأكابر...

سألته عن اسمه فقال إنك ستعرفه.

المعلّم أنيس الحلواني الذي طاله السخاء والوحيد الذي استفاد من فائض المال في المطبعة لتحسين وضعه، إذ اقتنى لعائلته شقة

في حيّ الظريف كي يتحرّر من الإيجار، وصل إلى المطبعة صباح الحريق فذُهل لما رأى من سواد وخراب، بقي واقفاً إلى جانب لطفي كرم حتى تمكّن من الدخول إلى القبو الأخير فوجد مخبأه سليماً لم تطله النيران، عرف أنّه سيتقاعد من المهنة فقرّر استرجاع حروف جدّه عبد الحميد، حمّلها في سيّارة أجرة كما جاء بها ونقلها إلى بيته وحمل معها الدفتر الأحمر. ويوم بلغه بعد مرور زمن على الأحداث أنّ فريد أبو شَعر خرج من السجن استدلّ على بيته في شارع الصليب الأحمر وسلّم الدفتر لأمّه.

انصرف شقيقا فريد بعد الغداء فتمدّد على كنبة الصالون أمام التلفزيون وهو يضمّ دفتره إلى صدره وقد صمّم على ألّا يضيع منه بعد الآن. عاوده شبح بيرسيفون في عتمة المطبعة، اختلطت عليه النار التي قيل إنّها التهمتها بألسنة لهب جهنّم حيث نزل صاحب عربة الجياد بالصبيّة الجميلة، ثمّ استسلم لقيلولة لم يحظ بها من زمن طويل.

في بداية المساء قصد "لوس لاتينوس" ولما "نزل" صاحبه أيّوب على عادته من غرفته في الفندق إلى الملهى حوالى الساعة الحادية عشرة، كان المكان شبه خالٍ يُطربه فقط صوت أمّ كلثوم المرتفع في أغنية "الحبّ كده"، وكانت شاشة التلفاز الكبيرة المقطوع عنها الصوت تنقل مشاهد مساجين لا يمكن التكهّن بهويّاتهم يرتدون ملابس برتقالية موحّدة ويجثون على ركابهم أمام مجموعة من المقاتلين في يد كلّ منهم مسدس مصوّب إلى رأس الأسير أمامه.

كان يمكن للمشاهد أن يلاحظ بسهولة مدى الشبه بين وجوه الأسرى ووجوه سفّاحيهم. أشاح أيّوب بنظره عن شاشة التلفاز فرأى صديقه فريد أبو شَعر جالساً إلى البار، يرفع يده إلى أعلى وينزلها، يُرجع جسمه إلى الخلف ويدل إلى لامكان، كان في لحظة انخطاف شديد مستغرقاً في ما يقرأه من دفتره الأحمر على مسامع لونا، ملامساً بأصابعه وبراحة يده كتفها العارية وأسفل عنقها، يسترسل في المقاطع إلى آخرها وينهي كلّاً منها بجرعة "جاك دانيلز" ينطلق بعدها من جديد. كان المشهد غريباً على أيّوب الذي لم يرَ مرّة ابن قريته على هذه الحال من الانخطاف، وما لفته أكثر أنّ لونا التي كان ممنوعاً عليها شرب الكحول مع الزبائن بل يُفترض بها التخلّص بعناية من محتوى الكأس كي تحصل على غيرها، كانت تتذوّق الويسكي الأميركي وتنظر بحبور إلى عينَي فريد أبو شَعر كأنّها تفهم لا بل تشرب بكأسها ما يلقيه عليها بلغته العربية الفصيحة.

'من الروائيين الكبار'

Guardian

'رسّام مجتمع هو جبور الدويهي'

النهار

عندما وجد على مكتبه مخطوطته الضائعة وقد تحوّلت كتاباً فاخر الطباعة بنسخة واحدة، لم يكن يعلم أنّها الدليل الوحيد للأنتربول في قضيّة تزوير.

فريد، الشاب الثلاثينيّ، ابن القرية الجبلية، ينتقل للعيش مع والدته في بيروت، يجول على عشرين داراً للنشر، ترفض جميعها طباعة مخطوطته، إلى أن يعرض عليه صاحب «مطبعة كرم» العمل لديه مصحّحاً للغة العربيّة.

'الكتاب' طريقه إلى قلب بيرسيفون، وكذلك إلى السجن، وسبيله للخروج من ثوب عائلته واسمها.

جبور الدويهي كاتب وروائي لبناني. صدر له عن دار الساقي 'حيّ الأميركان' (جائزة سعيد عقل 2015)، 'شريد المنازل' (جائزة 'الأدب العربي' 2013 وفي القائمة القصيرة للجائزة العالمية للرواية العربية 2012)، 'مطر حزيران' (في القائمة القصيرة للجائزة العالمية للرواية العربية 2008)، 'ريا النهر'. تُرجمت رواياته إلى الفرنسية والإنكليزية والألمانية والإيطالية والإسبانية والتركية.

